د. أحمد حجازي السقا

تاريخ العرب القديم

من إبراهيم (عليه السلام) إلى ظهور الإسلام



مكتبة النافذة



د. أحمد حجازي السقا


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

لقديم

الجيزة : ٢ شارع الشهيد أحمد حمدي (الثلاثيني) . فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٢



الباب الأول



الفصل الأول

مصادر دراسة تاريخ العرب القديم

مصادر دراسة تاريخ العرب القديم

* **القرآن الكريم** : الذى يعتبر أصدق مصدر للتاريخ الإسلامى منذ بدايته وحتى الساعة، يعتبر أيضاً مصدراً للتاريخ العربى قبل الإسلام، ففى كثير من آياته إشارات واضحة لأديان العرب قبل الإسلام ومعتقداتهم وطقوسهم إلى جانب عاداتهم كوأد البنات، وشرب الخمر، ولعب الميسر، إضافة لذكره لعدد من الأديان السماوية السابقة للإسلام كاليهودية والنصرانية أو إشاراته إلى معرفة العرب للأديان الوضعية كالمجوسية والصابئية، كما أنه أول المصادر التى أشارت إلى قيام بعض الدول كعاد الأولى والثانية، وثمود الأولى والثانية وإرم وغيرها.

* **الحديث والتفسير والسيرة** : من المعروف أن الحديث النبوى يهدف بالدرجة الأولى إلى تفسير بعض آيات القرآن الكريم، فلذلك فهو مكمل لمصدرنا الأول [القرآن الكريم] فقد احتوت كثير من الأحاديث النبوية على مسائل تفصيلية خاصة بموضوعات تناولها القرآن الكريم، ثم تناولها الشراح بالحديث المستفيض كما فعل الطبرى مثلاً.

وما يقال عن الحديث والتفسير ينطبق على كتب السيرة النبوية؛ إذ تعرضت لكثير من موضوعات تاريخ العرب قبل الإسلام مما ورد فى القرآن الكريم والحديث ومما يتعلق بسير الأنبياء والرسل، والتى اشتملت على كثير من الشعر العربى القديم؛ لتؤيد بها ما سجلته من أحداث، مثال ذلك كتاب أبى محمد عبد الملك بن هشام: سيرة النبى، أو كتاب هشام بن محمد الكلبى : الأصنام.

* **روايات الأخباريين الأوائل:** اهتم مؤرخو العرب الأوائل بتدوين التاريخ العربى القديم ودونما الدخول فى تقسيمات مدارس هؤلاء المؤرخين أو الرواة وتخصصاتهم سنكتفى فى هذا المقال بذكر بعضهم، ومنهم:

عبيد بن شرية الجرهمى، أحد المخضرمين، والذى اختلف فى أصله، فقيل إنه من صنعاء، كما قيل إنه من الرقة بالعراق، والذى يعتقد أنه عمر ١٥٠ عاماً من السنين، لذا يظن أنه أدرك من الجاهلية ملوك الغساسنة والمناذرة، وشهد محاولة ضرب الأحباش للكعبة عام الفيل، وكتابه «أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها»، من حيث موضوعه فهو مقسم ثلاثة أجزاء:

الأول : يتناول القبائل العربية القديمة، منذ عهد نوح عليه السلام، انتهاء بحفدته وتمكنهم من الانتشار فى الأرض.

الثانى : يتناول القبائل العربية الأولى [البائدة] كعاد وثمود وطسم وجديس، والأنبياء

الذين أرسلوا إليها.

الثالث : يتناول تاريخ اليمن منذ مملكة سبأ وينتهي بحسان بن تبع أسعد الكامل

وبالرغم مما يعيب هذا الكتاب من استطراد أشبه ما يكون بالقصص الأسطوري أو الشعبي، فإن من مزاياه ما يحويه من معلومات هامة ذات طابع جغرافي و طبوغرافي عن بعض نواحي بلاد العرب، مثل الأحقاف والحجر ووادي القرى واليمامة، وعن مسميات الرياح عند العرب وأسماء سنوات القحط والجفاف، وأسماء الأيام في الجاهلية، إلى جانب ذكره لعدد من الأصنام وتناوله للطقوس الدينية التي كانت تمارس وقتذاك.

وهب بن منبه، يمني يهودي، فارسي الأصل، توفي حوالي سنة ١١٠هـ، ٨٢٨ م، من الطبقة الأولى للأخباريين، نقل عنه الأخباريون اللاحقون كتابه: «التيجان في ملوك حمير»، يقع في ٣٠٠ صفحة، حسب طبعة حيدراباد الدكن، سنة ١٣٤٧هـ مقسم هو الآخر إلى ثلاثة أجزاء.

الأول : يعالج بداية عمران الأرض بآدم وحواء وأولادهما ثم نوح وأبنائه، وتفرقهم في شبه الجزيرة العربية، ثم في مختلف أرجاء العالم، وهذا ما يعرف الآن باسم الأصل السامي أو العبري لرسم شجرة النسب الإنسانية، والتي تصدى لها مؤخراً بعض الباحثين بالتحليل والنقد و استبدلوها بطريقة تقسيم الشعوب إلى مجموعات لغوية أو ما يعرف بنظرية البديل (١) .

الثاني : يتناول القبائل العربية الأولى [البائدة] مثل عاد وثمود وإرم وجديس وطسم وجرهم.

الثالث : يبحث في تاريخ ملوك اليمن منذ عهد يعرب بن قحطان حتى عهد سيف بن ذي يزن، بمعنى آخر فإنه امتد بموضوعه فشمل حكم الأحباش لليمن، ثم مجيء الفرس لها عندما استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى، وبذلك يكون في موضوعه هذا أشمل من عبيدة بن سرية الجرهمي.

من المآخذ على وهب بن منبه: ادعاؤه معرفة الكتب المنزلة القديمة جميعاً، ومحاولته صبغ تاريخه بالصبغة اليهودية، وعدم موافقته لاستخدام العقل عند النظر في العلوم الدينية، ومهاجمته استخدام القياس.

ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن الحائك الهمذانى، الذى توفى حوالى ٣٤٠هـ، ٩٥١م، يمنى، ينتسب إلى قبيلة همذان الكبيرة، نسابة مشهور، فهو إضافة لعلمه بالأنساب عالم باللغة والرياضيات والشعر.

من أشهر مؤلفاته :

صفة جزيرة العرب، والإكليل الواقع فى عشرة أجزاء، ومؤلفه الثانى، استمدت منه هذه الدراسة كثيراً من المعلومات خاصة الجزء الأول والثانى اللذان نشر بعضهما فى جامعة ابسالا(upsala) من بعض مخطوطات برلين ثم حققهما ونشرهما محمد بن على الأكوع الجوالى بالقاهرة سنة ١٩٦٤م، ١٩٦٦م «مجموعة المكتبة اليمنية».

ويتناول فى الجزء الأول : نسب ولد الهميسع بن حمير، ويبدأ كما هى العادة بأدم وبنيه، ثم نوح والطوفان وأبناء نوح، ويسرد أنساب قحطان وحمير بن سبأ، وأنساب قضاعة ومهرة وخولان.

وفـــــى الجزء الثانى : يستمر الهمذانى فى سرد أنساب القبائل اليمنية إلى القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، أى حتى وقت حياة الهمذانى نفسه.

وفـــــى الجزء الثامن : يستفيض الهمذانى فى الحديث عن أخبار العرب، وبالأخص فى الحديث عن آثار اليمن كقصور ومحافد وحصون صنعاء وظفار ومأرب ونجران وصرواح وغيرها.

إضافة للكتابة العربية من الخطوط والحروف والمقابر وثروة اليمن الاقتصادية، لذلك فالجزء الثامن مرجع هام لأى دارس لتاريخ اليمن القديم.

من محاسن الهمذانى : معالجته فى ثنايا الأنساب لبعض القضايا التاريخية القديمة، سواء الخاصة باليمن أو العرب أو بالأمم الأخرى التى كانت على اتصال باليمن كالفرس، إلى جانب ذكره للمراجع التى اعتمدها كمحمد بن إسحق وهشام بن الكلبىّ أو كعب الأحبار والشعراء، من جاهليين ومخضرمين أو ممن عاشوا فى عصر الإسلام.

من المآخذ عليه : تعويله بعض الأحيان على الروايات الأسطورية.

هشام بن محمد بن السائب الكلبى، توفى سنة ٢٠٤هـ، ٨١٩ م، والذى يعتبر من أعلام الطبقة الأولى فى رواية أخبار العرب فى الزمن الأول وفى الجاهلية، وقد تعددت موضوعاته، فشملت كل أحوال العرب قبل الإسلام.

وكتابه «الأصنام» احد المصادر المهمة لدراسة تاريخ العرب القديم، فهو معلم جيد بكل

ـا كان يعبده العرب قبل الإسلام من الأحجار والأصنام والأنصاب والأوثان إلى جانب بيوت العبادة المعظمة عند العرب كالكعبة، وكعبة نجران ورئام، وما يتعلق بها من طقوس عبادة كتقديم الذبائح والقرابين والشعائر الخاصة بالحج، كما يتناول اليهودية والنصرانية وبقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل أو ما عرف بالحنفاء.

كان ابن الكلبي المنهل الذي استقى منه لاحقوه كثيراً من الموضوعات، رغم ما فى مؤلفاته من القصص والأخبار ذات الطابع الأسطورى، والتى لا تتلاءم مع منهج النقد التاريخى فى العلم الحديث.

حمزة بن الحسن الأصفهاني : والذى يعتبر كتابه تاريخ "سنى ملوك الأرض والأنبياء"، مصدراً هاماً من مصادر تاريخ العرب القديم، فهذا المؤلف يتناول التاريخ منذ بدء الخليقة حتى أيام المؤلف، ويقع فى عشرة أجزاء.

الأول منها : تناول عصور ما قبل الإسلام، ويبدأ ببدء تعمير الإنسان للأرض، ثم يعرض للدول القديمة من بابلية، وفارسية، واغريقية، ورومانية وبيزنطية، كما يتناول دول العرب فى اليمن، والحيرة ، ونجد والحجاز.

تميز الأصفهاني، بحكم موطنه، بإتقانه للغة الفارسية وبإحوال الفرس كما تميز بالدقة، واهتم باختيار مصادره كتباً كانت أم رجالاً، فهو لا يكتفى بالكتاب الواحد مما ترجم فى تاريخ الفرس مثلاً، بل يجمع كل ما وقع بين يديه منها، ويقارن، ويحاول تفسير وجه الاختلاف فيها لكى يخرج بما يراه صحيحاً من التواريخ، كذلك فإن كتابه تنطبق عليه ـفة التأريخ (Historiographie) قبل أن يكون تاريخاً (History).

وبفضل المقارنات التى أجراها بين عهود الملوك والدول المختلفة أسند إليه كثير من المؤرخين المحدثين.

ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى : توفى حوالى ٣١٠هـ، ٩٢٢م عمدة المؤرخين حتى عصره، ذلك إضافة لكونه عالماً فقيهاً قبل أن يكون مؤرخاً، فهو بذلك قد اشتغل بالتاريخ كعلم مساعد لتفسير القرآن الذى يحوى قصص الأنبياء والملوك القدامى، كما يحوى إشارات إلى كثير من الشعوب والقبائل والأديان، وهى من موضوعات التاريخ القديم.

وتاريخ الطبرى فى أخبار الرسل والملوك، القسم الأول، الجزء الثانى أقرب ما يكون حوليات، يؤيدها الإسناد قويا كان أم ضعيفاً، وعلى المؤرخين اللاحقين دراستها لاستخلاص النتائج، فهو قد عالج تاريخ اليمن وقارن ملوكها بمن عاش أيامهم من ملوك فارس، هذا الأمر الذى نظر إليه البعض كأنه جعل تاريخ اليمن وكأنه جزء من تاريخ

فارس

كذلك الأمر بالنسبة لأخبار بني إسرائيل واليونان والرومان، وفي نزول عرب العراق بالحيرة والأنبار، وفي العرب العارية من طسم وجدسن وغيرهم.

علي بن أحمد بن أبي الكرم بن الأثير : توفي حوالي ٦٣٠هـ، ١٢٣٢م، المعروف عن ابن الأثير انه لخص في كتابه «الكامل في التاريخ» المطبوع بالقاهرة سنة ١٣٤٣هـ كتاب الطبري في أخبار الرسل والملوك، ومع ذلك فهو مؤرخ موهوب، عرف أصول التحقيق التاريخي، خبر جمع المادة الصحيحة، لذلك لم يكتف بتلخيص الطبري برفع الإسناد فيه الذي كان ينقل الرواية التاريخية ويقطع أوصالها، بل إنه عرف كيف ينتقي الروايات الموثوق بها منه، ويستغني عن الفضول، كما أنه سد الثغرات التي وجدها في كتاب الطبري بمعلومات أحسن انتقائها، لذلك قال ابن الأثير عن كتابه «الكامل في التاريخ»: «قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك [1] ».

أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي : توفي حوالي ٣٤٦هـ، ٩٥٧م يعتبر المسعودي عالم كبير ورحالة نشيط جاب معظم بلدان المشرق الإسلامي من الصين إلى مصر، لذلك فإن معلوماته معلومات شاهد عيان، وهو في تسجيله للأحداث لم يهتم بتاريخ الملوك وكبار الرجال فقط، بل اهتم بأحوال الناس والجماعات بشكل عام، ولا يركز على النشاط السياسي فقط، بل يلتفت لأنواع النشاط الأخرى من اقتصادي واجتماعي وعادات ومعتقدات وغيرها، فقد فهم التاريخ على أنه تفاعل عدد من العوامل البيئية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية أيضاً.

وكتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، الواقع في جزئين، يعالج فيه بدء الخليقة من آدم وبنيه ومن أتى بعدهم من الأنبياء من نوح إلى إبراهيم وأخبار الشعوب الأولى [البائدة] والباقية إلى عصره.

والمهم بالنسبة لتاريخ العرب جزؤه الثاني الذي يتناول تاريخ العرب، فيذكر فيه العرب الأولى [البائدة] من عاد وثمود ثم أخبار مكة والبيت الحرام من لدن إسماعيل وجرهم وبني مضاض، وعبادة التماثيل والنسيء قبل أن يتحدث عن قريش، وبعد ذلك يتناول اليمن من الملوك والتبابعة إلى غزو الحبشة للبلاد، ثم محاولة غزو مكة، والعلاقة بفارس، كما تطرق إلى تاريخ المناذرة والغساسنة، وأخيراً تحدث عن البوادي من العرب الباقية وأيامها ووقائعها وحروبها ودياناتها وعاداتها وتقاليدها وأساطيرها.

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ الجزء الأول، طبع القاهرة ، ١٣٤٣هـ ، ص ٣ .

ما يؤخذ على المسعودى: هو عدم ذكره لمصادره إلا فيما ندر
ومن محاسنه، إضافة لما سبق: أنه مؤرخ عبقرى موهوب لا يكتفى بالتنقل بل يمارس الفكر والعقل.

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : توفى حوالى ٨٠٨ هـ، ١٤٠٦م، يكاد ابن خلدون فى كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر" ، الجزء الثانى فى الجزء المعنون «فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد» ينقد كل السابقين له؛ إذ لا يعول على أساطير القصص وكتب بدء الخليقة وذلك لأنهم «... نحوا فيها منحى القصاص، وجروا على أساليبهم ولم يلتزموا فيها الصحة، ولا ضمنوا لنا الوثوق بها، فلا ينبغى التعول عليها، وتترك وشأنها» [1]

الشعر الجاهلى : يعتبر الشعر العربى القديم والموسوم بالجاهلى من المصادر الهامة لتاريخ العرب القديم وحضارتهم؛ إذ صور لنا كثير من أحوال العرب الاجتماعية والدينية كما يصور طباعهم وأخلاقهم ، به حفظت الأنساب وعرفت المآثر، وفيه ذكر لأيام العرب ووقائعهم، فكان مرآة انعكس عليها صورة حياتهم فى الحرب وفى السلم، وكما يقال: فالشعر ديوان العرب.

أعمال الرحالة والمستشرقين : إلى جانب القرآن الكريم وتفسيره بمعرفة كبار العلماء والفقهاء والأحاديث النبوية الشريفة وما اتصل بذلك من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبار الأنبياء والرسل وما كتبه الأخباريون الأوائل وما ورد بالشعر العربى «الجاهلى» يمكن أيضاً الاستناد إلى ما كشف عنه الرحالة والمستشرقون من آثار، سواء كانت نقوش كتابة أو آثار معمارية أو أدوات منزلية أو نقد أو غير ذلك من اللقى الأثرية التى وجدت أو كشف عنها فى بلاد العرب، بالرغم مما قد يعترى ذلك من محاذير.
لقد كشف المستشرقون وعلماء الآثار فعلاً عن كثير من الآثار الموجودة فى بلاد العرب من الشمال إلى الجنوب كما تمكنوا من فك رموز كثير من الكتابات والنقوش، وبفضل ذلك جمعت أعداد كثيرة من النقوش العربية اليمنية القديمة، والتى قسمت بعد الدراسة إلى كتابات معينية ـ قتبانية ـ حضرمية ـ سبئية ـ حميرية.

---

(١) ابن خلدون، العبر، الجزء الثانى، بيروت، ١٩٦٥، ص٦

كما تم تجميع عدد وفير من كتابات الشمال وقسمت هى الأخرى إلى نبطية ـ ارامية ـ ثمودية ـ صفوية ـ لحيانية.

ولما كانت معظم هذه النقوش سواء التى عثر عليها بالجنوب او بالشمال، لا تحمل تاريخاً يحدد زمنها، وإن كان بعضها تميز بما حمله من تواريخ محلية ، ولما كان معظمها يتناول احداثاً محلية او يتعلق بأمور شخصية مما لا يساعد كثيراً على تحديد العصر، فإن ذلك اضطر الباحثين إلى التنقيب فى تواريخ العراق القديم ومصر والشام وفارس وبيزنطة فى محاولة للتعرف على الأحداث أو الأشخاص موضوع تلك النقوش وتحديد زمانها بالمقارنة.

وهكذا اتسعت دائرة البحث وتطلبت الكثير من أدواته فى المجالات اللغوية والتاريخية والحضارية.

ومن مشاهير الرحالة والمستشرقين الأوربيين، التى أضافت نتائج أبحاثهم مزيداً من الضوء عل ما غمض من تاريخ العرب القديم نذكر:

الدنمركى كارستن نيبور (**Carsten Niebur**) الذى زار اليمن فى الفترة من ١٧٦١-١٧٦٣م فى وفد يضم ستة أشخاص، وعاد بمعلومات طبوغرافية وخريطة للبلاد كانت عوناً لمن جاء بعده من الباحثين، وقد فتحت رحلة نيبور الباب لأوربيين عديدين كانوا شغوفين بالحصول على الآثار بأى وسيلة.

الفرنسى توماس ارنو (**Thomas Arnaud**) الذى زار صنعاء سنة ١٨٤٣م كما زار مأرب ورسم تخطيطاً يبين السدين كما قام بنسخ عدد من النقوش بلغ عددها ٥٦ نقشاً.

الإنجليزى كوجلان (**Coghlan**) الذى حصل من الأعراب سنة ١٨٦٠ على عدد من الألواح البرونزية الهامة المكتوبة بالسبئية.

ومن أشهر الذين اشتغلوا بالبحث عن النقوش اليمنية المستشرق اليهودى الفرنسى الجنسية جوزيف هاليفى (**Joseph Halevy**) الذى جاء إلى اليمن عام ١٨٧٠م فى زى يهودى متسول وتمكن من الحصول على ٦٨٦ نقشاً عاد بها إلى فرنسا، وبدأ يدرسها ثم نشرها اعتباراً من سنة ١٨٧٢م.

ومن مشاهير زوار اليمن نذكر النمساوى **إدوارد جلازر** الذى كان أستاذ اللغة العربية بفيينا، زار تونس ومصر ثم اليمن حيث جمع عدداً هائلاً من النصوص القديمة، بفضلها تمكن الباحثون اليوم من معرفة دولة معين وسبأ وحضرموت وقتبان.

ذلك بالإضافة إلى عدد كبير من العلماء المتخصصين فى اللغات السامية الذين ثم

إرسالهم فى بعثات علمية للتنقيب الأثرى فى اليمن، سواء قبل الحرب العالمية أو بعدها، ومنها المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان [١] كما عكف بعضهم على دراسة هذه الآثار ومنهم موللر D.H.Muller وليدز براسكى M.LidzBarski وغيرهم.

ومن الباحثين العرب الذين ساهموا بنصيب طيب فى الكتابة والبحث عن تارخ العرب القديم، العالمان العربيان الدكتور سليمان حزين والدكتور خليل يحيى ناجى، اللذان كانا عضوين فى بعثة جامعة فؤاد الأول بالقاهرة إلى منطقة اليمن وذلك سنة ١٩٣٦م.

وزيارات كل من محمد توفيق للجوف سنة ١٩٤٥م والدكتور أحمد فخرى لصرواح ومأرب وغيرهما فى الأعوام ١٩٤٧م و ١٩٤٨م و ١٩٤٩م [٢]، ثم بعثة جامعة الدول العربية إلى اليمن عام ١٩٥٢م.

نذكر أيضاً الأستاذ جورجى زيدان [٣] والأستاذ الدكتور جواد على [٤] وغيرهم من الباحثين الذين أخذت بحوثهم وكتاباتهم تتوالى.

* * * *

---

(١) بعثة أمريكية برئاسة الشاب المغامر وندل فلبس قامت بالتنقيب فى مارب عام ١٩٥٢ وتمنع عاصمة قتبان وظفار. ومن مؤلفاتها :

Phillips W., Qataban and Sheba, London,1955.,Unknown Oman, London,1966

(2) Fakhry, A.,An Archaeological Journey to Yemen . Service des Antiguites de l'Egypte, I III Cairo,1951-2.

(٣) جورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ، دار الهلال، القاهرة ، ١٩٠٨ م.

(٤) جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام

الفصل الثاني

موقع بلاد العرب وأهميته



خريطة (١) بلاد العرب

موقع بلاد العرب وأهميته

تقع بلاد العرب في الجزء الجنوبي الغربي من قارة اسيا فيما بين خطي عرض ٣٠، ٤٠ شمالاً، يحيط بها البحر من الشرق والغرب والجنوب، مما حدد اتجاه التوسع البشري بسكانها، فأصبح نحو الشمال وأحياناً إلى الغرب من خلال برزخ السويس، وهذا ما يفسر انتشار العرب في الهلال الخصيب وشمال افريقيا، وخلق أيضاً نوعاً من العزلة، فلم تشجع هذه الظروف الطبيعية على القدوم إليها[١].

هذا ويمكن القول بأن بلاد العرب بفضل موقعها المتوسط من العالم القديم، تمثل همزة الوصل بين قارتي اسيا وافريقيا مما يسمح بنسبتها إلى كل من القارتين، فهي بطبيعتها الإقليمية جزء من صحروات أفريقيا الشمالية، رغم وجود البحر الأحمر الذي يعتبر موصلاً أكثر منه فاصلاً بين سواحل مصر والحجاز وبين سواحل اليمن والحبشة والصومال حيث المضيق بشكل خاص، ويؤيد ذلك ما يسجله الجغرافيون العرب [٢] من أن طريق القوافل بين سواحل عمان وبين تهامة غرباً وبين سواحل عمان والبحرين شرقاً، كانت من الصعوبة بحيث كان طريق المواصلات فيما بينها هو الطريق البحري، أما عن برزخ السويس، فكان البوابة الكبرى لعبور الهجرات من جزيرة العرب من آسيا إلى مصر والمغرب، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الجزيرة العربية من افريقيا [٣].

كما يمكن اعتبارها من آسيا؛ نظراً لسهولة اتصالها بالهضبة الإيرانية عن طريق نهر دجلة والفرات.

هذا وتأخذ بلاد العرب في تكوينها الشكل الرباعي الغير منتظم، وتبلغ مساحة هذا الشكل ٢٢٠٠ كم طولاً من الشمال الغربي حتى الجنوب الشرقي مضروباً في عرضه البالغ ١٢٠٠كم، ويعترض هذا الشكل الرباعي مرتفعات عمان التي تصل حتى الساحل الإيراني، ويحده من الغرب والجنوب والشرق حدود مائية هي البحر الأحمر «بحر القلزم» والخليج العربي «الخليج الفارسي» وبحر العرب، أما من الشمال، فالحدود مع سوريا غير متفق عليها، وقام خلاف حول ذلك عدة مرات، أين تنتهي حدود شبه الجزيرة العربية، وأين تبدأ حدود سوريا، وتنتشر الصحارى في بلاد العرب مثل صحراء النفوذ باتجاه

---

(١) إذ لم تكن بلاد العرب تستطيع نتيجة قسوة ظروفها الاقتصادية في التاريخ القديم أن تكون منطقة جذب، كما أنها كانت بيئة غير مرغوب فيها حتى وقت قريب.

(٢) الاصطخري، المسالك والممالك، طبع القاهرة، ١٩٦١م، ص٢٨.

(٣) سعد زغلول عبد الحميد، في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م، ص٦٤.

الشمال، ولا تصلح هذه الصحارى بأن تكون حداً طبيعياً لعدم توفر المقومات الجغرافية للحد وبذلك اعتبر البعض أن حدود بلاد العرب من الغرب هى سواحل بلاد الشام التى تسير جنوباً إلي أن تختلط بمياه النيل، الذى يختلط بدوره بمياه البحر الأحمر [بحر القلزم] جنوباً، ومن هنا جاءت تسمية بلاد العرب بالجزيرة العربية لإحاطة المياه بها من جميع جهاتها[1].

أما لفظ أو تسمية شبه الجزيرة فلإحاطة البحار بها من ثلاث جهات[2].

يقسم أغلب الجغرافيين بلاد العرب إلي خمسة أقسام:

الأول : تهامة، التى يعتقد أنها سميت بهذا الاسم من التهم وشدة الحر وركود الريح، وهى الإقليم الساحلى الممتد بمحاذاة البحر الأحمر انطلاقاً من اليمن بالجنوب إلى أقصى الشمال.

الثانى : الحجاز ، الذى يحجز بين تهامة ونجد، ويضم عدة مدن، أهمها مكة والطائف ويثرب وخيبر وغيرها ، وهذا الإقليم يحتل مكانة خاصة فى قلوب المسلمين باعتباره مهد النبوة وموطن الدين الإسلامى.

الثالث : نجد التى سميت كذلك لارتفاعها عن مستوى سطح البحر، وهى هضبة مرتفعة تحتل وسط بلاد العرب إلى الشرق من الحجاز ويعتبرها المؤرخون أوسع أقاليم بلاد العرب وأحسنها هواء وأصلحها أجواء.

الرابع : اليمن والتي عرفت بأسماء عديدة [3]

الخامس : العروض وهى تلك المنطقة التى تضم بلاد اليمامة والبحرين المطلة على ساحل الخليج العربى، وسميت بذلك لاعتراضها بين اليمن و نجد والعراق.

وجدير بالذكر أن بلاد العرب أغلب مناطقها رملية وبها أكبر الصحارى، وهما اثنتان، النفوذ الكبرى، وتبلغ مساحتها ٧٠ ألف كيلو متر مربع، وصحراء الربع الخالى، وتبلغ مساحتها نصف مليون كيلو متر مربع تقريباً، والربع الخالى هذه أكبر مساحة رملية متصلة ببعضها فى العالم.

---

(١) لذلك عرفت بلاد العرب إضافة لهذا الاسم، باسم الجزيرة العربية، وشبه الجزيرة العربية، وقد تختصر التسمية إلى الجزيرة فقط من باب التسهيل، مع ملاحظة أن هذا الاسم الأخير نادر الاستعمال.

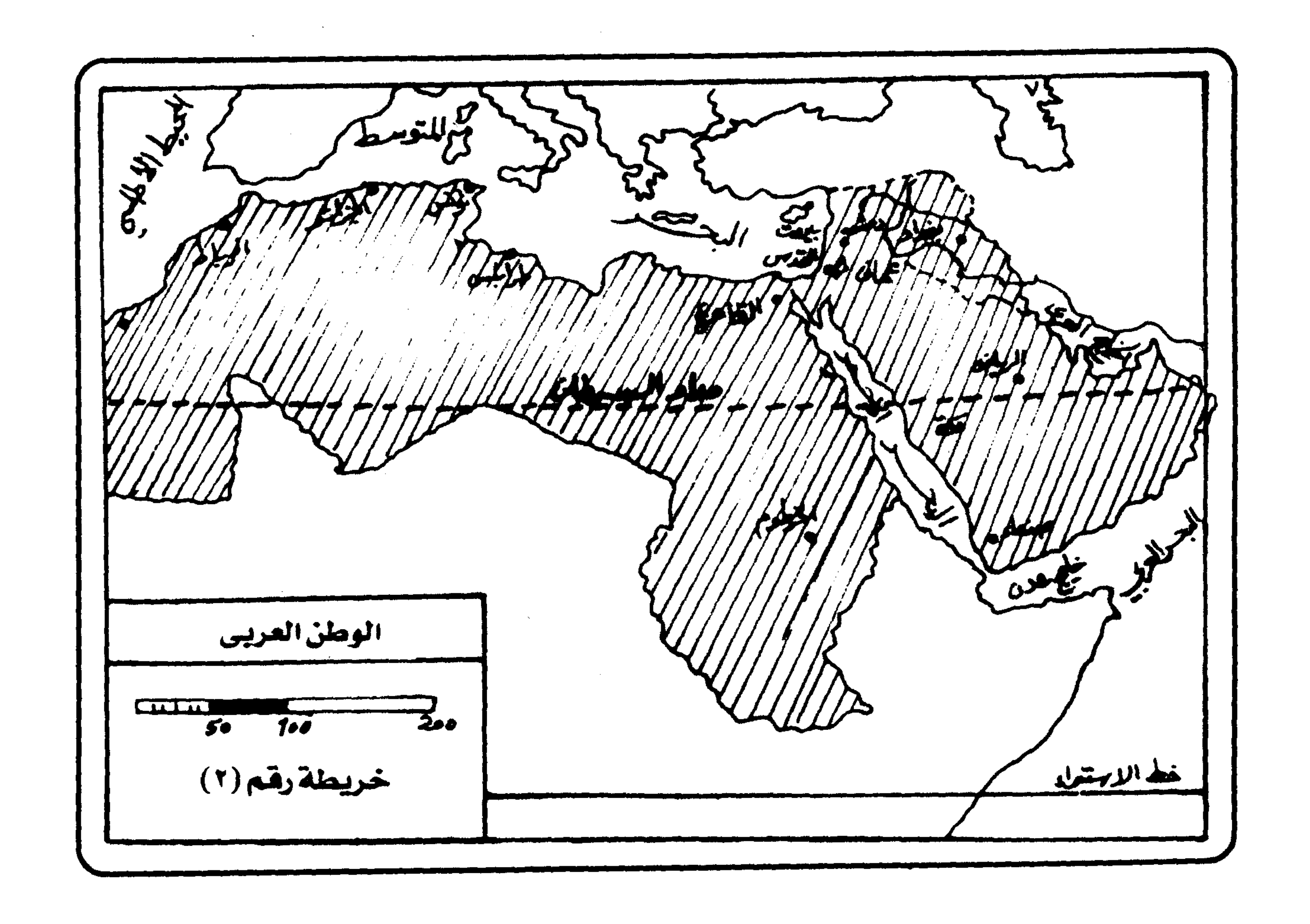
(٢) راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٢٠ من هذه الدراسة.

(٣) انظر تفصيل ذلك بالصفحة ٤٢ من هذه الدراسة.

المنـــاخ

يقطع مدار السرطان بلاد العرب ماراً بين مكة ويثرب ومسقط، ولهذا اتسم المناخ بصفة عامة بالجفاف، وقلة الأمطار عدا جبال اليمن وعمان اللذين يتلقيان فى الصيف كمية لا بأس بها من الأمطار كانت سبباً فى استقرار الناس فى هذه المناطق واشتغالهم بالزراعة، أما باقى البلاد، فانه يتلقى كمية ضئيلة من الأمطار فى فصلى الخريف والشتاء، وترتفع درجات الحرارة ، التى قد تصل فى نجد فى بعض الأيام إلى ٥٠ درجة مئوية واستمرار هبوب الرياح القوية فى كثير من أيام السنة. ولاشك أن هذه الظروف البيئية قد أثرت فى حياة السكان، فبسبب قلة سقوط الأمطار وانعدامها الذى قد يصل عشرة سنوات متواصلة فى الربع الخالى مثلاً وما ينتج عن ذلك من الجدب والجفاف، حفز الناس على الهجرة إلى المناطق الاكثر خصوبة، وحينما تسقط الأمطار على تلك المناطق الصحراوية، فإنها تسقط بشكل غزير ولفترات قصيرة تمتلئ بعض الأودية بالمياه مما ينتج عنه بعض الخصوبة للارض، وعلى اثر ذلك تنبت النباتات البرية التى ترعاها الماشية خاصة الإبل، وعلى ذلك تعيش معظم بلاد العرب حياة البدو من الترحال والتنقل بحثاً عن الماء والعشب مما يترتب على هذا النمط من الحياة من قتال ونزاع من أجل البقاء، هذا النزاع الذى كان أساس أيام العرب.

لقد كان لاتساع الأرض ببلاد العرب وقسوة الطبيعة وصعوبة المواصلات أثرها فى منع قيام دولة واحدة، لأن الترحال يمنع قيام ولاء الفرد للأرض، وصعوبة الحياة، والتنازع من أجل البقاء يحول دون قيام وحدة القبائل وفرض التعاون، وهو الأمر الذى، رغم بقاء تلك الظروف، تمكن محمد صلى الله عليه وسلم، من تحقيقه، وفى ذلك تتجلى إحدى ابرز معجزات الإسلام.


المحيط الأطلسي
المتوسط
القاهرة
القدس
الخرطوم
خليج عدن
خط الاستواء
الوطن العربي
50 100 200
خريطة رقم (٢)

ولاشك ان للإسلام الفضل فى بعث روح القومية عند العرب الذين عندما خرجوا من صحارى جزيرتهم، صرعوا الفرس واليونان والرومان، وأقاموا دولة عظيمة امتد سلطانها من الهند إلى إسبانيا وأبدعوا تلك الآثار التى هى آية فى الإعجاز، والتى تورث بقاياها العجب العجاب.

ولأسباب عديدة، تخرج بنا مناقشتها عن الإطار الزمنى لهذا البحث تقهقر المسلمون، وصار موقع العرب يمتد من المحيط الأطلنطى إلى الخليج العربى بمساحة تزيد على اثنى عشر مليون كيلو متر مربع، كما يمتد فى مساحة تقرب من السبعة الاف كيلو متر من شواطئ الأطلنطى إلى خليج عمان، اى ما يعادل ١/٦ قطر الكرة الأرضية، اكثر من ٣/٤ هذه المساحة فى افريقيا، والباقى فى آسيا.

«واصبح الباحثون والكتاب يشيرون إليه اليوم بتعبيرات عديدة لعل أقلها هى تسميته الحقيقية: الوطن العربى، فتارة نسمع الشرق الأدنى، وتارة نسمع الشرق الأوسط، وتارة أخرى نسمع العالم العربى، وجميع هذه التعبيرات ليس لها مدلول واضح، ولا يشير إلى أقليم محدد، فالشرق الأدنى كان يقصد به أملاك الدولة العثمانية، من ثم كان يضاف إلى أجزاء الوطن العربى الخاضعة للدولة العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، أجزاء من شبه جزيرة البلقان، واختفى ذلك الاسم [الشرق الأدنى] ليحل محله تسمية: الشرق الأوسط مع الحرب العالمية الثانية، وكان تعبيراً عسكرياً سياسياً اكثر منه جغرافياً، وسرعان ما شاعت التسمية، وجر العسكريون والسياسيون، الجغرافيين وراءهم، وكان الواجب العكس، وليس أبلغ من ضعف هذه التسمية عدم وجود حدود طبيعية أو شخصية مميزة له، واختلاف الكتاب والباحثين أنفسهم فى مضمون الأقطار التى تقع ضمن إطار هذه التسمية، فتارة يضيفون مصر إلى جنوب غربى أسيا وتارة يضيفون ليبيا، وكما اختلف الكتاب فى حدود الأقليم الغربية اختلفوا فى حدوده الشرقية، منهم من وصل به إلى إيران ومنهم من ضم إليه أفغانستان وغرب باكستان أو شمال غرب الهند» [١].

لقد كان لأهمية الوطن العربى الاستراتيجية نتيجة موقعه اثرها فى ان أصبح [الوطن العربى] من المناطق الرئيسية للتوتر العالمى، عاش وهو فى تفاعل مع العالم الخارجى، يحيا حياة ديناميكية، أخذ وعطاء على مدى التاريخ، قديمه وحديثه.

وخلاصة القول، ليس هناك من داع لتعدد الأسماء الغير الواضحة، فشخصية الوطن

---

(١) محمد سعودى، الوطن العربى، دراسة لملامحه الجغرافية، دار النهضة العربية بيروت،٢، ص٤٥.

العربى واضحة جلية، شخصيته المتميزة أولاً وقبل كل شىء لغوياً، فأصبح اللسان العربى مفهوماً فى العراق كما هو مفهوم فى المغرب. فالسورى مثلاً يفهم المغربى على بعد آلاف الأميال، ولكنه لا يفهم التركى على بعد مئات الأميال، بل وأحياناً عشرات الأميال [١].

ولكن هل اللسان المشترك والأهمية الاستراتيجية هما العاملان الوحيدان اللذان يميزان ترابط العرب؟! الواقع أن هناك عوامل أخرى عديدة سنتطرق لها خلال فصول هذه الدراسة.

ولا يسعنا فى ختام هذا الفصل إلا أن نستشهد بقول الغرباء قبل الأصدقاء فى بروز وأهمية وتميز شخصية الوطن العربى حيث يقول الدكتور غوستاف لوبون : «الغرب وليد الشرق، ولا يزال مفتاح ماضى الحوادث فى الشرق، فعلى العلماء أن يبحثوا عن هذا المفتاح فيه» [٢].

ويقول المارشال ليوتى: «إن الوطن العربى أشبه بالدف، ليس من المهم أين الدق عليه، فإن الصدى يشمله كله» [٣].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطابع عيسى البابى الحلبى وشركاه، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤م، ص٢٨.

(٣) محمد سعودى، المرجع السابق، ص٤٨

الفصل الثالث

أصل تسمية العرب ومفهومها

أصل تسمية العرب ومفهومها

المقصود بلفظة العرب هم أهل البلاد الذين أعطوها اسمهم، وصارت لفظة عرب تطلق على أجيال من الناس ينتمون إلى سام بن نوح عليه السلام استقرت بالوطن الذى عرف بشبه الجزيرة العربية، ثم انتشروا فيما يعرف الآن بالوطن العربى.

وأقدم الإشارات التى وردت عن العرب وجدت فى نقش أشورى يعود لعهد شلمنصر ٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م.

ثم تتالت الإشارات بعد ذلك فظهرت فى السجلات البابلية، كما أخذ الإغريق يذكرونها منذ القرن الخامس قبل الميلاد، فذكرها اسخيلوس سنة ٤٥٦ق.م ثم هيرودوتس فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، وقصد بها سكان جزيرة العرب كلها بما فى ذلك صحراء مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وأصبح هذا اللفظ [عرب] مألوفاً بعد ذلك عند جميع كتاب الإغريق.

أما المصادر الأثرية العربية، فقد تأخر ظهور هذا اللفظ بها إلى حوالى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وقد ورد فى نقش يعرف تاريخياً باسم نقش النمارة الذى يعود تاريخه إلى سنة ٣٣٠ق.م [(١)] والذى ورد فيه «هذا قبر امرئ القيس بن عمرو، ملك العرب كلهم الذى نال التاج» [(٢)].

ونسب عبيد بن شرية الجرهمى، اسم العرب إلى جدهم يعرب وهو ابن قحطان بن عابر ابن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، والذى كان [يعرب] أول من تكلم باللغة العربية، وعن طريقها تعلمها إخوته وبنو عمومته [(٣)].

وواضح أن القرآن الكريم هو أوثق مصدر عربى وردت فيه صيغتا عرب وأعراب، إذ وردت الأولى إحدى عشر مرة، منها عشر مرات نعتاً للغة التى نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة بينة، ثم استخدمت مرة واحدة لتنعت شخص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بينما وردت الثانية [أعراب] عشر مرات، بمعنى سكان البادية.

والقرآن الكريم هو أول مصدر عربى يستخدم لفظ عرب للدلالة على قوم، مما يدل على شمولية هذه التسمية ووجودها قبل نزوله.

---

(١) عثر على هذا النقش المكتوب بالآرامية النبطية فى جبل الدروز فى صحراء النمارة بسوريا

(٢) جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول.

(٣) عبيد بن شرية الجرهمى، اخبار اليمن وأشعارها وانسابها طبعة حيدر اباد الدكن، ١٣٤٧هـ، ص٣٥.

وقد حاول الباحثون اليوم تفسير أو تحديد أصل هذه الكلمة، فقال علماء اللغة : إنها مشتقة من أصل سامى معناه الرب [1] وكانت تطلق على الأقوام التى تسكن غربى منطقة بلاد ما بين النهرين

وقال فريق آخر من العلماء: إن كلمة عرب لها صلة بكلمة عرابى العبرانية، والتى تعنى الأرض المظلمة، أو لها صلة بكلمة عيريب العبرية أيضاً، والتى تدل على «حياة الفوضى» أو «الحياة الغير المنظمة» [2]

ويربط بعض الباحثين بين كلمة عرب وحياة البداوة، لأن العرب أنفسهم استعملوا كلمة أعراب للدلالة على البدو الذين تعتمد حياتهم على الترحال، بعكس سكان المدن فى الجزيرة العربية، والذين يمارسون الزراعة والتجارة و غيرها من أعمال الحضر.

جدير بالذكر أن البعض يعتقد أن الأعراب، أى سكان البادية أفصح وأقوم لساناً من سكان الحواضر الذين دخلت لغتهم العربية لهجات أخرى، نتجت عن اختلاطهم بأقوام أخرى غير عربية.

وبصرف النظر عن التفصيلات المرهقة فإن النسابة العرب قسموا البشرية إلى ثلاث مجموعات كبرى من الأجناس هى: أبناء سام، وأبناء يافث، ووضعوا العرب فى المجموعة الأولى [3] ثم اختلفوا فى تحديد طبقات العرب، ويتضح من دراسة شجرة الأنساب، التى أوردها الرواة والأخباريون العرب، أنها تحتوى مجموعتين متميزتين من تلك الأنساب، الأولى لها مسحة عربية واضحة والأخرى لها مسحة عبرانية متأثرة بالإسرائيليات ومحاولة التوفيق بين هاتين المجموعتين تتطلب جهوداً مضنية.

والأداء الأكثر شيوعاً فى هذا المجال انقسام العرب إلى قسمين، العرب البائدة [4]، والعرب الباقية، والعرب البائدة هى التى قد اندثرت ولم يعد لها وجود وإنما يستدل عليها بما جاء فى القرآن الكريم أو فى الشعر العربى القديم [الجاهلى] أو بما أثبتته الكشوف الأثرية، والعرب الباقية ينقسمون إلى عرب الجنوب، وعرب الشمال، كما يقسمهم بعض الباحثين إلى عرب عاربة وعرب مستعربة [5].

العرب العاربة : هم العرب الذين ينتسبون إلى قحطان بن عابر الذى ينتهى نسبه إلى

---

(١) عبد الله خليفة الخياط، تاريخ العرب قبل الإسلام، منشورات الجامعة المفتوحة، الطبعة الأولى، ص ٤٥

(٢) جورجى زيدان، المرجع السابق ص ٣٦ وما بعدها ، جواد على، المرجع السابق، ص ١٦ وما بعدها

(١) الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير، فى أخبار الرسل والملوك، الجزء الأول

(٢) سيستعاض عن ذلك باستخدام تسمية الأوائل من العرب القدماء بدلاً من العرب البائدة

(٣) ستينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، تعريب السيد يعقوب بكر، ص٤٢

سام ابن نوح عليه السلام ولذا يعرفون بالعرب القحطانية

والعرب المستعربة : هم ولد عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وقد سموا بالعرب المستعربة؛ لأن إسماعيل عندما نزل مكة كان يتكلم اللغة العبرية، فلما صاهر اليمنية تكلم اللغة العربية، فسمي مستعرب. ويعرفون أيضاً بالعرب العدنانية.

يرى بعض الباحثين اليوم أن هذه التقسيمات لا وجود لها بدليل أن القرآن الكريم لم يشر إليها، ولم يفرق بين عرب قحطانية وعرب عدنانية، وكل ما جاء فى هذا الشأن يشير إلى أن العرب يرتفعون إلى أبى العرب إبراهيم عليه السلام.

وبدليل أيضاً عدم ظهورها على عصر النبى صلى الله عليه وسلم أو عصر الخلفاء الراشدين، وأن هذه التقسيمات لم تبرز إلا فى العصر الأموى، إبان النزاع الحزبى والقبلى، وبعد شيوع نظرية التوراة فى الأنساب ورجوع النسابين العرب إلى أهل الكتاب للأخذ عنهم [١] .

---

(١) جواد على، المرجع السابق

الفصل الرابع

الأوائل من العرب القدماء
[العرب البائدة]

سنتطرق خلال هذا الفصل بإذنه تعالى إلى ذكر بعض القبائل العربية القديمة المندثرة، والتى يطلق عليها فى أغلب كتب التاريخ القديم القبائل العربية البائدة، والتى رأيت تسميتها بالقبائل العربية القديمة الأولى كعاد وثمود وطسم وجديس.

أولاً: عـــاد

إحدى القبائل العربية القديمة، وقد تكون هى أقدم قبائل العرب على الإطلاق؛ لذلك يضرب بهم المثل فى القدم [1]، وهم قوم النبى هود عليه السلام وتسميتهم جاءت من جد هذه القبيلة، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

كون أهل عاد مملكتين، عاد الأولى وعاد الثانية، وحسب القرآن الكريم، فإن مملكتهم الأولى أقاموها فى الإقليم الممتد ما بين حضرموت وبحر عدن فى منطقة الأحقاف ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ [2].

وقد تميز العاديون ببسطة فى الجسم وقوة البدن وطول العمر وسعة فى الرزق، وفى ذلك قال تعالى: ﴿وزادكم فى الخلق بسطة﴾ ﴿وأمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون﴾ [3].

وفيهم أيضاً قال الشاعر:

إنى أنا عاد الطويل البادى ... ذو الغز والقوة والسداد

والبطش والأموال والأولاد ... يا قوم أجيبوا صوت المنادى [4]

وينسب الرواة والأخباريون العرب إلى شداد بن عاد بنائه للعاصمة المعروفة بإرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد، واختلفوا فى هذه المدينة، فبعضهم قال: إنها الإسكندرية، وبعضهم يرى أنها إرم فى صحراء عدن، بينما يقول فريق ثالث: إنها دمشق[5] وأغلب الظن الآن أن دمشق هى إرم، لأن دمشق كانت من أهم مراكز الآراميين،

---

(١) إذ أصبحت كلمة عادى، تعنى القديم، ومنها اشتقت العاديات بمعنى التحف والآثار.

(٢) سورة هود، ويذكر الرواة والأخباريون العرب أن لعاد اثنى عشر أخاً.

(٣) سورة الأحقاف، الآية ٧٥.

(٤) عبيد بن شرية الجرهمى، المرجع السابق، ص٣١٧ المسعودى أبو الحسن على بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص١١٠.

(٥) جورجى زيدان، المرجع السابق، ص٧٥

وإن إرم تعني أرام، أي أن عاد من الآراميين.

عبد أهل عاد الأولى الأصنام ومنها صداء، بغاء وصمود وعتوا عتواً كبيراً في الأرض، ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة﴾ [1] فأرسل الله تعالى إليهم النبي هود عليه السلام الذي دعاهم إلى الهدى فاستحبوا الكفر والعصيان وردوا نصيحته بأن ظنوا أن إحدى آلهتهم قد أصابت هود بالجنون ﴿وقالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ [2].

فعاقبهم الله تعالى أشد العقاب بالقحط المتوالي ثلاث سنين، الأولى سموها حجرة والثانية كحلاً والثالثة كلحاً[3]، وعندما اشتد بهم الأمر أرسلوا وفداً منهم، وكعادة العرب، إلى مكة يطلبون من الله الفرج، ولكن الوفد الذي كان برئاسة لقمان صاحب النسور [4] نسي ذلك في غمرة الاحتفال به، فنادى منادي «رماداً أرمد، لا يبقي من عاد بن عوص أحداً، لا والداً و لا ولداً، إلا القبيل الأبعدا» [5].

ثم أرسل الله سبحانه عليهم ريحاً صرصراً وصواعق هبت عليهم من وادي يسمى مغيث، سلطها عليهم ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ وتركتهم ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [6] فقضت عليهم ودمرت مساكنهم وجعلتهم عبرة لمن يعتبر.

وفي قوله تعالى : ﴿وأنه أهلك عاد الأولى وثمود فما أبقى﴾ دليل على قيام مملكة ثانية لعاد، والتي ظلت حتى وقت قريب غير واضحة المعالم، ولكن بفضل الأبحاث الحديثة، يمكن القول إن عاد الثانية أقامها أبناء سعيد المؤمن، الذي أمن بهود، في أحواز مكة بعد أن صاهروا العماليق سكان مكة.

انتهى أمر هؤلاء أيضاً بالعتو والبغي، فحاربهم الثموديون وتمكنوا من القضاء عليهم قضاءً مبرماً، حتى إنه لم يكن لهم عقب زمن عبيد بن شرية الجرهمي وذلك حوالي ٥٠هـ، ٦٧٠م.

---

(١) سورة فصلت، الآية «١٤».

(٢) سورة هود، الآية ٥٣ ـ ٥٤.

(٣) عبيد بن شرية الجرهمي، المرجع السابق، ص٣٢٠، المسعودي، المرجع السابق ص ١٢٤.

(٤) صاحب النسور لأنه لاذ بالبيت في مكة وتضرع إلى الله وطلب عمراً مديد. فأعطى عمر سبعة أنسر، لذلك عاش عمر النسور وعرف بصاحب النسور.

(٥) عبيد بن شرية الجرهمي، المرجع السابق، ص٣٢١، من جهة أخرى القبيل الأبعد هم أبناء سعيد المؤمن.

(٦) سورة الحاقة ، الآية «٧».

ثانياً : ثمـــود

هم قوم النبي صالح الذي دعاهم إلى عبادة الله فخالفوه، وقد ورد اسم ثمود مقترناً باسم عاد أو مع اسم نوح في عدة سور من القرآن الكريم.

وثمود حسب شجرة الأنساب العربية، هو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، فهو ابن عم عاد، هاجر من بابل إلى اليمن، حيث انشأ ملكاً له في صنعاء ولظروف عدة قد تكون سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية انتشر الثموديون أو هاجروا إلى الحجر بوادي القرى [١] وإلى رملة بفلسطين [٢].

أقام الثموديون مملكتين، الأولى يعتقد الباحثون أنها كانت بصنعاء، والثانية وهي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم كانت بالحجر.

اتصف الثموديون كالعاديين، بالقوة البدنية وطول العمر إلى جانب سعة في الرزق، كما اتصفوا بإيجاد دولة لها أركانها السياسية من رئيس زمن النبي صالح عليه السلام، كان يدعى، حسب المسعودي [٣]، جندع بن عمرو بن خراش، ومن صاحب حرب يدعى خليفة بن عمرو بن لبيد بن خراش كما كان لهم كاهن هو زيان بن صمعة، وصاحب أوثان يسمى نؤاب بن عمرو.

ونستدل مما ورد بالقرآن الكريم أن ثمود قد هلكوا بسبب الناقة عندما طلبت جماعة منهم، وهم يلعبون ويلهون من النبي صالح عليه السلام أن يصنع لهم آية يعتبرون بها، بأن يخرج لهم من الصخور «ناقة حمراء عراء وبراء مهبرجة، لها ضجيج ورغاء شديد تفور لبنا سائغاً» [٤].

بقدرته سبحانه وجدت هذه الناقة، فقام برفضها رجال الدين الوثني كصاحب الكهانة وصاحب الأوثان، فقاموا بعقرها. وكان ذلك بعد صدورها من الماء في يوم دبار [٥].

وعندما اغتيلت الناقة كان صالح نازحاً عنهم في دار قومه لا علم له بما فعلوه بها، وكان طبيعياً أن يدعو عليهم، وأن يجيب الله دعاءه، وبدأت نقمة الله بقتل السفهاء الذين

---

(١) يعتقد أن تلك الهجرة كانت بسبب زيادة السكان باليمن أو لأسباب صراع سياسي أو بسبب ظروف طبيعية طارئة.

(٢) عبيد بن شرية الجرهمي - المرجع السابق، ص ٣١٨ وما بعدها، المسعودي، المرجع ، ص ١٤ وما بعدها.

(٣) نفسه، ص ١٥

(٤) عبيد بن شرية الجرهمي، المرجع السابق، ص ٣٧٢.

(٥) دبار: يوم الأربعاء، وللمزيد عن ذلك انظر الفصل الخاص بأيام العرب

شاركوا فى الجريمة، واتهمت عامة ثمود صالحاً وأصحابه بقتلهم، ورد عليهم صالح بأن الله سينزل بهم العذاب فى ثلاثة أيام، وتم الاتفاق بين عامة ثمود وبين آل صالح على الانتظار تلك المدة، فإن نزل بهم العذاب فهو صادق، وإلا سلمه أهله إليهم بما جنى على نفسه من الكذب، وهذا ما يعرف عند العرب القدماء بالمباهلة، أى الاحتكام إلى القوى الإلهية عن غير الحرب مثل التعرض للماء أو النار [1]

ونزل العذاب بثمود خلال ثلاثة أيام، فاصفرت وجوهم فى الأول منها، واحمرت فى الثانى، ثم أسودت فى الثالث، وأتتهم الصعقة فى اليوم الرابع فقضت عليهم [2] ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب بما كانوا يكسبون﴾ ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ [3].

ذلك فيما يتعلق بالملكة الأولى، أما الثانية فإنها من المعتقد أنها قامت عقب خروج صالح عليه السلام ومن آمن به إلى الشام حيث استقروا برملة فى فلسطين، وهذا ما يستدل عليه من خلال الوثائق الآشورية التى ورد بها زمن الملك سرجون الثانى ٧١٥ ق.م أنهم ضموا بلاد ثمود الواقعة جنوبى الحجر إليهم، كما يعتقد أنها ضمت لدولة تدمر [5] إضافة إلى أن المسعودى [4] ذكر أن قبيلة عربية تعرف باسم داسم كانت قد هلكت بالريح السوداء الحارة، وأنها كانت تسكن بالجولان وجازر من أرض نوى من بلاد حوران والبثنية، وذلك بين دمشق وطبرية من أرض الشام، كما يذكر أن بيوت ثمود إلى وقته كانت عبارة عن ابنية منحوتة بالجبال ﴿ثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ ورسومهم باقية وآثارهم بادية، وذلك فى طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادى القرى، وبيوتهم منحوتة فى الصخر بأبواب صغيرة، ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا، وهذا يدل على أن أجسامهم كانت على قدر أجسامنا، ويؤكد ابن خلدون، أن ديار ثمود فيما بين الحجاز والشام [6].

---

(١) عبيد بن شرية الجرهمى، المرجع السابق، ص ٣٨٣. سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص١١٦

(٢) عبيد بن شرية الجرهمى، المرجع السابق، ص٣٨٧

(٣) سورة الحاقة، الآيات ٤، ٥، ٦.

(٤) المسعودى، المرجع السابق، ص١٥

(٥) عن دولة تدمر انظر صفحة ٩٢ وما بعدها من هذه الدراسة

(٦) ابن خلدون، المرجع السابق، ص٣٩

هذا ولقد تمكن العلماء والباحثون التاريخيون فى العصر الحديث من الكشف عن عدد كبير من النقوش الثمودية فى أرض تبوك ومدائن صالح وتيماء وفى غيرها من المواضع وبدراسة هذه النقوش يرجح عدد كبير من العلماء أن أهل ثمود الثانية قد كتبوا بالثمودية والتى تطورت عنهم اللحيانية والصفوية [1] .

ثالثاً: طسم وجديس

يقترن اسم جديس بطسم اقتران اسم عاد بثمود، وجديس وطسم قبيلتان عربيتان من أوائل العرب القدماء [البائدة] ، ولم يرد لهاتين القبيلتين ذكر فى القرآن الكريم، ولا نعرف من أخبارهما إلا ماورد فى روايات الأخباريين العرب الأوائل.

وجديس هو ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ترك بابل ولحق بأخيه ثمود ليعيش باليمن، وكانت منازله بمنطقة «جو» فيما بين عمان والبحرين، أى باليمامة الآن، وذلك استناداً إلى وصف بطليموس لهذه القبيلة التى يذكرها باسم جوديست (Jodicites) وذلك حوالى عام [2]

ثم لحق بهم أخوهم طسم لما علموا سعة أرض جو بأوديتها وآبارها وقراها كثيرة النخل والزرع، إذ يصفها المسعودى قائلاً : «بلادهم أفضل البلاد وأكثرها خيراً، فيها صنوف الشجر والأعناب وهى حدائق ملتفة وقصور مصطفة» [3] .

ويرد فى الأخبار أن الوافدين الجدد من طسم غلبوا على بنى عمومتهم من الجدسيين، فيذكر المسعودى أن طسماً ملكت عليها عملوق بن جديس الذى تعدى على جديس واستبد بها فى أحكامه، كما استبد بملكهم وأذله[4] ، إلى الحد الذى جعله يضاجع كل فتاة بكر من جديس قبل أن ينالها زوجها [5] فقامت امرأة من جديس اسمها الشموس بتحريض قومها على الثورة على عملوق، ونجحت فى ذلك، إذ دعت القبيلة [جديس] الملك إلى طعام بعد أن دفنت سيوفها فى الرمل ثم فاجأته ومن معه من طسم فأفنتهم عن آخرهم إلا رجلاً فر هارباً إلى حسان تبع الحميرى، ملك اليمن، مستنصراً به، والذى أقبل بجموع كبيرة وعمد هو الآخر إلى الغش والاختفاء عن طريق حمل رجاله للأشجار أثناء تحركهم حتى

---

(١) عن الكتابة والخطوط العربية انظر تفصيل ذلك بالصفحة ٧٥ من هذه الدراسة.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٣) المسعودى ، المرجع السابق، ص.١٤٠.

(٤) المسعودى ، المرجع السابق، ١١٦.

(٥) قارن ذلك بما ذكره المؤرخ الإغريقى هيرودوتس فى كتابه الرابع فقرة ٣٧٠، عن بعض القبائل الليبية.

تتم مفاجأة جديس، إلا أن ذلك الأمر أبصرته زرقاء اليمامة التى كانت تستطيع أن تبصر الركب من مسيرة ثلاثة أيام ولكن قومها لم يصدقوها، فأغار عليهم حسان تبع واستباح أهلها وأبارهم.

ظلت اليمامة أطلالاً بعد تخريب الحميريين لها إلى أن نزل بها بنو حنيفة واستوطنوها حتى ظهور الإسلام.

رابعاً: جرهم

جرهم هو ابن قحطان بن عابر بن سام بن نوح عليه السلام، وشقيق يعرب، استقر بنو جرهم باليمن وتكاثروا بها وتميزوا كأهل عاد وثمود بعظم الأجسام وطول الأعمار وزيادة القوة والبأس، ويذكر وهب بن منبه أنهم كانوا أطول الناس أجساماً وأعناقاً وأن سعدانة ابن وهزان كان يأكل التمر جالساً من نخلة سموق [١].

وفى سبب هجرتهم من اليمن إلى مكة يختلف الرواة والأخباريون العرب؛ إذ يذكر عبيد ابن شرية أنها نتجت عن حروبهم مع الحميريين التى خسروها، فقرروا الرحيل بزعامة مضاض بن عمرو الذى ملكوه على أنفسهم فى موطنهم الجديد [٢] بينما يورد وهب بن منبه أن هجرتهم كانت بناء على تولية شرعية لهم من قبل يعرب ملك اليمن ليس على بنى عملاق فى مكة فقط بل وعلى طسم وجديس أيضاً، وهذا كان فى عهد جرهم نفسه [٣].

أقام بنو جرهم فى مكة، التى كان يقطنها العماليق، وتوارث زعامتهم عبد ياليل، جرهم، عبد المدان، بقيلة، عمرو الذى يعرف بعبد المسيح مضاض، عمرو، الحارث بن مضاض، عمرو بن الحارث، بشر بن الحارث وأخيراً مضاض الأصغر بن عمرو [٤].

تعايش العماليق وبنو جرهم سلمياً لفترة فى مكة، بل إنهما حاربا معاً إسرائيل وحلفاءهم من الروم [٥]. ولكن من تواتر الأحداث يبدو أن جرهم قد استقلت بملك مكة ولم يعد للعماليق فيها أى سلطان [٦].

وفيما يتعلق بنهاية الجرهميين، فبعض الآراء تذهب إلى أنه عندما استقر إسماعيل بن

---

(١) وهب بن منبه: التيجان، ص١٧٥

(٢) عبيد بن شرية الجرهمى ، المرجع السابق، ص ٢٩٨.

(٣) وهب بن منبه، المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧٨.

(٥) نفسه ، ص١٧٩.

(٦) نفسه، ص ١٨٣.

إبراهيم فى مكة صاهر جرهماً، ورغم ذلك فإن الكثير منهم لم يؤمن به حسب ما يفهم من رواية وهب بن منبه القائلة: «لم يبق من جرهم إلا عشرون رجلاً كانوا مؤمنين على دعوة إسماعيل، وهكذا هام زعيمهم الحارث بن مضاض الجرهمى؛ إذ خرج هارباً يجول فى الأرض هماً وغماً ووحشة لما نزل بقومه وتغرب ثلاثمائة سنة وكثرت فيه الأمثال [1].

ذلك فى حين أن بعض الآراء الحديثة تقول بأن أمر مكة ظل لجرهم بعد أن غلبوا العماليق عليها إلى عهد مضاض بن عمرو بن الحارث إلا أن بنى خزاعة، وهم قحطانيون نزحوا من اليمن إلى مكة وثاروا على جرهم وتولوا عوضاً عنهم [2].

خامساً: أميم وعبيل

يعتقد الأخباريون العرب أن أميم من إخوة عملاق بن لاوذ وأقام بين اليمامة والشحر[3] وحاول بعضهم الآخر ربطه بتاريخ فارس [4].

ويذكر أن أميم أول من ابتنى البنيان وسقف السقوف واتخذوا البيوت والآطام من الحجارة [5].

أما عبيل فهو من نسل عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهو أخو عاد [6] ويذكر أنه نزل بيثرب، فقاموا بتخطيطها بواسطة رجل منهم يسمى يثرب بن بائلة بن مهلهل بن عبيل، واستقروا بها إلى أن زحف عليهم العماليق، وسيطروا على المدينة، وانتهى أمر عبيل بسبب سيل جارف دمر مواطنهم بالجحفة، لذلك أطلق على ذلك الموضع اسم الجحفة [7]، وقد حاول بعض الباحثين اليوم الربط بين اسم عبيل وأسماء بعض المواضع التى أشار إليها كتاب البطالمة أو الرومان؛ إذ ورد عند بلينوس إشارة لموضع أسماه (Avalitae) كما ورد عند بلينوس باسم (Abalitae) [8].

(١) نفسه، نفس المكان.

(٢) سالم الجسر، سلسلة تاريخ العرب والإسلام، العدد الأول، دار الشورى، بيروت ص ١٤.

(٣) ابن خلدون. المرجع السابق ، ص٥١.

(٤) المسعودى، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٥) المرجع نفسه، الجزء الأول، ص ١٤٤

(٦) ابن خلدون، المرجع السابق، ص ١٣.

(٧) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٦٢.

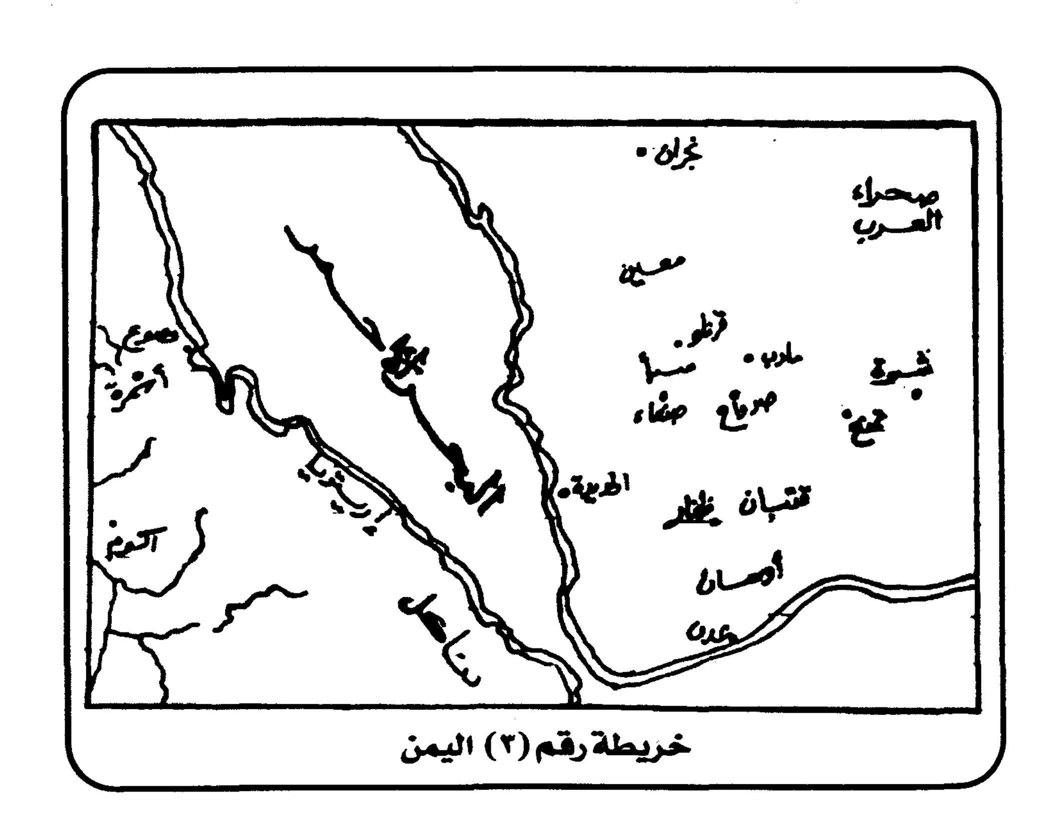
(٨) جواد على، المرجع السابق، ص ٢٥٨، عبد العزيز سالم، المرجع السابق ص٦٢.

الباب الثاني

تاريخ بلاد العرب الجنوبية
[اليمـن]

الفصل الأول

اسم اليمن
أوسان
قتبان
حضرموت
معين
سبأ
الاحتلال الحبشى الأول لليمن
الغزو الحبشى الثانى لليمن
اليمن خلال حكم أبرهة
سيف بن ذى يزن واستبداله لاستعمار بآخر



خريطة رقم (٢) اليمن

التاريخ القديم لبلاد العرب الجنوبية (اليمن)

اليمن اسم شامل للمناطق الجنوبية من جزيرة العرب، في مقابل اسم الشام الذي يشمل المناطق الشمالية من الجزيرة، هذه التسمية يعللها ابن الكلبي بأن يقطن بن عابر نزل في موضع اليمن فقال العرب تيمن: بنو يقطن [1] .

وذكر ابن عباس أن اليمن، سميت يمناً لأنها تقع على يمين الكعبة، وهو التيمن، بخلاف الشام الذي سمي شاماً لوقوعه على شمال الكعبة ولشؤمه!!

والواقع أن هذه التسمية [اليمن] لم ترد بهذه الصورة في أي من النقوش اليمنية، وأقدم ذكر لها ورد في نقشين لأبرهة الحبشي من القرن السادس الميلادي باسم «زيمن» وتعني التي باليمن، وجاء في نصوص سبأ لفظ آخر مشابه وهو يمنت أو يمنات والذي يحمل نفس المعنى اللغوي من ناحية الدلالة على الجنوب؛ إذ ورد مقابلاً «لشامت» أي الشمال، ذلك حسب بعض الآراء [2] وحسب بعضها الآخر فإن يمنت أو يمنات تعني اليمن والخير، استناداً إلى أن بلاد اليمن كانت في أقدم عصورها التاريخية بلاداً كثيرة الأشجار والثمار حتى أنها عرفت لذلك السبب باليمن الخضراء أو اليمن السعيد [3].

ومع ذلك فلا يستبعد أن يكون اليمنيون قد استخدموا لفظة اليمن في العصر القريب من الإسلام [الجاهلي].

وفي هذا الإقليم الجنوبي من بلاد العرب المعروف الآن باليمن قامت حضارة يعود أقدم ما بلغنا من أخبارها إلى القرن الحادي عشر أو العاشر قبل الميلاد، حضارة جذبت إليها أنظار العالم القديم والحديث، أثرت فيه وتأثرت به، وبلغت من ذيوع الصيت أن تحدث عنها الكتاب الكلاسيكين [القدماء] من أمثال هيرودوتس وبطليموس واسترابون وبليني وغيرهم.

وعرف عندهم ببلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) لكثرة خيراتها ومحصولاتها الزراعية.

لقد تمثلت حضارة بلاد العرب الجنوبية في قيام ممالك خلال فترات متداخلة أو متعاقبة وهي معين وقتبان وحضرموت وسبأ إضافة لمملكة أوسان، وكانت تلك الممالك، على الأغلب متعاصرة متعاونة في بعض الأحيان، متنافسة متناصرة في البعض الآخر، ليس

---

(١) ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب، الأصنام .

(٢) محمد عبد القادر بافقيه ، تاريخ اليمن القديم، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٠ ٢، ص٢٩ .

(٣) عبد الله خليفة الخياط، المرجع السابق، ص٥٨ .

نتيجه لحروب أو غزوات فحسب، وإنما لوجود تبادل تجارى وحركة هجرة متبادلة عبر السنين تحت ضغط الظروف المعيشية أيضاً

أوســـان

أوسان قبيلة يمنية قديمة قامت فى النصف الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد، وعاشت حتى قبيل القرن الثانى قبل الميلاد، وشملت الإقليم الواقع جنوب غرب حضرموت [١]

أثار هذه المملكة قليلة جداً، فالمعلومات عنها محدودة ، ومن مجموعة النقوش التى نشرها كونتى روسينى [٢] يظهر أن أقدم إشارة لهذة الدولة وجدت فى نقش يعود تاريخه للنصف الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد، يذكر قيام ملكها مرتوم بصد هجوم شن عليها من قبل الملك السبئى كرب إلى، كما يؤكد ذلك إشارة عابرة جاءت فى البريبلوس [٣] تصف الساحل الأفريقى شمالى زنجبار بالساحل الأوسانى.

لا يعرف على وجه اليقين أين قام مركز مملكة أوسان فى اليمن وإن كان من المعتقد أنه قام جنوب قتبان، ربما فى وادى مرخة وما حواليه وازدهرت حتى نافست سبأ منافسة شديدة وتمكنت من السيطرة على التجارة البحرية على الأجزاء الساحلية من الشاطئين، اليمنى والأفريقى.

كما يتضح أيضاً ان ملوكها تمتعوا بصفة دينية، فاعتبروا أبناء للإله كما تبين من تمثال لأحد ملوكها وجود تأثير إغريقى على ملابسه [٤] .

أهم معبوداتهم إله يمثل القمر.

ظلت أوسان القبيلة باقية بعد زوال حكومتها فترة طويلة، فتردد ذكرها حتى العصر الإسلامى.

---

(١) جواد على، المرجع السابق، الجزء الثانى، ص٤٩٨.

(2) Conti Rossini C.. Chrestonmathia arabica meridionalis epigraphica , Roma , 1931,p.,96

(3) Periphus of the Erythrean sea. Trans. and anaotated by W.H. Schoff, New york. 1912. p103

(٤) يوجد هذا التمثال الآن بمتحف عدن، وهو للملك يصدق إل فرعم بن شرح عث

قـــتبان

تتوسط قتبان بلاد اليمن، يحدها حضرموت من الشرق ومعين من الشمال، وسبأ من الغرب، وسيطر القتبانيون على الأجزاء الجنوبية المطلة على البحار في الركن الغربي من اليمن حول مدخل البحر الأحمر وعدن.

ويعتقد أن الاستيطان بقتبان يعود تاريخه إلى القرن الحادى عشر وبداية العاشر قبل الميلاد. وأقام القتبانيون كيان سياسى خاص بهم فى الفترة ما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد، كان ملوكها يحملون لقب مكرب مثلهم فى ذلك مثل حكام سبأ [١].

عرف للقتبانيين عاصمتين، الأولى تمنع، التى قال عنها بلينى: إن بها خمسة وستين معبداً [٢]. وتعرف الآن باسم كحلات، والثانية فى حرب [حريب] وتعرف هى الأخرى الآن باسم هجرين حميد [٣].

مرت قتبان بفترة ازدهار منذ منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، حيث أصبحت تسيطر على الشريط الساحلى الممتد من باب المندب حتى ما وراء عدن إلى الشرق، ومن مظاهر ذلك الازدهار، قيام ملوكها بالعديد من الأعمال العمرانية الكبيرة كشق الطرق التى أقيمت لتسهيل مرور القوافل التجارية و للتحكم فى حركتها من جهة وللربط بين أجزاء المملكة وسرعة تحرك القوات للدفاع عنها أو حفظ النظام فى أطرافها من جهة أخرى وإقامة مشاريع الرى فى العديد من الأودية بشق قنوات تمتد مسافات طويلة، ولها مصارف تتحكم فى مياه السيول وتقوم بتوزيعها على الجداول الفرعية التى كانت تشكل شبكة منتشرة فى الأرض الزراعية على الجانبين، وقد ظل بعض هذه القنوات مستخدماً حتى القرن الأول الميلادى [٤] كما قاموا بسك عملة خاصة بهم من الذهب تحمل صورة أحد قصورهم [٥].

سن القتبانيون القوانين، من بينهما قانون سنه الملك شهرهلل، وأمر بكتابته على نصب حجرى أقيم فى وسط مدينة تمنع، حيث يقوم سوقها على ما يعتقد، ولا يزال ذلك النصب قائماً مكانه تغطيه الكتابة من جهاته الأربعة، وهو حسب بعض الدراسات الحديثة يحتوى على اثنى عشر مادة، ويدور حول قاعدتين عامتين :

---

(١) جواد على، المرجع السابق، ص ١٧٩.

(2) Pliny .The Natural History

(٣) جواد على، المرجع السابق، ص٢٢٢.

(٤) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق ص ٣٦.

(5) Albright, W.F., from the stone Age to Christianity, Baltimore, 1967, p. 57

الأولى : تركيز التجارة وحصرها فى الموضع المسمى (شـهر) وهى سوق تمنع، وحظر عمليات البيع والشراء ليلاً، وذلك لضمان جباية الضرائب والرسوم المفروضة على التجارة.

الثانية : تفضيل التجار من أبناء قتبان على غيرهم وفرض رسوم إضافية على غير القتبانيين.

منذ نهاية القرن الثانى قبل الميلاد أخذ الحميريون يقتطعون أجزاء من الأراضى التابعة لقتبان، وبنهاية القرن الأول قبل الميلاد تمت سيطرة حمير على الأجزاء الساحلية، وفقدت بذلك قتبان سيطرتها على التجارة البحرية كما تعرضت مدينة تمنع فى الفترة من ٩٠ - ١٠٠م لحريق هائل [١] نقل القتبانيون بعد ذلك عاصمتهم لحرب [حريب] ، ثم قام الحضرميون بالاستيلاء على أراضى قتبان، وذلك قبل أن تستطيع سبأ أن تفرض عليها سيطرتها وتنضوى بذلك دولة قتبان تحت لواء الدولة السبئية، وكان ذلك قد حدث حوالى منتصف القرن الثانى للميلاد.

حضرموت

قامت فى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب، وتنسبها التوراة إلى حاضرميت بن يقطن بن عابر بن ار فخشذ بن سام بن نوح عليه السلام [٢] .

ظل أمر هذه الدولة مجهولاً لمؤرخى اليوم حتى عثر على عدد من النقوش التى أمكن منها التعرف على بعض مراحلها ، ومن ذلك :

كانت دولة حضرموت تعاصر كل من حمير وسبأ وقتبان، وكانت العاصمة القديمة لحضرموت هى «ميفعة» ثم انتقلت إلى شبوة فى القرن الثانى قبل الميلاد على ما يعتقد[٣] ، وكانت حضرموت تعرضت لغارات حميرية على مناطقها الساحلية كما خسرت بعض أراضيها التى استولت عليها أوسان وأعادتها فى فترة لاحقة، واستطاع بعض ملوكها مثل معدى يكرى أن يسيطروا على حضرموت ومعين معاً ثم فى فترة لاحقة لم يسيطروا سوى على حضرموت فقط. ثم صارت حضرموت تابعة للدولة الحميرية الثانية

---

(١) وقد كشفت بعثة دراسة الإنسان الأمريكية عن آثار ذلك الحريق فى منطقة هجر كحلان. للمزيد عنه انظر :
Caton Thompson G.. The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadhramaut) Report of the Research Committee of the Society of Antiguities of London XIII , oxford.1944

(٢) محمد عبد القادر بافقيه المرجع السابق، ص ٣٩

(٣) شبوة هى سباتة عند العبرانيين.

منذ سنة ١١٥ ق.م حيث صار ملوك حمير يلقبون أنفسهم بلقب ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت، وذلك قبل أن تتحالف حضرموت مع ظفار، وأن أهم المدن فى هذا التحالف كانت مدينة سمهورم، التى كانت محاطة بسور عرضه ٨ أقدام وارتفاعه ما بين ١٥ - ٢٠ قدم، وبه برجان أحدهما عند الطرف الجنوبى الشرقى، والآخر عند الطرف الشمالى الغربى.

الإشارات الواردة فى الكتب الكلاسيكية تدل على أن تجارة البخور كانت مزدهرة وأن شبوة، العاصمة الثانية، كانت مركزاً رئيسياً لتجميع تلك السلعة الثمينة، كما أن طريق تجارة البخور كان يمتد من قنا ويمر بظفار وشبوة فى حضرموت وتمنع فى قتبان ومأرب فى سبأ ثم إلى الجوف فى معين [١] .

معبود حضرموت الرئيسى سين ذالم، الذى يرمز للقمر، ويفهم من أسماء ملوك حضرموت أنهم تمتعوا بصفة دينية كما أنهم تلقبوا بلقب مكارب.

لقد ظلت حضرموت تعرف بهذا الاسم قروناً طويلة بدون انقطاع، ولم يزل الاسم بزوال المملكة القديمة، كما حدث لغيرها من ممالك اليمن القديمة، فذكرت فى الشعر الجاهلى [٢] ولكنها لم تذكر فى القرآن الكريم. والواضح حتى الآن أنها استمرت من ١٠٢٠ ق.م إلى ١٢٥م عندما يعلن شمر يهر عش ضمها إلى مملكة سبأ وذى ريدان [٣] .

معين

أقام المعينيون مملكتهم فى الجوف، شرقى صنعاء، وهو أخصب بقاع اليمن، وأصلحها للزراعة. ولم يرد ذكر لهذه الدولة فى المصادر العربية، وقال عنها الإغريق والرومان : إن عاصمتها مدينة قرناو Karno.

ظلت حضارة المعينيين غير معروفة فتضاربت الآراء حول تاريخها، فاقترح بعض الباحثين القرن الخامس عشر قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى لقيامها، فى حين يرى البعض الآخر أن معين سبقت الدولة السبئية ثم عاصرتها [٤] ظل الأمر كذلك حتى تمكن المستشرق الفرنسى جوزيف هاليفى من الكشف عن آثار معين فى القرن التاسع عشر

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) من ذلك مثلاً قول الشاعر عبد يغوث بن وقاص الحارثى

أبـا كـرب والأيهمين كليهما   وقيساً بأعلى حضرموت اليمانيا

(٣) عن سبأ وذى ريدان، انظر الصفحة ٥٣ من هذه الدراسة.

(٤) جورجى زيدان، المرجع السابق، ص ١٢٠، جواد على المرجع السابق، ص٧٣، سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٨٢ .

الميلادى، وتابع من بعده جلازر وجوسن وموللر ومحمد توفيق [٢] دراسة آثار معين، وبفضل جهودهم يمكن القول: إن معين حكمها ٢٦ ملكاً، يتوزعون على خمس أسرات أو أربع أسرات [١] ويشترك عدد من الملوك فى نقش الأسماء مثل «اى يدع» «اليضع» «حفن» «معدى كرب» «تبعى كرب» «خللكرب»، وتلقب الملوك بلقب «يطوع» أى المخلص، ولقب «صدوق» أى العادل، ولقب «ريام» أى المضىء ولقب «مزود» أى المقدس ولقب «كبر» أى الكبير أو العظيم، ولقب «يفس» بمعنى الفخور.

نظام الحكم فى هذه الدولة كان وراثياً من الأب إلى الابن، وقد يشترك الاثنان معاً فى الحكم، وكان للمدن المعينية مجالس تدير شئونها فى السلم والحرب، تعرف باسم «مزود» أو «مسود»، يعتبره البعض نوعاً من نظام الحكم المحلى، سمح لرؤساء القبائل بأن يكون لهم رأى فى تسيير أمور المدينة.

كما أوضحت البحوث الأثرية والتاريخية أن الضرائب كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع من الضرائب، الأولى: تعود جبايتها لخزانة الملك، والثانية تعود إلى المعابد والثالثة تعود إلى المشائخ والحكام [٣] .

وفيما يتعلق بنشاطهم الاقتصادى فإن بلينى يقول: «إلى جوار الحضارمة المعينيون، وهم قوم يخترق بلادهم الممر الوحيد للبخور عبر طريق واحد ضيق، وهم أول من مارس هذه التجارة، وما زالوا يمارسونها أكثر من غيرهم حتى أن البخور ليعرف بالمعينى نسبة إليهم» [٤] .

ويذكر استرابون نقلاً عن ايراتوسثينيس: إن أرض المعينيين تقع فى الجزء المحاذى للبحر الأحمر، وأنهم سيطروا على طول الطريق من الجوف ونجران إلى فلسطين [٥] .

أدى توسع المعينيين إلى ارتباطهم فى علاقات خاصة مع حضرموت، فحكمت أسرة واحدة المنطقتين معاً، وذلك حوالى ٤٠٠ ق.م، ويعلل بافقيه هذا الارتباط لوجود مصالح تجارية بينهما خاصة، فالجزءان يكمل كل منهما الآخر، حضرموت تسيطر على مناطق إنتاج اللبان أو تتحكم فيها بحكم موقعها، ومعين بيدها مقاليد الطريق إلى الشمال [٦] .

---

(١) عبد العزيز سالم تاريخ العرب قبل الإسلام، الإسكندرية ١٩٧٣م ص٣٨ .

(٢) عن هؤلاء الباحثين راجع ما سبق ذكره بالصفحة ١٧ ، ١٨ من هذه الدراسة .

(٣) المرجع نفسه ص٤٠ .

(4) Pliny. The Naturl History.

(٥) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق. ص٢٧

(٦) المرجع نفسه، ٢٨

وقد استلزم اشتغال المعينيين بالتجارة معرفتهم بتدوين الحسابات التجارية والكتابة، فاقتبسوا الأبجدية الفنيقية [الآرامية] ودونوا بها لغتهم، وقد عثر على نقش على ناوؤس رجل معينى، عثر عليه بالجيزة فى مصر، اسمه [الرجل] زيد إل بن زيد، كان يقوم بإمداد المعابد المصرية بالصمغ والمر، ويستورد من مصر الأقمشة، ويحمل هذا النقش تاريخاً هو السنة والعشرين من عهد بطليموس بن بطليموس الثانى، أى ما يوافق عام ٢٦٤ ق.م وبالتالى يعتقد أن معين بلغت أوج ازدهارها على ما يظهر فى هذا الوقت.

كما عثر فى ديلوس على نقش معينى يعود تاريخه للنصف الأخير من القرن الثانى قبل الميلاد، كذلك عثر عليها فى أور والوركا بالعراق.

من حيث الديانة فقد عبد المعينيون الكثير من الآلهة، أهمها الإله ود [إله القمر] وعثتر [الإلهة الزهرة] ونكرخ [إله الشمس] واللات معن [إلهة معين]، وبالتالى فقد تعددت المعابد فى مختلف المدن المعينية [1] .

أصيبت دولة معين فى أواخر أيامها بالضعف، فاتجه السبئيون إليها، وبسطوا عليها نفوذهم، ومع ذلك فالظاهر أن المعينيين ظلوا يتمتعون فى ظل السبئيين، بحكم بلادهم المحلى، كما كانوا يقومون بنشاطهم التجارى؛ إذ عثر ببعض النقوش تعود لملوك معين المتأخرين، وبها إشارات باعتراف معين بسلطان ألهة وملوك وشعب سبأ. وقد ذكرهم بلينى إلى جانب الحميريين كأكثر الجماعات عدداً وأخصبهم أرضاً وأغزرهم نخلاً وأكثرهم امتلاكاً للمواشى، كما تحدث عنهم بطليموس الذى وصفهم بأنهم «شعب عظيم»

سبأ

تعرض الدكتور جواد على لمناقشة نقش عجيب، نقش عليه عبارة «عبد شمس بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان» [2] لذا من المعتقد أن تسمية الدولة باسم سبأ والشعب بالسبئى انطلاقاً من ذلك الاسم الوارد بهذا النقش.

اختلف الباحثون اليوم فى الموطن الأصلى للشعب السبئى ما بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها، والصريح والثابت أن السبئيين وجدوا فى اليمن منذ أقدم العصور، وإن حاول بعض الباحثين حصرها فى الفترة ما بين ١٥٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م [3] .

ولاشك أن النقوش السبئية هى أوثق المصادر التاريخية التى يمكن الركون إليها فى

---

(١) جواد على، المرجع السابق، ص ١١٣ وما بعدها.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٥٩.

(3) Albright. W.F.. op.cit.. p.97.

التأريخ لهذه الدولة، ولقد تمكن الباحثون والعلماء من جمع كم هائل منها، ولكن هي الأخرى تعاني نقصاً بسبب فجوات في عدم تسلسلها أو بسبب عدم تمكن العلماء من معرفة تواريخ تلك النقوش لخلوها من ذلك أو لاستخدام تقاويم لم نعرف أسسها بعد.

لقد ورد اسم سبأ، دون غيرها من القبائل والممالك اليمنية القديمة في القرآن الكريم، في سورة النمل، وفي سورة تحمل اسمها، سورة سبأ، واقتضى ذكر القرآن الكريم لها أن اهتم بها الرواة والأخباريون العرب، ويعتبر كتاب الهمذاني «الإكليل»، أكثر الكتابات الإسلامية نفعاً في هذا المجال ثم يأتي بعد ذلك كتاب المسعودي، «مروج الذهب ومعادن الجوهر» [1]

كذلك ورد اسم سبأ في التوراة بأنها بلاد تنتج الطيور والأحجار الكريمة ومعدن الذهب، وأن الملكة بلقيس ملكة سبأ زارت سليمان في أورشليم [2].

كما ورد اسم سبأ في الكتابات الكلاسيكية، فذكرها بليني قائلاً: إن السبئيين أشهر من عرف من قبائل البلاد العربية، وأفرد لهم استرابون فقرة مطولة وصف فيها بلادهم، وذكر أنهم شعب كبير التعداد وأن بلادهم شديدة الخصوبة تنبت المر واللبان وأنواعاً أخرى من الأعشاب الذكية الرائحة، وقال: إن ماريابا [مأرب] عاصمتهم تقوم على جبل كثيف الأشجار، وأبناء شعب سبأ حياتهم موزعة بين الزراعة والاتجار بالطيوب التي ينتجونها أو يستوردونها بالسفن المغطاة بالجلود من أثيوبيا عبر البحر [3] .

أما أقدم ذكر لسبأ، إضافة للنقش الذي سبق الإشارة إليه، فقد ورد في النقوش الآشورية التي ترجع إلى أيام الملك تجلان بيلاسر الثالث وسرجون الثاني ٧٢١ـ ٧٠٥ق.م، الذي ورد بنقش له : إن من بين الذين فرض عليهم دفع الجزية له والتي دفعها يثعمر السبئي.[4] .

عاش السبئيون فترة انتقال بين شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية قبل أن يستقر بهم المقام في اليمن مستغلين فرصة ضعف الدولة المعينية، فأخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب الدولة المعينية التي ورثوا عنها اللغة والديانة وخلفوهم في الاشتغال بنقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق، حتى أصبحوا في القرون الأولى قبل

---

(١) راجع ما سبق ذكره بالصفحة ١٤ من هذه الدراسة .

(٢) الكتاب المقدس «التوراة» سفر أرمياء، إصحاح ٦ آية ٢٠.

(٣) محمد عبدالقادر بافقيه، المرجع السابق، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٤) تمثلت هذه الجزية في الذهب والأحجار الكريمة وبعض الأعشاب وعدد من الإبل وللمزيد عن ذلك انظر: جواد علي، المرجع السابق، ص ٣٠٠ وما بعدها

الميلاد أعظم وسطاء تجاريين بين البلدان التى سبق ذكرها، فأطلق عليهم الأستاذ فيليب حتى اسم «فنيقى البحر الجنوبى» [١]

يقسم الباحثون تاريخ دولة سبأ إلى مرحلتين كما يقسمه آخرون إلى أربعة مراحل استناداً إلى الألقاب التى حملها الملوك.

المرحلة الأولى : مرحلة المكارب أو عصر المكربون، وهى الفترة التى بدأ فيها السبئيون بالاستقرار بالجنوب، وربما بسبب ضغط الآشوريين عليهم فى الشمال، وذلك تقريباً منذ مطلع القرن الثامن قبل الميلاد عندما تركوا مواطنهم التى أطلق عليها الآشوريون اسم عريبى أو أريبى Aribi ليتخذوا من صرواح بين التلال الواقعة جنوب مأرب عاصمة لهم شيدوا بها معبداً رئيسياً لالمقه و أقاموا فى وادى صرواح المحاط بالجبال من كل ناحية سداً لتخزين مياه الأمطار.

ولفظة مكرب التى سميت بها هذه المرحلة يعتقد أنها تعنى المقرب من الآلهة والناس، مما يعنى أن ملوك هذه المرحلة كانت لهم صفة كهنوتية، أى ملوك كهان، وقد عدد الباحثون مكارب هذه المرحلة فى سبعة عشر مكرباً حكموا حوالى قرنين من الزمان، أولهم المكرب سمه على وآخرهم المكرب كرب ايل وتر الذى تخلى عن سياسة التعمير، واتجه إلى التوسع العسكرى، فهاجم الدولة المعينية وقضى عليها، كما انتصر على القتبانيين وسجل انتصاراته على جدران معبد صرواح، ولقب نفسه بلقب ملك سبأ، فأصبح أول حكام سبأ الذين تلقبوا بهذا اللقب [٢] .

المرحلة الثانية : التى تبدأ حوالى ٤١٠ ق.م عند قام ايل وتر بحمل لقب ملك، ورغم قلة المعلومات عن هذه الفترة الطويلة، فإنه يمكن القول: إن موجة الحروب التى خاضها أوائل ملوك هذه المرحلة قد انحسرت، وأعقبتها نهضة فى الممالك الأخرى كما يلاحظ حدوث ازدهار اجتماعى فى الفترة ما بين أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ومطلع الثالث قبل الميلاد، فمن المعروف أن المجتمع السبئى كان قد نظم نفسه منذ وقت بعيد فى شكل من أشكال التنظيم القبلى الذى يرأس فيه القبيلة رئيس أو شيخ من أبنائها، فنحن نلمس من النقوش المكتشفة قوة الرابطة القبلية التى كانت تربط أبناء سبأ والعلاقة الخاصة التى تجمعهم حول معبودهم القبلى الإله «المقه» [٣] .

ولكن من التطورات المهمة خلال مرحلة الملوك ونتيجة للازدهار الاجتماعى ظهور آلهة

---

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب، ترجمة محمدّ مبروك نافع، القاهرة، ١٩٥٣م ، ص ٦٠ .

(٢) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(٣) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص١٩١ .

جديدة، تبنتها بعض القبائل باليمن مثل الإله «تألب ياريم» إله قبيلة همذان والإله «ذو سماوى» [ذسموى] أى رب السماء، مما يمكن أن يفهم منه ظهور اتجاه نحو التوحيد [١]

أيضاً انتقال عاصمتهم إلى مأرب وشيدوا بها قصر سلحين ومعبد الإله «المقه» الشهير بحرم بلقيس. كما أنشئ بها أعظم السدود [٢] .

من حيث النشاط الاقتصادى : فإن الدلائل تشير إلى أنه على الرغم من اهتمام البطالمة فى مصر بالبحر الأحمر، فإن معظم التجارة فى السلع الشرقية ظلت بأيدى العرب، ولعل ذلك ما أوعز إلى اجاثرخيدس بالقول: «ليس هناك من الأمم من هو أغنى من السبئيين والجرهائيين [٣] ، الذين كانوا وكلاء كل شىء يقع تحت اسم النقل من آسيا وأوربا، فإنهم هم الذين جعلوا سوريا البطالمة غنية بالذهب، وهم الذين سهلوا للفنيقيين سبل التجارة المربحة» [٤] .

واستمر ذلك الازدهار طيلة القرن الثالث قبل الميلاد، وفى القرن الثانى قبل الميلاد عادت قتبان تسيطر مرة أخرى على مناطق واسعة كانت من قبل قد آلت إلى سبأ، على أنه طوال هذه القرون الثلاث [الرابع - الثانى ق.م] ورغم التنافس بين الممالك اليمنية، فإن الازدهار فيما يبدو كان شاملا .

ولكن نهاية القرن الثانى شهدت تحولا داخلياً وخارجياً، إذ بدأ الحميريون زحفهم الطويل الذى انتهى بهم فيما بعد إلى إقامة حضارتهم الجديدة ظفار [ريدان] فى المرتفعات الجنوبية الغربية، وخارجياً بدأ البطالمة فى مصر باحتكار التجارة الشرقية، وبدأت رحلاتهم البحرية تسير من مصر إلى الهند مباشرة [٥] .

وفى خلال القرن الأول قبل الميلاد تأثرت الرحلات البحرية من مصر إلى الهند بالاضطرابات التى نجمت عن الحروب الأهلية الرومانية وضعف الحكام البطالمة المتأخرين، وشهدت اليمن قيام نزاع قبلى خطير حول عرش سبأ انتهى بانتزاعه من قبل أسرة جديدة لقب ملوكها بلقب ملوك سبأ وذى ريدان[٦].

المرحلة الثالثة : والتى تبدأ حوالى١١٤ ق.م وتسمى مرحلة ملوك سبأ وذى ريدان أو

---

(١) المرجع نفسه، نفس المكان.

(٢) عن سد مأرب، انظر تفصيل ذلك بالصفحة ٧١ من هذه الدراسة.

(٣) الجرهائيون: أصحاب مدينة ازدهرت حينذاك على الخليج العربى

(٤) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص ٧٣.

(5) Hermann V.wiss mann. Himyar Ancient History. Le Muséon 77.3-4. 1964. p.429

(٦) بعض الباحثين يعتبر المرحلة الثانية نهاية الدولة السبئية وأن المرحلة الثالثة يعتبرها المرحلة الأولى من تاريخ الدولة الحميرية.

الدولة الحميرية الأولى [1] وتستمر إلى حوالى عام ٣٠٠م.

هذه المرحلة عند الأخباريين العرب مليئة بالأساطير [2] أما من الناحية الأثرية، خاصة النقوش، فهذه المرحلة من أشد الفترات تعقيداً فى التاريخ اليمنى القديم، على الرغم من كثرة النصوص التى وصلت إلينا منها، ذلك لأن الفجوات القائمة فيما بين تلك النصوص تجعل من الصعوبة بمكان محاولة ترتيبها للحصول على صورة عامة عن الفترة التى تمثلها[3].

وتسمية هذه المرحلة [ملوك سبأ وذى ريدان] يدل على أن الذى يتحلى بهذا اللقب إنما يعلن عن تملكه للجهتين معاً: مملكة سبأ ودولة بنى ريدان.

شهدت اليمن فى بداية هذه المرحلة محاولة غزو رومانية، تعرف فى مصادر التاريخ القديم باسم حملة اليوس جالوس سنة ٢٤ ق.م [4].

---

(١) الريدانيون شعب عربى جنوبى، سكن شمال حضرموت بينما الحميريون إلى غربهم.

(٢) انظر على سبيل المثال، الهمذانى، المرجع السابق وهب بن منبه، المرجع السابق، الأصفهانى، المرجع السابق، عبيد بن شرية، المرجع السابق.

(٣) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص٨٢.

(٤) اليوس جالوس حاكم مصر الرومانية سنة ٢٤ ق.م، قاد هذه الحملة التى كان يهدف من ورائها للاستيلاء على اليمن بغية السيطرة على طرق التجارة التى كان يحتكرها السبئيون واستغلال ثروات اليمن حسب اعتقاد البعض.
ومن الغريب انه لا يوجد لهذا الحادث الخطير صدى فى النقوش التى عثر عليها حتى الآن، والمصدر الوحيد الذى ترجع إليه المعلومات عن هذه الحملة ما كتبه استرابون معاصر القائد الرومانى وصديقه.
عاون الرومان فى هذه الحملة الأقباط زمن ملكهم عبادة الثانى الذى أرسل معهم وزيره صالح [سايليوس] ليكون دليلاً لهم فى بلاد العرب والذى سار معهم على رأس ألف رجل من الأقباط اشتركوا فى الحملة، التى خرجت من مصر بحرا إلى ميناء لايكة كومة النبطى [الحوراء] بعد أن غرقت بعض سفنهم بما فيها من جنود، ثم سلكت الطريق البرى عبر الحجاز وكانت أول المدن اليمنية التى تعرضت لهجومهم مدينة نجرانا [نجران] التى هرب ملكها، ثم ساروا إلى أسكا [نشق] التى سلمها ملكها دون مقاومة على انه فى الطريق بين نجران ونشق حدثت معركة عند نهر؟ قتل فيها حسب استرابون عشرة الآف رجل من العرب مقابل رجلين من الرومان، وبعد نشق تسقط اثرولا [يثل] من غير مقاومة ايضاً، وهكذا تصبح الطرق إلى حاريابا [مأرب] سهلة، ولكن المدينة لقوة تحصينها لم تسقط رغم حصار الرومان لها مدة طويلة، فتراجعوا عنها إلى مصر بعد أن فقد قائد الحملة معظم رجاله من الجوع والمرض وصعوبة الطريق.
هكذا أخفقت هذه الحملة والقى الرومان تبعة ذلك على الوزير النبطى صالح [سايليوس] الذى حكم عليه بالإعدام لخيانته وسوء مشورته.
أهم ما فى هذه الحملة وصف استرابون لها على الرغم من أن البعض يظن أن استرابون لم يكن أمينا فى وصفه للحملة، ولم يكن فى حديثه ذاك مؤرخا يتحرى الحقائق، وإنما كان سياسياً يدافع عن سمعة امبراطوريته وعن صديقه القائد الذى فشل.
والثابت حتى الآن بشأن هذه الحملة انها فشلت، إذ عجزت عن تحقيق اى هدف، فلا أرضاً احتلت ولا تحالف مع أحد حققت وهو الأمر الذى يبدو فى غاية الغموض. للمزيد عن هذه الحملة انظر: محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص٧٤ وما بعدها، فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٥٦، جواد على، المرجع السابق، ص ٣٨٤.

كما بدأت الأحوال فى أرجاء البحر الأبيض المتوسط تستتب وتستقر بعد اضطرابها، الأمر الذى أعاد الإقبال على سلع الشرق خاصة اليمن إلى سابق عهده، بل ربما زاد على ذلك بطلب روما لها

ويكاد الباحثون يتفقون على أن إل شرح يحضب، الذى ينسب إليه الأخباريون العرب بناء قصر غمدان الشهير [١]، مؤسس هذه الدولة. والذى حارب قبائل حضرموت ونجران كما حارب الأحباش [حبشت]، فى حين أصبحت سبأ دولة داخلية محصورة، وأن هيبة ملوك مأرب قد ضعفت فأخذ الأحباش [حبشت] يناوشون أطراف مملكة سبأ الشمالية الغربية بعد أن أخذوا يثبتون أقدامهم فى أجزاء من الساحل الغربى وشمالى وادى سهام[٢]

ثم بدأ نجم الحميريين فى الصعود منذ عهد ملكهم شمر ذى ريدان الذى غلب الريدانيين، كما احتل مأرب، وما أن انتهى القرن الثانى الميلادى حتى كانوا قد استولوا على كل بلاد سبأ التى صارت تابعة لهم [٣] .

من الأمور الواجب ذكرها عن هذه المرحلة التاريخية أن سد مأرب قد أصابه التصدع للمرة الثانية، كما شهدت هذه المرحلة انقلاباً دينياً كبيراً عندما تمكن المبشر الراهب ثيوفيلوس من إقناع الحميريين بالدخول فى النصرانية والتخلى عن وثنيتهم، فشيدت الكنائس فى العاصمة ظفار وفى عدن [٤] .

المرحلة الرابعة : مرحلة ملوك سبأ وذى ريدان وحضر موت ويمنت .

قبل نهاية القرن الثالث الميلادى يطرأ على اللقب الملكى فى سبأ وذى ريدان تغيير جديد إذ يصبح: ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت.

وحضر موت هى المملكة التى مرت علاقاتها مع سبأ بتقلبات كثيرة، أما يمنت فهى كلمة وجدت فى النقوش مقرونة بكلمة "شامت" وكانت تعنى الجنوب [٥].

من جهة أخرى فإن أول من ابتدع هذه الإضافة هو شمريهرعش ٢٧٠ ـ ٣١٠م والذى عثر له بمحرم بلقيس بمأرب على نقش يحوى "ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت ابن ياسر يهنعم ملك سبأ وذى ريدان" [٦] .

---

(١) الهمذانى، المرجع السابق، ص١٩.

(2) Hermann V.wiss man. OP.Cit.. P.. 452.

(٣) جواد على، المرجع السابق، ص. ٤٨٤ ٥٢٤ وما بعدها، سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص١٩٤.

(٤) عن الديانة المسيحية فى بلاد العرب انظر الصفحة ١٥٤ من هذه الدراسة.

(٥) راجع ما سبق ذكره بالصفحة رقم ٤٢ من هذه الدراسة.

(٦) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص ١٣٧

وشمريهرعش عند الأخباريين العرب [١] هو تبع الأكبر الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: "أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم أنهم كانوا مجرمين [٢]

ويعتقد أن شمريهرعش اشترك مع أبيه ياسر يهنعم، الذى أطنبت المصادر الأخبارية العربية فى الحديث عنه وأحاطته بهالة كبيرة من البطولة [٣] يعتقد أنه اشترك مع أبيه فى الحكم ثم انفرد به بعد ذلك، وفى هذه الفترة الثانية أحدث التغيير فى اللقب الملكى.

لم يعثر بعد على نقش ملكى يتحدث عن الخطوات التى أدت إلى إخضاع حضرموت ويمنت، كل ما فى الأمر أن النقوش المكتشفة حتى الآن تقتصر مجموعة منها على سبأ وذى ريدان، والأخرى تضيف حضرموت ويمنت فى اللقب الملكى، ومن المجموعة الأخيرة نقوش تذكر عدد من أبناء سبأ كهلان، يتحدثون فيه عن غزوهم لحضرموت على أيام ملكها شرح إل وربشمس، وقد تكون تلك إحدى المعارك التى أدت إلى إخضاع حضرموت.

الاحتلال الجيشى الاول لليمن

الحبشة أو حبشت فى اعتقاد بعض الباحثين هم جماعات عربية الأصل هاجرت إلى الساحل الجنوبى للجزيرة العربية شرقى حضرموت إلى الغرب واستوطنت المناطق المقابلة لليمن على ساحل البحر الأحمر من القارة الأفريقية بعد أن عبرت باب المندب وذلك حوالى القرن الرابع قبل الميلاد [٤].

وبمضى الزمن تمكن هؤلاء المهاجرون من تكوين مملكة أكسوم بعد أن تافرقوا [٥] وازدهرت هذه المملكة فى القرن الثالث الميلادى وأخذت ترنو ببصرها للسيطرة على المناطق المجاورة لها فى الشمال والجنوب والشرق.

وقد لوحظ فى نقوش عثر عليها فى الحبشة أن بعض ملوكها يذكرون مناطق يمنية فى ألقاب السيادة لديهم، ومنهم سمبروتس وعيزانا الذى تلقب بلقب ملك ريدان وسبأ وسلحين.

كما توجد نقوش تتحدث عن غزوات ملك أكسومى لم يعرف اسمه، وإن كان البعض من

---

(١) وهب بن منبه، المرجع السابق، ص ص ٢١٩، ٤٢٦، الهمذانى، المرجع السابق، ص٢٠٧، الأصفهانى، المرجع السابق، ص ٨٣.

(٢) سورة الدخان، آية ٣٧.

(٣) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص١٤٠، من جهة راجع ما سبق ذكره عن حضرموت فى الصفحة رقم ٤٦ من هذه الدراسة.

(٤) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص١٢٠.

(٥) نفس المرجع، نفس المكان.

الباحثين يعتقد أنه الاعميدا [النجاشي] للبر الأفريقي حتى حدود مصر شمالا وبلاد الصومال جنوباً وفى البر العربي حتى لايكة كومة [الحوراء]، وهو الأمر الذى يشير إلى حدوث احتلال حبشي، وهو ما يفسر تزيين ملوك الحبشة [حبشت] وأكسوم لقبهم الملكي بأسماء مناطق يمنية، حيث لقب النجاشي بملك أكسوم وحمير وذى ريدان والحبشة وسبأ وصلح وتهامة والبجاء وكسو (١).

وغزو الأحباش الأول لليمن فى رأى كثير من الباحثين لم يكن مرده دينياً لنشر المسيحية باليمن، إذ الأحباش لم يعتنقوا المسيحية إلا بعد زمن هذا الغزو، وإنما مرده حسب الدكتور جواد على لعوامل اقتصادية، إذ كان رد فعل لسيطرة الحميريين فى القرن الأول الميلادى على ساحل أزانيا أو لسبب تأديب الحميريين بسبب تجرؤهم على مهاجمة التجارة الحبشية (٢).

لم يطل أمر الاحتلال الحبشي الأول لليمن، إذ فى عهد الملك الأكسومي عيزانا حدثت قلاقل وثوارت داخلية ضده فى مملكته، فاستغل أهل اليمن ذلك فطردوا الأحباش بين عامى ٣٧٠ _ ٣٧٨ (٣)

مرحلة ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم طوراً وتهامة

يعد أبو كرب أسعد بن ملككرب يهأمن أشهر ملوك اليمن بعد طرد الأحباش؛ إذ تخلف عن عهده دوى قوى، فقد وجد فى نقش يرجع تاريخه إلى سنة ٣٧٨م أن هذا الملك مع ابنيه أمر بإقامة معبدا للإله ذى سماوى (٤) [نسموى] كما تردد ضده فى روايات الأخباريين العرب الذين عرفوه بأسماء مختلفة منها "تبع" واعتقد بعضهم أنه الوارد ذكره بالقرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم اهلكناهم انهم كانوا مجرمين﴾ (٥) .

ومنها أيضاً أسعد الكامل، ونسبوا إليه فتوحات معينة، ورووا أنه "تهود وطلب من قومه الدخول فى اليهودية" (٦).

---

(١) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص ١٤٨

(٢) جواد على، المرجع السابق، ص ١٢٠ .

(٣) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص١٢٢ .

(٤) عن هذا الإله راجع ما سبق ذكره بالصفحة رقم ٥٢ من هذه الدراسة.

(٥) سورة الدخان، الآية ٣٧.

(٦) عبيد بن شرية الجرهمي، المرجع السابق، ص ٤٢٩ الهمذاني، المرجع السابق، ص ٥٧، ٢٢٥، جواد على، المرجع السابق، ص ٥٦٩ .

وفى عهد أبى كرب أسعد أضيفت عبارة "وأعرابهم طورم وتهمتم" إلى اللقب الملكى دلالة على ضم التهائم والهضاب الممتدة خلفها والضاربة فى قلب الحجاز إلى حكم ذلك الملك، وإخضاع القبائل التى كانت تقيم فيها، وهذا فى نفس الوقت تطهير التهائم نهائيا من أى نفوذ حبشى كان قد بقى هناك حتى عهد أبى كرب أسعد أو عهد أبيه [١] .

وبعد ذلك بحوالى عشرين عاماً نجد شرحبيل يعفر بن أبى كرب أسعد على العرش، ويدل أحد النقوش العائدة لعهده أن سد مأرب تعرض للتصدع، هو الثالث فيما ذكرت النقوش المعروفة، فأمر شرحبيل بإصلاحه، ولكن لم يلبث أن تصدع مرة أخرى فى العام التالى٥٦٥ بالتقويم الحميرى ٤٥٠ ـ ٤٥١م، وأدى إلى فرار جماعات كبيرة من السكان المحيطين به، فسخر الملك عشرين ألفاً من رجال حمير وحضرموت للقيام بإنشائه وإعادة ترميمه، وذكر النص كميات الطعام وأنواعه المختلفة التى استهلكها ذلك العدد الكبير من العمال المسخرين [٢] .

آخر ملوك هذه المرحلة الملك معد كرب يعفر ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم طوراً وتهامة، والذى يبدو انه آخر من تحلى بذلك اللقب الملكى الطويل.

تتابع بعد ذلك عدد من الملوك تنتهى قائمتهم بالملك ذى نواس آخر ملوك حمير الذى شهدت اليمن فى أيامه الغزو الحبشى الثانى.

الغزو الحبشى الثانى لليمن

نمت مملكة أكسوم وازدهرت واعتنق ملوكها المسيحية وصارت حوالى عام ٣٢٠م الدين الرسمى [٣]. فى الوقت نفسه كان المبشرون يعملون بنشاط فى اليمن لدرجة أن تمكنوا من تأسيس كنيسة فى نجران.

قاربت العقيدة بين الأحباش وبيزنطة داعية وحامية نصارى الشرق، والمصادر القديمة تكاد تتفق على أن سبب الغزو الثانى الحبشى لليمن كان بسبب اضطهاد الملك الحميرى المشهور بذى نواس[٤] لنصارى اليمن، فى حين هناك من يرى من الباحثين اليوم أن دوافع تلك الغزوة تكمن فى أن الأحباش كانوا يطمعون فى السيطرة على بلاد اليمن

---

(١) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص١٥١ .

(٢) يرى البعض أن انهيار سد مأرب كان بسبب غزو الأحباش لليمن، بينما يرجعه آخرون إلى ثورة قبائل همذان وانتصارهم أو إلى تحول التجارة من مأرب إلى البحر الأحمر واستئثار الرومان بالسيطرة التجارية البحرية

(٣) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٢١ .

(٤) يسميه بعض الأخباريين العرب ذا نواس بن تبان أسعد ويسميه آخرون بيوسف ذى نواس.

لضمان توزيع البضائع الحبشية [1] دون أن تتعرض للاعتداءات التى كان يمارسها الحميريون.

كما ربط فريق آخر من الباحثين بين وجود نفوذ حبشى فى اليمن استمر إلى ما بعد طرد الأحباش من اليمن عقب غزوهم الأول لها وبين انتشار المسيحية بها [اليمن] الأمر الذى دعا ذا نواس للتصدى له ومحاربته بإجبار النصارى على اعتناق اليهودية بحفر الأخدود لهم، وهو الأمر الذى ورد ذكره بالقرآن الكريم، فى قوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ [2]

وعندئذ وجد نجاشى الحبشة الفرصة مواتية لتحقيق هدفه بفرض سيطرته على اليمن، وورد أن جستنيان الأول الامبراطور البيزنطى وجه رسالة إلى النجاشى كطالب أو إلا أصبحة طالباً منه التدخل لإنقاذ إخوة العقيدة، وأنه أمده بأسطول رومانى شارك فى حمل القوات الحبشية، ويعتقد أن دافع البيزنطيين لهذا العمل فى الغالب لم يكن خالصاً لوجه العقيدة، وإنما كان لرغبة منهم فى حماية مصالحهم الشخصية التي تعرضت للخطر من جراء الموقف العدائى للملوك الحميريين [3].

ويعتقد بعض الباحثين، وذلك استنادا إلى بعض النقوش أن ذا نواس كان معتنقاً اليهودية، وكان يدعى يوسف أشار، وهذه الديانة [اليهودية] قد اعتنقها بعض ملوك حمير وأبناؤهم الذين فروا أمام الغزو الحبشى الأول لبلادهم إلى يثرب بالحجاز التى كانت مركز اليهودية بالجزيرة العربية، الأمر الذى يصفه البعض بأنه صراع دينى ذو خلفية سياسية قد جرى على أرض اليمن، وأدى إلى تلك الحرب التى يصفها ذلك النقش، والتى كان فيها بعض سكان التهائم ونجران فى الصف المضاد للملك اليهودى يوسف أشار [ذى نواس] وذلك لاعتناقهم المسيحية التى لم يتفق بعد على تاريخ دخولها بالتحديد لليمن [4].

هذا فى حين أن أحدث الآراء تذهب إلى ترجيح أن ذا نواس كان وثنياً ولم يكن يهودياً، وكان يتحامل على النصارى دون اليهود، لأنه ربط بين انتشار المسيحية فى اليمن وبين ازدياد النفوذ البيزنطى والحبشى فى بلاده، وكان العدد الأعظم من الحميريين وثنيين، وقد عارضوا الراهب الذى أرسل للتبشير فى بلاد اليمن، أما النصارى الحميريون فقد

---

(١) عبد العزيز سالم السابق، ص ١٢٤ .

(٢) سورة البروج، آية من ٤ إلى ٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٢٦ .

(٤) عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربى، القاهرة، ص ٤٨ وما بعدها

كانوا ـ وفقا للرواية الحبشية ـ يرسلون بهداياهم إلى النجاشي ويدفعون إليه الضرائب، وكان من الطبيعي لذلك ألا يسكت ملك حمير على هذا التدخل، ونستنتج مما جاء في القرآن الكريم خاص بأصحاب الأخدود أن ذا نواس دعا أهل نجران النصارى إلى الرجوع إلى الوثنية لا إلى اليهودية، لأن النصرانية واليهودية المعاصرتين لنزول القرآن الكريم كانتا ديانتين سماويتين لا مجال لتفضيل إحداهما على الأخرى، ولا شك أن أصحاب الأخدود كانوا وثنيين لم ينقموا من أهل نجران إلا لأنهم كانوا يؤمنون بالله، ويتضح ذلك في قوله تعالى :

﴿وما نقموا إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد﴾ (١) .

وقد زار فلبي وادى نجران وعثر فيه على خرائب أثرية قديمة، ويعتقد فلبى أن الخرائب الموجودة حالياً فى بلدة دقمت بنجران هى آثار الأخدود الذى احتفره ذو نواس(٢) .

يبدو أن الحرب بين ذى نواس ونصارى اليمن مرت بمراحل متعددة، واستغرقت وقتاً ليس بالقصير حتى تمكن الأحباش في النهاية من قتل الملك الحميرى (٥٢٥ ـ ٥٣١م).

وحتى بعد ذلك لم يفكر الأحباش، فيما يظهر، بأن يحكموا اليمن حكماً مباشراً وإنما حاولوا أن ينصبوا من بين أبنائها ملكاً يضمنون ولاءه لهم، وفى هذا المجال يحدثنا بركوبيوس عن ملك من نصارى حمير ولاه الأحباش على اليمن ويسميه ايميافس [سميفع] ويقول: إن الأحباش الذين بقوا فى اليمن خلعوه، وولوا بدلاً عنه عبداً نصرانياً اسمه إبراهام [أبرهة ـ إبراموس]. (٣)

ورغم الثورات الداخلية والضغوط الخارجية فإن أبرهة استطاع فيما يبدو، أن يدير دفة الحكم بيد ثابتة وأن يكتسب صيتاً ذائعاً بين العرب الذين كانوا يكنونه بأبى يكسوم (٤).

---

(١) سورة البروج الآية ٩ .

(٢) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٢٧ .

(٣) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص١٥٦ .

(٤) من ذلك مثلاً ما ورد فى شعر المخبل المعدى الذى قال فيه :

ويوم أبى يكسوم والناس حضر ... على حلبان إذ تقضى مجاوله

طوينا لهم باب الحصين ودونه ... عزيز يمشى بالحراب مقاوله

للمزيد عن ذلك انظر: جواد على، المرجع السابق، ص ٤٩٧ .

اليمن خلال حكم أبرهة

استمر أبرهة الذى يعرف أيضا بالأشرم يحكم اليمن حوالى نصف قرن من الزمن [٥٣٠ ـ ٥٧٥م]، ومن أهم الأعمال المنسوبة إليه خلال تلك المدة أنه أولى عناية بأعمال الرى والزراعة حيث قام بإجراء ترميمات لسد مأرب، وأنه احتفل بذلك فى مهرجان استقبل فيه المهنئين الذين حضروا إليه في مارب من نجاشى الحبشة، ومن قيصر بيزنطة، ومن كسري فارس، ومن ملك الحيرة، ومن الحارث بن جبلة ملك الغساسنة [١].

ويعتقد أن حضور وفد من النجاشى يدل على استقلال أبرهة بحكم البلاد وإدارتها، كما يشير استقبال أبرهة لوفود بيزنطة وكسرى فارس على التقارب الذى أوجدته العقيدة المسيحية بينهم سواء فى بيزنطة أو فارس أو اليمن [٢].

ويفسر الدكتور جواد على المغزى الذى يمكن أن يعبر عنه قدوم هؤلاء الرسل إلى عاصمة سبأ القديمة بالصراع القائم بين الروم والفرس من أجل ضم اليمن إلى جانب هؤلاء أو أولئك، فيقول: ولم يكن مجىء هؤلاء المبعوثين إلى أبرهة لمجرد التهنئة أو التسلية أو المجاملة أو ما شاكل ذلك من كلمات مكتوبة فى معجمات السياسة، لكن كانت لأمور أخرى أبعد من هذه وأهم، هى جر أبرهة إلى هذا المعسكر أو ذلك، وترجيح كفة على أخرى، وخنق التجارة فى البحر الأحمر، أو توسيعها، ومن وراء ذلك إما نكبة تحل بمؤسسات الروم وتجاراتهم، وإما ربح وافر يصيبهم لا يقدر، لقد كان العالم إذ ذاك كما هو الآن، جبهتين: جبهة غربية، وجبهة أخرى شرقية : الروم والفرس، ولكل طبالون ومزمرون من الممالك الصغيرة والمشيخات يطبلون ويزمرون ويرضون أو يغضبون، ويثيبون أو يعاقبون إرضاء للجبهة التى هم فيها، وزلفى إليها وتقرباً، لقد سخر الروم كل قواهم السياسية للهيمنة على جزيرة العرب، أو إبعادها عن الفرس، وعن الميالين إليهم على الأقل، وعمل الفرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميل إلى الروم وتؤيد وجهة نظرهم، وعلى منع سفنهم من الدخول إلى البحر الهندى أو الاتحاد مع بلاد العرب[٣].

من الأعمال التى لقيت صيتاً ذائعاً، وقام بها أبرهة باليمن بناء كنيسة فى صنعاء أسماها القليس Ekklessia وذلك فى مجال عمله على نشر الدين المسيحى باليمن، ويذكر ياقوت عن ذلك: أن أبرهة استذل أهل اليمن فى بنيان هذه الكنيسة، وجشمهم فيها

---

(١) عن ملك الحيرة والغساسنة انظر صفحة ١٠٠ وما بعدها من هذه الدراسة .

(٢) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٣٨ .

(٣) جواد على، المرجع السابق، ص ٢٠٤ : عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٣٩.

أنواعاً من السخرة، وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ، وكان فيه بقايا من آثار ملكهم، فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هذه الكنيسة وبهجتها وبهائها، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومقابر من العاج والأبنوس، واستخدم فيها الذهب والفضة والزجاج والفسيفساء وألوان الأصباغ، فلما استتم بنيانه كتب إلى النجاشي: "إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنتهى حتى أصرف إليها حج العرب" [1].

وتعددت الآراء في سبب بنيان أبرهة لهذه الكنيسة، فبعضها يعتنق ما ذهبت إليه الروايات العربية القديمة من أن أبرهة عندما أتم ذلك البنيان وكتب تلك الرسالة للنجاشي، سمع بذلك أحد العرب [2] فحضر ودنس القليس ببعض القاذورات، فوصل خبر ذلك إلى أبرهة فغضب غضباً شديداً وعزم على الانتقام بهدم الكعبة التي يحج إليها العرب، وأمر بإعداد جيش كبير، يتقدمه فيل ضخم أرسله إليه النجاشي، يقال له: محمود، ولعلها تسمية محرفة عن كلمة ماموث Mammouth الفيل الضخم الذي عاش في العصور الجيولوجية.

هذا ومن المعروف من القرآن الكريم أن الفشل كان نصيب حملة أبرهة هذه [3] التي عرفت عند الكتاب العرب بعام الفيل حوالي سنة ٥٤٣م.

ذلك في حين ترى بعض الدراسات الحديثة أن الرواية القائلة بأن أبرهة أراد أن يحول العرب ويصرفهم إلى القليس رواية هزيلة "فإن أبرهة إذا كان قد بنى كنيسة نصرانية في اليمن ليأتيها النصارى، لا يستطيع إجبار المشركين على زيارة الكنيسة النصرانية، وإذا كان قد فعل ذلك فإن نطاق أمره ينحصر في اليمن، وهي البلاد التي يحكمها، ولا يمتد إلى غيرها من المناطق، فمكة إذا لا تغتاض من إنشاء كنيسة نصرانية، لأن مركزها الديني لا علاقة للنصارى به، كما أنه ليس لأبرهة سلطة عليها فضلاً عن أن هناك عدة بيوت مقدسة لم يرد في التاريخ خبر استياء أهل مكة منها، فلماذا تستاء من القليس؟!" [4].

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة قليس، مجلد ٤، ص ٣٩٥ .

(٢) تذكر مصادر تاريخ العرب القديم أنه رجل من النسأة من بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة.

(٣) سورة الفيل، هذا ومن الجدير بالذكران حجارة السجيل يعتقد بعض الباحثين الآن انها حجارة كانت بحجم حبة العدس، ربما كانت تلك الطيور التي قامت برميها قد التقطتها من أماكن موبوءة بالجدري، الأمر الذي ثبت أيضا انه كان قد زامن انتشار ذلك الوباء في القسطنطينية سنة ٥٦٩م.

(٤) صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، الجزء الأول، بغداد ١٩٥٩م، ص ٢٦٠ السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٤٢

وعليه فإن الدكتور جواد على مثلاً يرى أن أبرهة حليف بيزنطة عدوة الفرس قام بهذه الحملة خدمة للروم ومحاولة لضرب الفرس عن طريق الحجاز، ولكنه لم يصل، وأن الكعبة لم تكن هدفه الأول.

وهناك من يعتقد بأن هدف أبرهة كان سياسياً يسعى إلى توحيد القبائل العربية فى شبه الجزيرة لتكون تحت نفوذ البيزنطيين ولاستخدامها ضد الفرس [١] .

وأيا ما كان الدافع من وراء حملة أبرهة فالثابت أنه منى بهزيمة نكراء، وأن مشروعه الذى كان يرمى إليه سواء هدم الكعبة أو مهاجمة فارس أو توحيد القبائل العربية أخفق إخفاقا ذريعاً، وعاد أبرهة إلى اليمن منهزماً وهلك بعد عودته بقليل [٢] .

بعد أبرهة تولى الحكم ابنه يكسوم، لعله هو المعنى باكسوم ذى معاهر فى بعض النقوش[٣] وظل يحكم اليمن نحواً من عشرين سنة أذل خلالها أهل اليمن "فكان شراً من أبيه وأخبث سيرة" [٤] فلما توفى انتقل الملك إلى أخيه مسروق الذى يقول عنه المسعودى : إنه زاد على أبيه وأخيه فى الأذى، فطفح الكيل باليمنيين وعملوا على خلع السيطرة الحبشية عنهم، فتزعم ذلك سيف بن ذى يزن.

سيف بن ذى يزن واستبداله لاستعمار بآخر

سيف بن ذى يزن زعيم وطنى من حمير، ويكنى أبا مرة [٥]، تختلف الروايات فى سيرته وبواعث ثورته، تتلخص فى أن سيفاً قصد الروم بادئ الأمر لينصروه على الأحباش، فلما خاب أمله فيهم لجأ إلى الفرس، فأمده كسرى بقوة تحت قيادة وهرز حملتها السفن ونزلت بساحل حضرموت فى موقع يدعى مثوب، ثم زحفت من هناك إلى أن التقى الجيشان وقتل مسروق وتشتت الأحباش. ودخل وهرز القائد الفارسى صنعاء، ويبدو أن كسرى أنوشروان حسب المصادر العربية القديمة قد اشترط على سيف بن ذى يزن عدة شروط نظير مناصرته منها أن يحمل سيف بن ذى يزن الخراج إليه [٦] .

ولا شك أن محاولة ابن ذى يزن الاستنصار بأعظم قوتين فى العالم فى هذا الوقت،

---

(١) جواد على، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص١٩٧ .

(٢) يعتقد ان ابرهة قد هلك بداء الجدرى الذى كان قد تفشى بين جنود حملته تلك، راجع ما سبق ذكره بالصفحة السابقة من هذه الدراسة .

(٣) صالح احمد العلى: المرجع السابق، ص٢٦٥ .

(٤) ياقوت الحموى، المرجع السابق، ص٣٩٩ .

(٥) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ١٦٨ .

(٦) ياقوت الحموى، المرجع السابق، ص٤٠٠ ، عبد العزيز سالم، المرجع السابق ص ١٤٠ .

واسـتـجـابة الفرس له، تـعبـر عن قيـام منافسة بين الروم والفرس للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى الهند.

"وهكذا لم يفعل سيف بن ذى يزن سوى أن أبدل الأحباش بالفرس، وظلت اليمن أيضاً محتلة" [1].

وتضيف بعض الروايات أن من بقى من الأحباش فى اليمن وثبوا على سيف وقتلوه غيلة، فأرسل كسرى قوة جديدة قضت على التمرد الجيشى وأعادت اليمن لقبضة الفرس حيث توجوا معد يكرب حاكماً للبلاد [2] معه كبار موظفين من الفرس على رأسهم من لقبه العرب بـ "الاصبهبذ" [3] ثم حكمها ولاة منهم [الفرس] حتى مجىء الإسلام، وكان أخرهم هو باذان الذى أسلم وأقره الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على اليمن تحت راية الإسلام.

وبانتهاء الدولة الحميرية باليمن ينتهى أو ينطفئ مشعل الحضارة على المستوى السياسى بالضعف الذى جعل اليمن فريسة لأطماع الرومان والأحباش ثم الفرس، كما انتهت على المستوى الاقتصادى بانهيار السدود كسد مأرب والتى ترتب عليها خراب البلاد وهجرة أهلها خاصة نحو الحجاز والشام حيث أنشأوا ممالك أخرى، تعتبر امتداداً للتاريخ العربى القديم [4].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المسعودى، المرجع السابق، ص٨٢

(٣) جورجى زيدان، المرجع السابق، ص ١٤٦ وما بعدها، جواد على، المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ١٧٨

(٤) من ذلك الغساسنة والمناذرة وكندة.

الفصل الثاني

ملامح الحضارة في بلاد العرب الجنوبية

الملاحة والتجارة البحرية

سد مأرب

القصور

خط عرب الجنوب [المسند]

يكاد يكون من المسلم به أن حضارة اليمن اعتمدت فى ازدهارها على استغلال قدماء اليمنيين لميزات بلادهم الجغرافية، منها أن سواحل اليمن تطل من الغرب على البحر الأحمر ومن الجنوب على البحر العربى، الذى هو جزء من المحيط الهندى، فمكنها ذلك من أن تشغل دور الوسيط التجارى بين الهند والشرق الأقصى وحوض البحر المتوسط، ومنها أيضاً اشتهار اليمن بإنتاج وتجارة البخور واللبان والمر الذى كانت اليمن تنتج أجود أنواعه، والذى كان يدخل فى كثير من الصناعات الحيوية، لعل أقلها عمليات التحنيط عند فراعنة مصر، إضافة إلى استهلاك كميات كبيرة منه فى مختلف المعابد بكثير من البلدان، وقد اقتصرت تجارة البخور على اليمن فقط التى كانت تكاد تكون البلد الوحيد لإنتاجه وإن شاركه فى ذلك الساحل الصومالى الذى اعتبر فى بعض أوقات التاريخ القديم تابعاً لليمن.(١) .

ارتبط ازدهار التجارة عند قدماء اليمنيين بازدهار الزراعة حيث انصرف اليمنيون منذ عهود بعيدة إلى الاهتمام بتعمير الأرض واستصلاحها، فالزراعة كانت هى العمود الفقرى للحياتين الاقتصادية والسياسية للدولة (٢) .

وقد أشاد بذلك الكتاب القدماء فهذا ثيوفراست يتحدث عن طيوب بلاد العرب الشهيرة، فيذكر أشجار الصبر والبخور وطرق زراعتها الشهيرة، كذلك وصف ديودورس الصقلى بلاد سبأ فقال : "تفوح من طول البلاد وعرضها روائح عطر طبيعى، وتنمو على طول الساحل أشجار البخور والصبر الضخمة وأشجار النخيل والكافور وغيرها من الأشجار ذات الروائح العطرية، أما السبئيون فإنهم متفوقون على جميع العرب المجاورين وغيرهم من الشعوب بثرواتهم وبذخهم بنوع خاص" (٣) .

ويذكر استرابون أن السبئيين جمعوا ثروات هائلة من التجارة فى الطيوب، وقد انعكس ذلك فى صناعاتهم وفنونهم، كما انعكس فى حياتهم الاجتماعية والتحف الرائعة التى تزخر بها قصورهم التى بالغوا فى تزيينها.

وقد أكد بلينوس ما سبق قوله، وأضاف اليه أن قارن بين أمانة العرب الموكلين بمحصول اللبان فى بلادهم، وبين الخوف الشديد من العمال فى مخازن تلك البضاعة فى الإسكندرية.

---

(١) عن علاقة اليمن بالساحل الصومالى راجع ما سبق ذكره .

(٢) لويس دوبو كناكس، الحياة العامة للدول العربية الجنوبية، ترجمة فؤاد حسنين على ، القاهرة، ١٩٥٨م، ص١٢٢.

(٣) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص٩٠

ويخرج بافقيه بعد مناقشة طويلة فيما يتعلق بتجارة العطور بالنتائج التالية:

١ـ إن تجارة البخور كانت ترتبط فى أذهان سكان العالم القديم بالعرب؛ لأنهم كانوا وحدهم الذين يحملون أصنافه إلى شواطئ البحر المتوسط.

٢ـ إن أهمية تلك التجارة وعلاقتها بازدهار حياة العرب جعلتهم يسنون القوانين الكفيلة بحمايتها من العبث والتخريب، بل والتهريب وأنهم اعتمدوا أيضاً على المعتقدات الدينية لضمان تلك الحماية حيثما كان تطبيق القانون مستحيلاً.

٣ـ إن العرب كانوا حريصين على كتمان أسرار تلك التجارة المربحة التى كانوا يحتكرونها، وأنهم إذا أحرجوا بالسؤال تعمدوا الغموض والإبهام فى إجاباتهم.

٤ـ إن الإقبال على تلك السلعة كان كبيراً لارتباطها الوثيق بالطقوس الدينية [الوثنية] فى المعابد.

٥ـ إن أبناء الامبراطورية الرومانية أصبحوا ـ أيام بلينوس ـ يتألمون لاضطرارهم الى دفع المبالغ الطائلة للحصول على تلك البضاعة من السلع الشرقية التى تتحدث عنها الكتب الكلاسيكية، والتى يزعم بلينوس أنها كلفت خزانة الامبراطورية مائة مليون من الدنانير سنوياً [١] .

إضافة للبخور والعطور، عرفت اليمن قديماً بتوافر المعادن الثمينة بها كالذهب والفضة والرصاص والحديد، وبتوافر الأحجار الكريمة كالعقيق والجزع واللؤلؤ، كما عرفت بالعنبر ودم الأخوين، كما شاعت فيها بعض الصناعات كالغزل والنسيج وصباغتها [٢] .

كانت منتجات اليمن تنقل بمختلف أنواعها من مناطق إنتاجها بواسطة قوافل من الإبل إلى موانئ التصدير البحرى.

---

(١) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص ١٧٤.

(٢) وهب بن منبه، المرجع السابق، ص٣٠٤، الطبرى، المرجع السابق، ص٩٤٧، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٩١ وما بعدها.

الملاحــــة والتجارة البحريــة

رغم غياب الأدلة التي تؤكد قيام نشاط بحرى لليمنيين فى الأزمان الموغلة في القدم [1]، إلا أن هناك من القرائن ما يشير إلى قيامهم بذلك في القرن السادس قبل الميلاد، حيث كانت كل من عدن وقنا معروفتان لدى سكان المناطق الشمالية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، ومنذ ذلك الوقت أو قبله كانت الهجرات اليمنية قد بدأت تنطلق نحو أفريقيا، حيث استوطن بعضهم الحبشة [حبشت] وانتشر آخرون منهم تحت الراية الأوسانية[2] في الأجزاء الجنوبية.

وبعد أن كانت رحلات اليمنيين البحرية فى أول أمرها تغلب عليها صفة الاستطلاع، فإنها بمضى الوقت أصبحت مزدهرة فنقل اليمنيون البضائع بين مصر وبعض أجزاء أفريقيا الشمالية الأخرى وإلى فلسطين، وبعد أن كانت تجارتهم البحرية محصورة فى الأجزاء الجنوبية من البحر الأحمر وفى البحر العربى والخليج العربى، كما أنهم انتقلوا بها إلى موانيهم الجنوبية ثم إلى الشمال بواسطة القوافل التى كان الجمل يمثل دور مهم فيها.

لم يتأثر النشاط التجارى البحرى اليمني بتوسع امبراطورية الفرس الأخمينيين، ولا بفتوحات الإسكندر المقدونى لأرجاء العالم القديم، وحتى عندما اقتسم خلفاء الإسكندر المقدونى تركته، واستحوذ السلوقيون على بلاد ما بين النهرين، والبطالمة على مصر وقورـ ينائية بليبيا، ودفعت المنافسة الفريقين إلى الاهتمام بالتجارة البحرية كل فى ما جاوره من بحار تحيط بالبلاد العربية، السلوقيون في الخليج العربى، والبطالمة فى البحر الأحمر، نجد اجاثر خيدس في القرن الثالث قبل الميلاد يقول :

لا يوجد شعب يضارع السبئيين والجرهائيين فى غناهم فهم وكلاء كل ما يدخل تحت صفة النقل التجارى بين آسيا والغرب.[3]

وفى القرن الثانى قبل الميلاد، ازداد اهتمام البطالمة بالبحر الأحمر، وازدادت معرفتهم بحركة الرياح الموسمية، نجد اليمنيين أفراداً وجاليات ما زالوا يتغلغون تجارياً فى أنحاء

---

(١) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص١٧٩.

(٢) عن مملكة اوسان راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٤٣ من هذه الدراسة.

(٣) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٤) من ذلك مثلاً النقش الذى عثر عليه بجزيرة ديلوس ببلاد اليونان وسبق الحديث عنه بالصفحة رقم ٤٨ من هذه الدراسة .

العالم القديم حتى جزر البحر المتوسط[٤] ثم لم تلبث الاضطرابات والحرب الأهلية الرومانية فى أواخر العصر البطلمى أن أثرت على التجارة عامة، ولم تستقر الأحوال إلا باستلام أوغسطس لأمور الامبراطورية الرومانية، فاستعادت التجارة انتعاشها فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد، وهو الوقت الذي شهد محاولة غزو اليمن الفاشلة من قبل الرومان[١] ، واستمر ذلك الانتعاش طيلة القرن الأول للميلاد، وامتد حتى القرن الثانى، واستمر إلى أن بدأت اليمن تعانى ويلات صراع داخلى طويل انتهى بسيطرة الأحباش عليها[٢] .

سد مأرب

ارتبط ازدهار التجارة عند قدماء اليمنيين بازدهار الزراعة حيث انصرف اليمنيون منذ عهود بعيدة إلى الاهتمام بتعمير الأرض واستصلاحها، والمعروف أن الكثير من مناطق اليمن فى الشرق [ظفار] وفى الغرب [جبال اليمن العالية] تهبط عليها الأمطار الموسمية بانتظام وغزارة، وفى كل أنحاء اليمن تنتشر الأودية التى تجرى المياه فى بعضها طوال السنة مثل وادى مأرب، بيجان، مرخة، جردان، ميفعة، دخية، ووادى حضرموت.

وأول ما ينبغى أن نلاحظه هو أن الزراعة فى الأودية اعتمدت ولا تزال أساساً على السيول، وهى المياه المتجمعة عقب هطول الأمطار فى المرتفعات، والتى تنزل متدفقة فى بطون الأودية التى يتجه بعضها نحو البحر ويتجه البعض الآخر نحو الصحراء ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بكميات المياه التى يأتى بها السيل ولا مواعيد حدوثه حتى فى الأماكن التى تكون فيها الأمطار منتظمة، وإنما يختلف ذلك من موسم إلى آخر وفقاً لاختلاف غزارة الأمطار، لهذا فإن نظام الرى التقليدى القديم لم يكن يهدف إلى خزن مياه السيول، وإنما كان يهدف إلى توزيعها بأسرع ما يمكن، والاستفادة منها إلى أقصى مدى ممكن، وهكذا فإن الحواجز التى نرى بقاياها منتشرة فى الأودية إنما تعمل على رفع مستوى مياه السيل لكى تصل إلى الأراضى الزراعية المحيطة بمجرى الوادى، وتكون تلك الحواجز من القوة بحيث تحول السيول العادية إلى القنوات الجانبية، ولها مصارف يفيض منها الماء إذا كان حجم السيل أكبر من المعتاد، فتخفف على الحاجز ضغط اندفاع السيل الكبير، ولكن تلك الحواجز التى يتكون جسمها من التراب، كانت كثيرا ما تتعرض للهدم بفعل السيول الكبيرة الاستثنائية فيعاد بناؤها من جديد، ومع أن تلك الحواجز لم

---

(١) راجع ما سبق ذكره بالصفحة رقم ٥٤ من هذه الدراسة .

(٢) راجع ما سبق ذكره بالصفحة رقم ٥٧ من هذه الدراسة.

تكن تعمل على حجز الماء وحفظه، وإنما تقوم بتوزيعه على التو، فإن كميات الغرين التى يحملها السيل معه من الأعالى تتجمع خلف الحاجز على مر السنين حتى يرتفع مستوى مجرى الوادى خلف ذلك الحاجز ويصبح فى مستوى الأرض الزراعية على جانبيه، وفى هذه الحالة يضطر الناس الى إقامة حاجز جديد فى مكان آخر، على أن هذا لا يحدث إلا فى فترات متباعدة، وهناك قنوات رئيسية تحول المياه من وراء تلك الحواجز وتحملها الى الأراضى الزراعية ثم تتولى توزيعها على الحقول شبكة من الجداول المتداخلة فى الأرض الزراعية، وتظل كل تلك المجارى مفتوحة على الدوام، وبهذه الطريقة فإن السيل الذى يأتى فجأة فى الليل أو فى النهار تتوزع مياهه تلقائياً على المزارع [١] .

وكان مكارب سبأ قد اهتموا منذ القرن السابع قبل الميلاد بالإصلاحات الزراعية، فأنشأوا العديد من السدود لحجز المياه للزراعة التى ازدهرت وعم الخصب والنماء سائر اليمن التى صارت السعيدة دون غيرها من بلاد العرب كما أسماها الرومان، وهكذا لم تكن اليمن مدينة بخصبها ونمائها لأمطار السيول وحدها، بل لجهد أهلها وعملهم فى الأرض وفى تنظيم الرى.

والسدود فى اليمن بلغت المئات عداً حسب روايات الأخباريين العرب [٢] أهمها على الإطلاق سد مأرب [ماريابا Mariaba]، التى تقع إلى الجنوب الشرقى من صنعاء بنحو ٦٠ ميلاً، وقد عرف هذا السد بالعرم ايضاً .

يقوم سد مأرب فى وادى ذنة حيث تتجمع معظم مياه السيول عقب هطول الأمطار، فأقام السبئيون فى عهد المكربين جداراً سميكاً من الحجارة والتراب، يبلغ طوله نحو ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعاً وارتفاعه ١٠ أذرع وغطوه بالصخور الكبيرة من الجانب المواجه للسيل، وجعلوا فى كل طرف من ذلك الجدار [السد] فتحات لتصريف المياه تعرف بالصدف أو الميزاب لرى سطح الجبلين الذين يتوسطهما السد، وواضح من طبيعة مجرى الوادى أنه بعد خروجه من الجبل عبارة عن مجرى محدد منخفض يقسم الأرض الزراعية من حوله إلى قسمين مرتفعين ﴿لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾ [٣] .

ويذكر وهب بن منبه [٤] أنه كان لعمرو مزيقيا تحت السد من الجنات ما لا يحاط به،

---

(١) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) وهب بن منبه، المرجع السابق ، ص ٥٠، سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق ص ٢٨٧ .

(٣) سورة سبأ آية ١٤.

(٤) المرجع السابق ، ص٢٦٢.

حتى كانت المرأة تمشى من بيتها وعلى رأسها مكتل، فلا تصل إلى بيت جارتها إلا وهى تملؤه من كل فاكهة من غير أن تمس منها شيئاً.

ويبدو بوضوح أن الهدف من بناء مثل هذا السد كان رفع مستوى المياه لتصل إلى مستوى أعلى يمكنها من النزول إلى الأراضى الزراعية المرتفعة على الجانبين.

ولابد أن مشاكل كثيرة قد واجهت السبئيين فى الصيانة والحفاظ على صلاحية مثل هذا السد، منها تجمع الطمى فى الحوض القائم خلفه، مما نتج عنه تناقص مستمر فى كمية المياه المتجمعة فيه وفيضان كميات أكثر من فوق جدار السد، وهذا ما يفسر الإضافات المتلاحقة لرفع جدار السد، ويبدو من الترميمات التى تتحدث عنها النقوش أن السد تعرض فى بعض الفترات إلى تهدم جداره الرئيسى، ربما بفعل سيول كبيرة، أكثر من المعتاد ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل﴾ [1].

ويبدو أن الترميمات المتكررة أصبحت نقاط ضعف فى ذلك الجدار الضخم، جعلت أمر صيانته بمضى الوقت عملاً صعباً، حتى أنه تهدم فى عهد الملك شرحبيل يعفر مرتين فى فترات متقاربة، ثم لم يلبث أن تهدم مرة أخرى فى عهد الحاكم الجيشى أبرهة.

وقد ترتب على انهيار سد مأرب أن تحولت الأراضى الزراعية إلى أراضى قفراء الأمر الذى أدى إلى هجرة بعض القبائل العربية من اليمن إلى مشارف الشام كالغساسنة أو إلى العراق كالمناذرة [2].

القصــور

كانت بلاد اليمن فى تاريخها القديم تهتم كثيراً بالناحية المعمارية كانعكاس لازدهار الزراعة والتجارة ولارتقاء الذوق العام بالعمارة والبناء.

ساعد أهل اليمن على ذلك إضافة لتوافر الثروات، جبالها العالية التى كانت تمدهم، إلى جانب الماء اللازم للزراعة، بأحجار البناء المتينة وبأنواع الصخور الممتازة من الرخام والمرمر والجزع [3].

وقد تعددت القصور فى اليمن التى إذا تجمعت فى عدد كبير أطلق عليها اسم محفد، وجمعها محافد، والمسئول عنها يعرف بذى [ذو غمدان، ذو صرواح] وجمعها أذواء، وفى

---

(١) سورة سبأ، آية ١٦ .

(٢) عن الغساسنة والمناذرة انظر الصفحة ١٠٠ وما بعدها من هذه الدراسة .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق ص ٢٧٥ .

حال تجمع عدد من المحافد فى مقاطعة كبيرة تسمى مخلاف، ويتولى شئون المخلاف أمير، يسمى قيل، وجمعها أقيال[1].

وقد أحصى اليعقوبى فى كتاب «البلدان» مخاليف اليمن فوجدها ٨٤ مخلافاً أهمها غمدان، شاكر، تلغم، صرواح، ناعط، سلحين، ظفار، هكر، ضهر، شبام، غيمان، بينون، ريام، براقش، معين، روثان، أرياب، هند، هنيدة، عمران.

ويشبه جواد على تفنن عرب الجنوب فى فن العمارة، وحب استخدام الصخور الملونة فى البناء بحب عرب الشمال للشعر، فيقول: "إذا كان العربى الصحراوى قد عبر عن شعوره وعن خواطره بالشعر بنظمه أبياتاً أو مقاطع أو قصائد... فقد عبر العربى الجنوبى عن مشاعره وخواطره بنوع آخر من الشعر، هو الشعر المادى المتمثل فى البناء وفى النحت والتصوير[2].

ترجع أهمية دراسة العمارة اليمنية القديمة إلى كونها الامتداد الذى استقى منه المعماريون الإسلاميون الأوائل تراثهم، كما تأثر بها اللاحقون منهم أيضا، إذ يعتقد الكثير أن مدينة المنصور المدورة [بغداد] مستوحاة من تخطيط المبانى اليمنية القديمة مما يدعم أصالة عروبتها العريقة.

خط عرب الجنوب [المسند[3]]

تكلم العرب قبل الإسلام، كما هو الحال الآن، باللغة العربية، وبلهجات عربية محلية، وليست لغات مستقلة، مهما اختلفت مفرداتها أو كانت غير معروفة أو غير شائعة. وقد قسم الباحثون والعلماء اللهجات العربية القديمة إلى شمالية تكلمها أهل الشمال، وجنوبية تكلمها أهل الجنوب [اليمن] وقد أطلقوا على اللهجة الجنوبية حين كتابتها اسم الخط المسند، وقد حاول بعضهم أن يربط بين لفظ مسند وشكل الكتابة، فقال: "إن لحضارة جنوب بلاد العرب عقلية تنحو نحو الأعمدة فى عمارة القصور والمعابد والأسوار والسدود والأبواب، ومن أجل ذلك يوجد عندهم ميل شديد لإيجاد حروف على هيئة الأعمدة، أى أن الحروف كلها عبارة عن خطوط تستند إلى أعمدة، وقد تنبه علماء المسلمين إلى شكل هذه الكتابات وأطلقوا عليها لفظ المسند؛ لأن حروفها ترسم على هيئة خطوط مستندة إلى أعمدة".

---

(١) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٩٣، جورجى زيدان، المرجع السابق، ص١١٩.

(٢) جواد على، المرجع السابق، الجزء الثامن ص ٢٦ .

(٣) هذا الموضوع تم تلخيصه عن محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص١٩١

تتكون أبجدية المسند من ٢٩رمزاً للحروف التى تمثل أصوات الحروف العربية الحديثة بزيادة صوت واحد ينطق من مخرج قريب من السين "بلين السين والشين"، ويلاحظ أن نقوش المسند التى وصلت إلينا تمثل مستوى عالياً من الدقة والجمال فى رسم أشكال الرموز، وتمثل فى نفس الوقت أثراً باقياً لثقافة فئة ذات شخصية متميزة وعالية التطور، ولا يعرف أحد إلى اليوم كيف بدأ هذا الخط، والنظريات المتعارفة التى اقترحها العلماء لنشوئه لم تستقر بعد على رأى يمكن الأخذ به.

أقدم نقوش المسند تعود إلى أوائل القرن التاسع قبل الميلاد، مع ملاحظة أن هذا النقش لا يمثل بالضرورة تاريخ بداية استخدام هذا الخط، أما أحدث ما وصل منه للعلماء فيرجع إلى أواخر القرن السادس بعد الميلاد، مع أن هناك ذكر لجماعة من اليمن ظلوا يكتبون بالمسند وهم فى الإسلام، إلا أن هذا الخط أهمل بفعل انتشار الخط العربى الشمالى بعد الإسلام، وبمرور الزمن استعصى فهم المسند، وظل مغلقاً إلى أن جاء المستشرقون فى القرن الماضى، فجاءت محاولات إحياء الخط وكشف نقابه للعيان.

اللهجات التى كتبت بالخط المسند فى اليمن هى السبئية، المعينية، القتبانية والحضروية. أى لهجات الممالك الرئيسية القديمة، أما مملكة أوسان، فإن نقوشها القليلة المعثور عليها لا تمكن من التحدث عن خصائصها اللغوية.

لم يقتصر الخط المسند فى استعماله على أهل اليمن فقط، فهناك نصوص وجدت فى أماكن مختلفة مثل ددان [العلا] وفى مخربش بمصر العليا، وفى جزيرة ديلوس ببلاد اليونان كما وجدت نماذج له بأواسط الجزيرة العربية لوحظ له تأثيراً واضحاً فى أقدم النقوش الحبشية، وإن كانت هذه النقوش من القصر بحيث يصعب إدراك العلاقات اللغوية فيها بصفة قاطعة.

ولسنا بحاجة إلى التأكيد بأن لغة النقوش اليمنية [المسند] إنما هى لهجات عربية وليست لغة أو لغات مستقلة مهما اختلف مفرداتها أو كانت غير معروفة أو غير شائعة فى اللغة الشمالية التى تمثلها أحسن تمثيل لغة القرآن الكريم.

إن ما عثر عليه من نقوش المسند جاء محفوراً على الحجارة وبعض المواد المعدنية كالبرونز أو النحاس، ونقوش قصيرة على الخزف والأختام ويذكر الأخباريون العرب أن أهل اليمن كانوا يكتبون فى عسيب النخل [١] ويسمونه زبراً، وان لم يعثر عليها حتى الآن.

لاحظ الدارسون للنصوص اليمنية القديمة أن محتويات تلك النصوص تكاد تنحصر فى

---

(١) جريد النخل.

مواضيع محددة، وأنها لا تحتوى على مادة شعرية أو أدبية فهى ذات طابع عملى بشكل صارم؛ ذلك لأنها لا تخرج من كونها تشريعات قانونية أو نصب جنائزية أو سجلات معمارية أو تقدمات متعلقة بوفاء بالنذور، والنوع الأخير كثيرا ما احتوى على وصف للحملات العسكرية، كما فى النقوش السبئية، إلا أن مجال الشئون التى تعالجها تلك النصوص ضيق بصورة عامة، كما أنها لا تمدنا بأدلة كافية على القواعد اللغوية؛ لأنها تستخدم صياغة تكاد تكون موحدة فى كل شأن من تلك الشئون المحددة، وقد التزقت صيغة الغائب بصورة تكاد تكون مطلقة.

أما طريقة الكتابة، فتتلخص بأنها تكتب فى الغالب من اليمين إلى الشمال، ويفصل بين كل كلمة وأخرى عمود راسى.

وقد عرف كتاب المسند استعمال الاختصار، كما يشاهد على القطع النقدية حيث يكتفى بالحرف للدلالة على الاسم المقصود، واستعملوا رموزاً شبيهة بالحروف، ولكنها فى رأى العلماء ليس لها دلالة صوتية، وإنما هى رموز دينية، وتأتى عادة فى أول النقش وفى آخره.

ديانة عرب الجنوب

تكاد المعلومات عن ديانة أهل اليمن القديمة تعتمد على ما وصل إلينا من أسماء الآلهة، أما الطقوس الدينية فلا تساعدنا النقوش كثيرا على فهمها وتصورها؛ لأنها جاءت موجزة شحيحة، كما أن الحفريات الأثرية ليست كاملة لتعطى صورة واضحة عن نظام بناء المعابد اليمنية القديمة باستثناء معبد للإله سين فى ظفار بحضرموت ومعبد أو محرم بلقيس بمأرب.

وأول ما تجدر الإشارة إليه أن ديانة اليمن القديمة كانت ديانة فلكية أى آلهة تجسدها أجرام سماوية أهمها ثالوث كوكبى يتكون من الزهرة والشمس والقمر، ولا يستبعد أن وراء الترتيب دلالة معينة خافية علينا الآن لجهلنا بالإحاطة بكافة جوانب هذه الديانة، مع ملاحظة أن هذا الثالوث قد عبد فى الشمال أيضا منذ العصر البابلى.

إضافة لهذا المثلث فى اليمن هناك معبود آخر يسمى إل.

الزهرة عبدها اليمنيون على أساس إله مذكر بعكس أهل الشمال وباسم عثتر أو عشتر وقد أضيف لبعض الأسماء مثل أوسى عثت، لحى عثت، كما أضيف على هذا المعبود أوصاف مختلفة مثل ذى قبض، شرقن، ويعتقد أن الزهرة الوارد ذكره بالقرآن الكريم

بقوله تعالى ﴿النجم الثاقب﴾ [١] .

يأتى فى المحل الثانى إله القمر أو الإله القمر، وتختلف الأسماء الدالة عليه باختلاف القبائل، فهو عند المعينيين والأوسانيين «ود» وعند السبئيين «المقه» وعند القتبانيين «دعم» وعند الحضارمة «سين» وهو الاسم نفسه الذي عبد به في بابل.

أما الإلهة الشمس فهي أقل مرتبة، وقد رمزوا إليها بصفات متعددة مع ملاحظة أنهم يشيرون إليها بصفتها مؤنث تعكس أهل الشمال، وقد سميت عند المعينيين «نكرح»، وعند السبئيين «ذات حميم» و«ذات بعدن» و«ذات غضرن» و«ذات برن» وعند القتبانيين «ذات صحرن» و«ذات رحبن» [٢] .

وقد تسمى بها بعض الأشخاص فعرفوا بعبد شمس، ويذكر أن أول من تسمى به سبأ الأكبر، لأنه أول من عبد الشمس [٣] .

وجدت إشارات تدل على وجود معبود يطلق عليه «إل»، إذ ورد بكثرة فى أسماء الأعلام العربية الجنوبية مثل «يدع إل» و«كرب إل» و«راب إل» و«شرح إل» فاستدل بعض الباحثين بذلك على وجود عقيدة أقرب ما تكون للتوحيد عند عرب الجنوب القدماء[٤] فى حين اعتقد آخرون أن «إل» لفظ مشترك بمعنى إيل اى إله، ويطلق على جميع أسماء القمر ويقابله بعل وهبل عند عرب الشمال [٥] .

هذا وجدير بالذكر أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا طريقهما إلى اليمن قبل ظهور الإسلام.

يلاحظ على ديانة أهل اليمن أن النصب أو التماثيل التى تقام عادة للآلهة مفقودة من ديانة عرب الجنوب، وذلك حسب تفسير البعض لجهلهم بفنون النحت، وإن وجدت فهى رموز بسيطة ذات دلالات دينية أو شعارات خاصة من ذلك مثلاً قرص الشمس والهلال، الذى وجد على بعض المباخر التى كانت تستخدم لحرق البخور، إضافة لصور بعض الحيوانات كرأس ثور بقرنين، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن للثور قرنين يشبهان الهلال، وكالوعل والنسر وهذه يظن أنها شعارات للإله القمر، كما وجدت صور للأفعى التى يعتقد أنها كانت شعاراً دينياً لم يعرف لما يرمز حتى الآن.

---

(١) سورة الطارق، اية ٣ .

(٢) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص.٢٠٠.

(٣) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٤١٠ .

(٤) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص ٢٠٤

(٥) عن هبل انظر الصفحة رقم ١٥٠ من هذه الدراسة

أما فيما يتعلق بالنصوص الدينية من صلوات وأدعية أو أساطير توضح نشأة تلك الديانة، فإنها لم تتوافر حتى الآن، ولعل السبب فى ذلك أن العربى الجنوبى التزم فى كتاباته بالإيجاز فى كل ما دونه، والقليل النادر من النصوص الدينية التى عثر عليها منها نص قديم من شبوة على لوح نحاسى محفوظ الآن بالمتحف البريطانى يقول فيه مقدمه : إنه «وهب» «سين» ذهباً وبخوراً ووضع فى دعاية الآلهة روحه وحواسه وأبناءه ومقتنياته وذكر قلبه" [١] .

وعن نظام تخطيط المعابد، فإن ما تم الكشف عنه منها كمعبد أو محرم بلقيس بمأرب يدل على أنه يتكون من أجزاء عديدة تدل على ممارسة طقوس دينية مختلفة يؤديها المتعبدون فيها، ومنها نظام الاغتسال الدينى كما يعتقد أنهم كانوا يمارسون نوعاً من الاعتراف العلنى بالذنوب.

وبخصوص الكهنة فقد ارتبط قيام المعابد بقيام طبقة كهنوتية ذات نفوذ واسع، بل إن المرحلة الأولى من تاريخ اليمن القديم شهدت الجمع بين الصفتين الزمنية والروحية فى أشخاص الحكام، الذين كانوا يدعون بالمكربين [المقربين].

لم يقتصر عمل الكاهن الذى يطلق عليه اسم "رشو" على الأعمال الدينية، إنما هناك ما يدل على تولى بعضهم للأعمال المدنية والعسكرية أيضاً، كما يظهر أن المعابد عرفت نظام العرافة، وأن الناس كانوا يتهافتون عليهم لاستشارة الآلهة عن طريقهم، ويدل على ذلك النقوش التى تتحدث عن تقديم النذور إلى الآلهة وفاء لإنجازها لما وعدت به.

كان الكهنة حجر زاوية فى بناء اقتصاد اليمن فهم إلى جانب امتلاكهم للأراضى الشاسعة باسم المعبد كان الكهنة أيضا يشرفون على تأجيرها للمزارعين مقابل عشر الحاصلات فى الغالب [١] .

أما القرابين التى كانت تقدم للآلهة فى مختلف المناسبات، فكانت عبارة عن قرابين دموية يسفك فيها دم حيوان؛ إذ لم تتوفر الأدلة على التضحية بالبشر، كما كانت عبارة عن حرق البخور، وهو الأمر الذى يؤكده العثور على الكثير من المذابح والعديد من المباخر، كما يعتقد أن صاحب النذر كان يقوم بوضع تمثال له فى معبد ذلك الإله المقدم له النذر.

فيما يتعلق بالمقابر، فقد عرف عرب الجنوب ثلاثة أنواع منها، الأول: نقر أو نحت المقابر بالجبال على هيئة غرف، والثانى: التوابيت الحجرية قائمة الزوايا بغطاء حجرى أيضا،

---

(١) د. يتلف نيلسون، الديانة العربية القديمة، ترجمة فؤاد حسين على، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٢٢٨ .

والثالث: المقابر التى تبنى على سطح الأرض كالتى فى العصر الحديث، وجميعها يسجى فيها الميت على مصاطب ويوضع على القبر شواهد بسيطة فى الغالب ملساء بزوايا قائمة، مربعة أو مستطيلة الشكل، يكتب فى الجهة الأمامية العليا منها اسم المتوفى، أسفله رسم لشكل المتوفى الذى قد يقتصر على رسم العينان فقط.

ومما يوحى باعتقاد عرب الجنوب بالحياة الأخرى أن مدافنهم خاصة الكهفية منها كانت تحتوى على أوانى وما يشبه الأثاث الجنائزى مما يدل على إيمانهم بحياة بعد الموت، يحتاج فيها المتوفى لتلك الأدوات.

بقى أن نشير فى ختام الحديث عن عرب الجنوب إلى أنهم استأنسوا الحيوانات على نطاق واسع، فعرفوا فى مجال النقل استخدام الإبل، كما استخدموا الخيل فى الحروب، ولو أن أعدادها لم تكن كبيرة؛ ونلمس من النقوش مدى الاهتمام بتربيتها ورعايتها والاعتزاز بها؛ ومنها عرفنا الأسماء التى كانوا يطلقونها عليها، كما أطلقوا بعض الأسماء تدليلاً.[1] .

وكان التجهيز للقتال يتراوح بين الغزوة القبلية بقيادة قيل وقبائل يساندهم الفرسان أحيانا، والحرب التى يشترك فيها جيش الملك وفرسانه ولا يزال الكثير من المفردات المتعلقة بأنواع الحرب والسلاح تحتاج إلى المزيد من تحقيق ودراسة النقوش اليمنية القديمة.

ومن الناحية الاجتماعية ظلت العلاقات مزيجا من النظام الإقطاعى والعشائرى، فإلى جانب الملك كان هناك الأقيال، وهم طبقة اجتماعية إقطاعية، وليسوا موظفين فى حكومة الملك، أما المناصب السيادية المعروفة، فأشهرهم منصب المقتوى الذى يعمل فى خدمة الملك، وهناك من بين الأقيال من كان مقتوياً فى نفس الوقت، كما كان لبعض الأقيال مقتوون يعملون فى خدمتهم.

ولقد كان هناك أبناء القبائل الأحرار، كما كان هناك العبيد إضافة لطبقة الكهنة التى سبق الإشارة إليها[2] .

---

(١) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢) راجع ما سبق ذكره بالصفحة رقم٧٩ من هذه الدراسة.

البَابُ الثَّالِثُ

الحضارة فى شمال شبه جزيرة العرب

الفصل الأول

الأنبـــــاط

الأنبـــاط

الأنباط أو النبط الذين يرجع نسبهم بعض الأخباريين العرب إلى نبيط بن ماش [١] أو إلى نبطو استنادا إلى بعض نقوشهم[٢] هم من سكان العراق فى مراحل تاريخهم القديم، ورد ذكرهم فى آثار آشور بنى بعل كما عرفوا عند الإغريق باسم Nabataei فى القرن السادس قبل الميلاد.

تمكن الأنباط بعد مضى فترة زمنية، ونتيجة ظروف، اختلف الباحثون فى تعليلها من تكوين دولة فى الجنوب الشرقى من فلسطين وجنوبى سورية فى منطقة صخرية تحيط بها الرمال فى المنطقة التى عرفها الرومان ببلاد العرب الصخرية Arabia Petraca حيث كانت تقيم دولة الأدوميين، فى المنطقة التى تميزت بأنها جبلية قفراء، شحيحة المياه، كثيرة المرتفعات الصخرية والشعب الوعرة، فتأثر بذلك الأنباط؛ إذ كانوا شديدى المراس، يميلون إلى الغزو، فصعب على الآشوريين أو الفرس أو الإغريق إخضاعهم، فظلوا يحيون أحراراً، معتمدين فى ذلك على مياه السيول التى كانوا يحتفظون بها عن طريق حفرهم فى الصخور لصهاريج، يجعلون لها فوهات ضيقة يستطيعون إحكام سدها بحيث تخفى على الغرباء [٣] ومعتمدين أيضاً على لحوم الإبل والأغنام وألبانها؛ إذ أنهم لم يمارسوا الزراعة فى موطنهم هذا.

عاصمة الأنباط مدينة البتراء، حسب المصادر الإغريقية Petraea أى الصخرة، وهى كذلك عند الرومان Petra، وسميت سلع، سلاع، سالع، فى المصادر العبرانية بينما أطلق عليها الكتاب العرب البتراء أو اسم الرقيم بعد الإسلام، واعتقدوا أنها المدينة التى أقام فيها أهل الكهف الوارد ذكرهم فى القرآن الكريم[٤] .

ويعتقد بعض الباحثين الآن أن تسمية الرقيم تحريف اللاسم الإغريقى Arke الذى كانوا يطلقونه على المدينة إلى جانب تسميتهم لها بالبتراء Petraea وهذه المدينة تعرف اليوم باسم وادى موسى [٥] .

تحكمت دولة الأنباط بفضل موقعها ومناعته فى طرق التجارة بين البحر المتوسط والبحر

---

(١) المسعودى، المرجع السابق ، ص ٢٥، ٢٦.

(٢) جواد على المرجع السابق، ص١٢، ص ٢٦ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٤٠ .

(٤) سورة الكهف، الآيات من ٩ إلى ٢٦ .

(٥) جواد على، المرجع السابق، ص٦٠٤ .

الأحمر وبين بلاد العرب والشام ومصر فى طرق التجارة البحرية والبرية بين الشرق والغرب فى العالم القديم، وقد تعزز ذلك الدور عندما استغلوا الانقسام الذى حدث بين قواد الإسكندر المقدونى بعد وفاته، ومدوا مملكتهم من غزة إلى أيلة، فازدهرت البتراء منذ القرن الرابع قبل الميلاد، وظلت كذلك طيلة أربعة قرون[1] وترتب على ذلك ثراء الأنباط وازدياد ثرواتهم، ودخولهم فى صراع عسكرى مع البطالمة فى مصر حفاظاً على سيطرتهم على تلك الطرق التجارية، كما حاربوا السلوقيين فى بلاد الشام للغرض نفسه، وحين نجح البطالمة فى التحكم والسيطرة على شمالى البحر الأحمر وخليج العقبة بدأ مركز النبطيين فى التضعضع وبدأت مكانتهم فى الضعف.

قائمة ملوك الأنباط: وضعها الباحثون اليوم استنادا لما ذكره بعض مؤرخى الإغريق والرومان وما عثر عليه من نقوش أو نقود، وهذه القائمة يعتريها الشك لوجود فجوات زمنية فى تلك القائمة عارية من المعلومات.

أول ملوك الأنبـاط الحـارث الأول Aretas[2] ١٦٩ ـ ١٦٤ق.م كـان مـعـاصـرا للملك السلوقى انطيوخوس الرابع ملك سورية وبطليموس فليوماتر [المحب لأمه] ملك البطالمة فى الإسكندرية، ويعتقد أن الأنباط خلال عهده قد حاربوا السلوقيين بالتحالف مع جيرانهم فى بيت المقدس.

الحـارث الثـانى : الـذى حـكم فـيـمـا بين ١١٠ ـ ٩٦ ق.م والملقب بلقب ايروتيميوس Erotimus فقد واصلت دولة الأنباط الحفاظ على مكانتها وقوتها فى عهده.

ويعتبر الحارث الثالث ٨٧ ـ٦٢ ق.م من أشهر ملوك الأنباط على الإطلاق؛ إذ يقترن اسمه بفتوحات وانتصارات حققها الأنباط على السلوقيين وجيرانهم اليهود فى فلسطين، لذلك اعتبره كثير من الباحثين المؤسس الحقيقى لدولة الأنباط كما يظن أنه المسئول عن استعارة الطراز الإغريقى فى فن العمارة بما أقامه من منشآت متأثرة بذلك الطراز، كما سك عملة شبيهة بتلك التى قام البطالمة فى الإسكندرية أو السلوقيون بضربها فى دمشق.

وفى الفترة من٦٢ ـ٤٧ ق.م تولى مملكة الأنباط الملك عبادة الثانى Obadas وفى أيام عبادة هذا امتد نفوذ الرومان على الشرق، فاستولوا على أسيا الصغرى وسورية ومصر، وانتزع الرومان فى الشام ما كان الحارث الثالث قد استولى عليه من قبل، ويبدو أن

---

(١) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٦٠ .

(٢) يلاحظ على قائمة ملوك الأنباط تكرار الأسماء بها، فمثلاً الحارث تكرر اربع مرات، وعبادة ثلاث مرات كذلك اسم الملك مالك ثم رب ايل [صاحب الله] الذى تسمى به ملكان.

سياسة الأنباط بعد الحارث الثالث كانت تهدف إلى المحافظة على استقلال مملكتهم وحمايتها من العواصف والأنواء التى أثارها الغزو الرومانى لسورية، فارتبطوا منذ عهد عبادة الثانى مع الرومان برابطة الحلف والولاء[١] فاشتركوا معهم فى حملة أرسلت للإسكندرية، وأخرى ضد الأسرة المكابية فى بيت المقدس، كما اشتركوا فى الحملة التى أرسلها أوغسطس بقيادة اليوس جالوس لغزو اليمن [٢] كما ساهموا فى الحملة التى أرسلها تيتس ضد بيت المقدس سنة ٦٩ ق.م .

هذا وقد عثر الباحثون الأثريون على قطع نقد فضية وبرونزية تعود لعهد الملك النبطى مالك الثانى بن الحارث الرابع، والذى حكم فى الفترة من ٤٠ ـ ٧١ م، وقد نقش على أحد وجهيها رأس مالك الثانى وعلى الأخر رأس شقيلة شقيقته وزوجته فى الوقت ذاته، وهو الأمر الذى يدل على شيوع زواج الإخوة عندهم كما كان عند الفراعنة والفرس والبطالمة.

كانت نهاية دولة الأنباط فى حدود سنة ١٠٦ م عندما أرسل الامبراطور الرومانى تراجان قائده كورنيليوس فقضى على الملك النبطى مالك الثالث Malichus الذى كان قد تولى العهد منذ خمس سنوات تقريباً.

وأدخلت البتراء فى ولاية الرومان العربية Provincia Arabia التى اقامها الرومان لحماية سورية من هجمات البدو [؟] وجعلوا عاصمتها مدينة بصرى التى ورثت البتراء اقتصاديا وسياسياً[٣] .

هذا فى حين يعتنق بعض الباحثين الرأى القائل بأن الملك عبادة الثانى قد شيد لنفسه عاصمة جديدة أطلق عليها اسم أوارا بين أيلة، والبتراء، ربما كانت حيث تقع الحميمة الآن.

ثم أقام الملوك اللاحقون له فى مدينة بصرى مهملين البتراء [٤] ومع ذلك فقد واصلت هذه المدينة [البتراء] ازدهارها فترة من الزمن بعد سقوط دولة الأنباط فأصبحت فى العصر الرومانى، بعد انتشار المسيحية مركزاً أسقفياً، وظلت مأهولة بالسكان حتى بداية العصر الإسلامى.

---

(١) من الدلائل التى تؤكد تحالف الأنباط مع الرومان وربما الخضوع لهم قطعة نقد نقش على أحد وجهيها القائد الرومان سكاوروس وعلى الأخر جمل او ناقة راكعة إلى جانبها يقف عربى ممسكاً بخطامها بإحدى يديه ويمد اليد الأخرى بشجرة عطرية، ربما كانت تمثل الجزية المفروضة على الملك النبطى. للمزيد عن ذلك انظر: جرجى زيدان، المرجع السابق، ص٨٨، عبد العزيز سالم، المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٢) عن تلك الحملة راجع ما سبق ذكره بالصفحة رقم   من هذه الدراسة.

(٣) جواد علي، المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٥٩ وما بعدها.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٠، سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٤٥.

تكلم الأنباط اللغة العربية بلهجة أهل الشمال، والأسماء الشائعة عندهم تشبه الأسماء التي استعملها عرب الجنوب وعرب الشمال في شبه الجزيرة العربية، وكتبوا لغتهم بالخط الآرامي والذي تأثر فيما يتعلق بحروف الشكل وعلامات العلة بالسريانية، ويرى المختصون بتاريخ الكتابة العربية أن الخط الآرامي النبطي تطور عن المسند اليمني وأنه تطور في مرحلة لاحقة إلى شكله الشمالي الذي تمثل في الكتابة القرآنية زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم[1].

من حيث الديانة فقد كان الإله ذو شرا الإله القومي للأنباط ويشبهه البعض بإله الشمس أو إله الخصب بعل، وتمثاله عبارة عن كتلة من الصخر أو عمود صخري.

يليه في المرتبة الثانية زوجته الإلهة الت [اللات] إلهة القمر وأم الآلهة، ثم يليها مجمع آلهة أهمه منوتن [مناة] وهبلو [هبل] وشيع القم أي حامي القوم، وهو الإله الحامي للقوافل، ومنها العزى وقيس وغيرها.

والملاحظ على هذه الآلهة أنها سامية، بعضها عرف عند العرب السابقين للأنباط كما انتقل بعض الآلهة منهم إلى غيرهم من العرب خاصة بالشمال أيضاً أضيفت أسماء بعض الآلهة إلى أسماء الأشخاص عندهم فصارت، مركبة كما ورد ذكر بعض هذه الآلهة بالقرآن الكريم.

اشتغل الأنباط إضافة للتجارة التي كانت موردهم الاقتصادي الأول بالصناعة، خاصة صناعة الأواني الفخارية التي وصلت عندهم إلى مستو رفيع؛ إذ كانت من الدقة والرقة أن صارت في سمك قشرة البيض [2] مزخرفة برسومات دقيقة مطلية باللون الأسود، جيدة الحرق أو الشي، كما عرفوا سك العملة التي عثر عليها من فضة أو برونز وكانت على الطراز الذي ضرب في سورية أو في مصر زمن البطالمة.

يبدو أن المرأة النبطية قد حازت على مكانة مرموقة في مجتمعها؛ إذ وجدت أسماء ملكات في قوائم ملوك الأنباط مثل الملكة خلدو [خالدة] والملكة شقيلة وهما امرأتا الحارث الرابع وشقيلة أيضاً امرأة مالك الثاني ووالدة الملك رب ايل الثاني، والملكة جميلت [جميلة] زوجته [3] وقد خلد الأنباط هذه الملكات والأميرات بضرب صورهن على العملة التي قاموا بسكها ويرى بعض الباحثين أن هذا الإجراء لا يدل على أنهن حكمن فعلا

---

(١) راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٧٥.

(٢) فيليب حتي، المرجع السابق، ص ٤٣١

(٣) جواد علي، المرجع السابق، الجزء السابع، ص ٤٩٤.

المملكة النبطية، وإنما هو إما تكريماً لهن من جانب أزواجهن وأقاربهن أو أنه تقليد لما جرت عليه العادة عند البطالمة والسلوقيين والرومان ليس إلا [١].

جدير بالذكر أيضا أن ملوك الأنباط قد تلقبوا بالألقاب الإغريقية إلى جانب أسمائهم العربية فالحارث الثاني عرف بلقب ايرونيميوس، والحارث الثالث عرف بلقب فيلى هللين [المحب للإغريق]، كما تلقب بلقب باسيليوس [ملك]، والحارث الرابع اشتهر بلقب فليوباتر [المحب لأبيه]، كما حمل الملك رب ايل لقب سوتر أى المخلص أو الرحيم[٢].

اهتم الأنباط بفنون العمارة فشادوا المبانى الضخمة كالقصور والمعابد والأضرحة والمسارح سواءً قاموا بنقرها فى الصخور أو الكهوف الطبيعية أو بنوها بالحجارة، وأهم ما يلاحظ على عمارتهم إضافة لضخامتها كالمبنى المعروف بالدير، والذى يبلغ ارتفاعه حوالى ٤٥ متراً وعرضه ٥٠ متراً تم بناؤها على الطراز الإغريقى خاصة فيما يتعلق بالأعمدة والأسقف والواجهات أو ما يعرف بالبيدمنت، الأمر الذى يجعل الأقرب للاعتقاد أنها شيدت بواسطة إغريق، ومن أمثلة تلك الأبنية إضافة للدير الذى يعود تاريخه للقرن الأول الميلادى، المبنى المعروف باسم الخزنة وقصر بنت الفرعون، وضريح الجرة وضريح القصر وبعض المسارح.

وقد لخص الدكتور فيليب حتى مظاهر حضارة الأنباط بالقول أنها حضارة مركبة فهى عربية فى لغتها، آرامية فى كتابتها، سامية فى ديانتها، إغريقية رومانية فى فنها وهندستها المعمارية، ولكنها مع كل ذلك فهى عربية فى جوهرها[٣].

وهكذا تحول زعماء أنباط القرن الأول قبل الميلاد، من بدو يقدسون الحرية ولا يخضعون للأجنبى، كما وصفهم ديودورس الصقلى، فيكتفون من أسباب المعاش بالقليل من الماء إلى جانب لحوم الإبل والغنم وألبانها، فإذا هاجمهم أجنبى ردوه على أعقابه، فإن لم يكن لهم قبل به، فروا إلى الصحراء، إلى ملوك مرفهين يحملون الألقاب اليونانية وينقشون صور نسائهم على النقود، وهكذا فقدوا قواهم الحربية، مما أدى إلى فقدانهم ما كانوا يستأثرون به من أرباح التجارة أمام منافسيهم الأقوياء من الرومان، وهكذا قدر لدولة البتراء أن تختفى فى ظل الامبراطورية الرومانية وأن يذوب أهلها وسط أخلاط سكان المنطقة من السريان والآراميين وغيرهم [٤].

---

(١) للمرجع نفسه سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٢) المرجع نفسه ص ١٤٨

(٣) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٤٢٦.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق.

الفصل الثاني

التدمريون

التدمـريــون

إن الأساس الجغرافي لتدمر هو عبارة عن نبع مائى قائم عند خانق جبلى على مسافة ١٥٠كم شمال شرق دمشق بسورية. وقد خلق هذا النبع واحة خضراء فى قلب بادية الشام، فصارت مكان استراحة ومحطة تجارية للقوافل بين البحر والفرات، رابضة عند أحد المعابر القليلة التى تجتاز جبال البادية فهى نقطة عبور اضطرارية.

هذا وقد توفرت فى هذا الموقع مياه غزيرة صالحة للشرب، وأخرى كبريتية تنبع من إحدى المغارات، كانت تروى بها أشجار النخيل والزيتون والرومان وبعض أنواع الفواكه وأكثر أنواع الخضروات [١].

أقدم ذكر تاريخى لتدمر ورد فى نقش يعود للملك الآشورى تجلات بيلاسر الأول، على هذه الصورة [تدمر امورو]. كما ذكرت فى رقم طينية عثر عليها بمارى [تل الحريرى]، وبالرغم من ذلك كله لم يعثر خلال الحفريات التى تجرى فى تدمر منذ عام ١٩٢٠م على آثار تلك العهود.

ومن القرن الحادى عشر حتى القرن الأول قبل الميلاد لا يوجد لتدمر ذكر فى أى نص من النصوص المعروفة حتى الآن، اللهم إلا تحريفاً متأخراً لاسم ورد فى التوراة فى محاولة فاشلة لمد حكم سليمان عليه السلام إلى هذه الجهات، الأمر الذى أجمع العلماء على بطلانه سواء منهم المتعصب أو المنصف إذ اعتقد بعض الباحثين تسمية تدمر باسم بالميرا Palmyra والتى غلبت منذ عهد الإسكندر المقدونى، كما اعتقدوا أيضا أن اسم بالميرا ترجمة لكلمة ثامار العبرانية التى تعنى النخلة، وأن ثامار اسم موضع أو بلدة تقع إلى الجنوب الشرقى من يهوذا وفقاً لما ورد فى التوراة [٢] ويذكرون أن ثامار هى البلدة التى بناها سليمان فى جملة المدن التى استخدم الجن فى تأسيسها.

وقد تضمن شعر النابغة الذبيانى هذه النسبة إلى سليمان، فى قوله :

إلا سـليمان إذا قـال الإلـه لـه ... قم فى البرية فاحددها عن الفند

وخيس الجن إنى قد أذنت لهـم ... يبنون تدمـر بالصفاح والعمـد [٣]

ولكن ياقوت الحموى يستبعد نسبة تدمر إلى سليمان عليه السلام ويعلق على ذلك

---

(١) عدنان البنى، الفن التدمرى، دمشق، الطبعة الثانية ١٩٧٠، ص ١١ .

(٢) جواد على. المرجع السابق، ص٧٢.

(٣) ياقوت الحموى، معجم البلدان، مجلد ٢، ص١٧ .

بقوله: إن الناس إذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن[١].

وهناك من أخباري العرب من ينسب بناء تدمر إلى شخصية خرافية هي تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع، التي يرتفع نسبها إلى سام بن نوح كما ذكر بعضهم أن الزباء أو زنوبيا التي سيأتي الحديث عنها هي الزباء ابنة عمرو بن ظرب بن حسان بن أذنية بن السميدع بن هوبر، من أهل بيت عاملة من قبيلة العماليق [٢].

وفي القرن الأول قبل الميلاد وجدت شواهد مادية وأدبية تدل على أن واحة تدمر كانت تضم في هذا الوقت مدينة على شيء من الأهمية قد تعود لقرن أو قرنين قبل ذلك، فقد ذكرها بلينوس ووصفها بأنها مدينة شهيرة، لها موقع ممتاز، ووصف أرضها بالخصب وكثرة الينابيع والعيون[٣] وأنها كانت مركز دولة مستقلة استطاعت أن تحافظ على استقلالها إبان النزاع بين البارثيين [٤] في فارس والسلوقيين في سورية وأن توطد أسسها خلال الفوضى التي أعقبت انهيار حكم السلوقيين والحروب المدنية في روما[٥] حتى عام ٤١ ق.م حين يذكر المؤرخ إبيان أن ماركوس انطونيوس قد أرسل حملة عسكرية ضد التدمريين، أغلب الظن نتج عنها اعتراف تدمر بالتبعية للرومان كما أنه من جهة أخرى هذه الحادثة تأكيد على أن تدمر ظلت محتفظة باستقلالها رغم الفتح الروماني لسورية سنة ٦٣ ق.م.

ومن المرجح أيضا أن تدمر لم تعرف حامية رومانية حتى أواخر القرن الأول الميلادي، فكانت تحمي نفسها بفرسانها ورماتها الشهيرين الذين اشتركوا بزعامة الأمير العربي مالك مع الفرق الرومانية في تهديم هيكل اليهود في القدس [٦].

ثم أدخلت سنة ١٠٦م في الولاية العربية الرومانية Provinicia Arabia عندما قضى تراجان على دولة الأنباط [٧] ويبدو أنه أول من أسس فرقة نظامية تدمرية في الجيش الروماني، وأقام حامية رومانية في تدمر عندما بدأ بمشروعه الذي أراد به إيصال حدود الامبراطورية حتى دجلة والخليج العربي [٨].

---

(١) نفس المرجع.
(٢) المسعودي، المرجع السابق، ص ٩٣.
(٣) جواد علي، المرجع السابق، ص٧٥
(٤) البارثيون The Parthes فرع من قبائل السكيث، استولوا على إيران وتأثروا بمدنيتها بعد انهيار الامبراطورية الأخمينية، وكونوا مملكة قوية حوالي ٢٥٠ ق م إلى ٢٢٨ ميلادي حيث ظهر الساسانيون.
(5) H.Seyrig. Statut de Palmyre, Syria, 1941, P. 80.
(٦) عدنان البني، المرجع السابق، ص ١٥.
(٧) راجع ما سبق ذكره بالصفحة رقم من هذه الدراسة.
(8) H.Seyrig, op.cit. p.86.

منحت تدمر حقوق المواطنة الرومانية [1] عندما زارها هادريان ورفعها الى مستوى المدن الحرة، وسميت هادريان باليرا Hadrian Palmyra أو هادريان بولس[2] Hadrian Polis، وبدأ التدمريون يتخذون منذ هذا الوقت أسماء رومانية تضاف إلى أسمائهم العربية [3] .

ازدهرت تدمر بعد توقف نشاط البتراء الاقتصادى بعد عام ١٠٦م فاصبح لتدمر كل الطرق التجارية فى الشرق. وبلغت خلال القرن الثانى الميلادى أوج ازدهارها الاقتصادى وفاعليتها التجارية تمتد من الشرق الأقصى حتى عالم البحر المتوسط. تتوغل قوافلها التجارية فى الأناضول وتصل بلاد السكيثين فى جنوب روسيا، ولها مراكز تجارية هامة على طول الفرات، وفى امبراطورية البارثيين أنفسهم ومحطاتها على الخليج العربى، هذا بالإضافة إلى أهميتها الاستراتيجية ومكانة فرقها من رماة النبال المشهورين فى كل العالم الرومانى[4] .

ولهذه الفترة [القرن الثانى الميلادى] يعود بناء وتجديد المعابد التدمرية القديمة وتشييد المعابد الجديدة، وأكملت بناء السوق [الاجورا Agora] وبدأت بإنشاء الشارع الطويل cardo الذى يقاطعه شارع مستعرض Decomanus واللذان كانا محفوفين برواق معمد، بلغ عددا أعمدة الشارع الأول ٣٧٥ عموداً، الأمر الذى يؤكد تبنيها للطراز الرومانى فى التخطيط والعمارة.

وانتهز التدمريون فرصة انشغال الدولة الرومانية بصد الغزوات الجرمانية، فأخذوا يوسعون رقعة بلادهم، فاستولوا على دورا أورويس والرصافة ومع ذلك ظلوا على وفاءهم وتبعيتهم للرومان.

من ملوك تدمر المشهورين الملك أذينة بن حيران بن وهب اللات، والذى يرتفع نسبه وفقا للطبرى إلى هوبر العمليقى[5] . وعرف فى المصادر الرومانية باسم سبتميوس اودوناثوس Odaenathus، والذى قام بالتصدى للفرس الساسانيين الذين احتلوا مصاب الدجلة والفرات وحولوا حركتها التجارية لصالحهم وسدت على التدمريين الخليج العربى، فأخذت تدمر تفقد تدريجيا طرقها التجارية وتغادرها تلك الطرق نحو الشمال عبر سهول

---

(١) تشمل حقوق المواطنة التملك والإقامة والشراء والبيع ودخول المحاكم وغيرها.

(٢) قام بالإجراء ذاته مع بعض المدن الليبية واطلق اسمه على إحداها وتعرف الآن باسم دريانة تقع شرقى بنغازى.

(٣) من تلك الألقاب Archontes, Grammateus, Proedros, Dekaprotoi, Syndicus

(٤) جورجى زيدان، المرجع السابق ص٩٩، جواد على، المرجع السابق، ص ٧٨ .

(٥) الطبرى، المجلد ١، قسم ٢، ص ٧٥٦ .

نصيبين والرها إلى أنطاكية، فزحف على الساسانيين مرتين ٢٦٢ ـ ٢٦٧م وبلغ أسوار عاصمتهم "طاق كسرى"، ويعتقد أن الرومان فطنوا إلى ما ينتويه من نوايا توسعية، فتآمروا على قتله، إذ شجعوا ابن أخيه معنيوس بن حيران على قتله وابنه هيرودس سنة ٢٦٧م [١].

كان للملك أذنية من زوجته الثانية زنوبيا أو الزباء ثلاثة صبيان هم وهب اللات، حيران، وتيم اللات، وبعد وفاته آل العرش لابنه الأول الذى عرف بلقبه اثينودورس Athenodorus وكان قاصرا فحكمت والدته زنوبيا أو الزباء وصية عليه.

عرفت هذه الملكة فى المصادر الغربية باسم زنوبيا وباسم بت زباى أو بتزباى باللغة التدمرية [٢] وتبالغ روايات الأخباريين العرب فى الحديث عنها وتنسبها إلى بيت عاملة من العماليق الذين كانوا فى سليح وتحديدا الى عمرو بن ظرب .

وشخصية زنوبيا من شخصيات الشرق الأدنى القديم، وقد بالغت المصادر فى صفاتها فهى سمراء اللون، سوداء العينين، قوية البدن، ذات جمال وهيبة أتقنت اللغة الآرامية، الإغريقية، اللاتينية، إضافة للمصرية الهيروغليفية(؟) كانت حامية للعلوم، تهتم برجال الفكر وتظل الفلسفة برعايتها، أما فى الحكم وتدبير شئون الدولة، فهى تتصف بالحزم والحسم كما كانت تقود الجيش وتركب الخيل وتجالس القواد والأعوان، ولقد تشبهت بالأكاسرة، فعاشت فى القصور واتخذت الحاشية، إذ كان لها مقراً شتوياً وآخر صيفياً، وأحاطت نفسها بالحجاب والوصيفات، كما ضربت باسمها النقود ونقشت عليها صورتها[٣] .

لذلك اتصفت هذه الملكة بشدة الطموح وبالوعى للوضع السياسى فى روما وبالشرق، فأخذت بتوسيع دولتها بوضع يدها على سورية بأكملها ثم احتلت مصر سنة ٢٧١م، وهو الأمر الذى أجبرت روما على الاعتراف به نظير استمرار تبعية زنوبيا لها، وذلك بدليل العثور على قطع نقد ضربت فى الإسكندرية على أحد وجهيها وهب اللات وعلى الآخر اورليانوس.

---

(١) كان الرومان قد كرموا اذنية قبل موته بمنحه لقب قائد عام Dux Orientis وخلعوا عليه لقب امبراطور بلاد الشرق Imperator Totius Orientis ومنحه مجلس الشيوخ الرومانى لقب اوغسطس ثم لقب هو نفسه ملك الملوك. للمزيد عن ذلك انظر: جورجى زيدان، المرجع السابق، ص١٠١ ، جواد على، المرجع السابق، ص١٠٣.

(٢) عدنان البنى، المرجع السابق، ص ١٥ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٥٧ .

كما أخذت أسية الصغرى، ويذكر أنها أنشأت مدينة على الفرات عرفت باسم زنوبيا[1] .

وبعد أن استتب الأمر للامبراطور الرومانى اورليانوس تحرك بسرعة تجاه زنوبيا، خاصة بعد أن تعززت نية زنوبيا لدى الرومان بالاستقلال التام عن روما حين قامت بضرب عملة خالية من نقش اورليانوس وأمرت بنحت تماثيل لزوجها المتوفى وأطلقت عليه لقب ملك الملوك، فأجبرها على إخلاء آسية الصغرى والخروج من مصر ثم اشتبك مع جيوشها، التى تذكر المصادر العربية أنها كونتها من قبائل العرب واليهود فى الشام ومن العماليق فى الحجاز، فى معركتين حاسمتين فى أنطاكية وحمص، تراجعت بعدهما [زنوبيا] إلى تدمر وتحصنت بها بعد أن تخلت عنها القبائل العربية بترهيب الرومان لها أو بالترغيب، وحاصر الرومان تدمر حصاراً شديداً، فلما رأت زنوبيا أنها عاجزة عن الدفاع، قررت أن تذهب بنفسها [2] إلى كسرى الفرس عله ينصرها بجيش يعينها على استرجاع بلادها ودبرت خطة خروجها من تدمر بحيث لا يشعر به الرومان، ونجحت فى الوصول إلى ضفاف الفرات عندما أحاط بها فرسان الرومان، فقبضوا عليها وهى تهم بركوب زورق ينقلها إلى الضفة الشرقية من النهر، وذلك خريف سنة ٢٧٢م وماتت فى الطريق حسب بعض الروايات أو عاشت أسيرة فى روما حسب بعضها الآخر[3] .

ظل التدامرة الذين أدركوا أن معركتهم مع روما معركة حياة أو موت يثورون ويقاتلون الحامية الرومانية مرة بعد أخرى، بل حاولوا تنصيب انطيوخيوس ملكاً عليهم، فانتقم منهم الرومان بتدمير المدينة وإزالة أسوارها .

فقدت مدينة تدمر بعد هذا الحادث عظمتها وأخذت تتوارى منذ ذلك الحين عن المسرح السياسى والحضارى، فلم تعد فى عهد دقلديانوس سوى قرية صغيرة وحصنا أماميا لسورية اقام بها هذا الامبراطور حماماً ومعسكراً ثم أعاد جستنيان تسويرها وزودها بجسر للمياه وذلك حوالى عام ٥٢٧م، [4] ثم اتخذ الغساسنة من تدمر موضعاً شيدوا به قصراً ريفياً وظل حالها كذلك إلى أن فتحها المسلمون سنة ١٢ هجرية، ٦٣٤م [5] .

---

(١) عدنان البنى، المرجع السابق، ص ١٨ .

(٢) تذكر بعض الآراء أن هناك اتصال مسبق أرسلت فيه زنوبيا وفداً لطلب تعاون الفرس معها لم يستجب له الأخيرون.

(٣) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٣٨ .

(٤) عدنان البنى، المرجع السابق، ص ٢٠ .

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٨

الحضارة التدمرية

ازدهرت تدمر بفضل تحكمها منذ القرن الأول الميلادى فى مفترق طرق صحراوية فكانت محطة ومعبر تجارى من البترا إلى عدن وإلى غزة وثغر جرهة على الخليج العربى حيث كانت تحط الأساطيل التجارية القادمة من الهند، كما كانت تؤدى إلى أنطاكية وطرابلس ودمشق، فهى بذلك ربطت السواحل السورية بآسيا والهند؛ لذلك نافست فى مجال التجارة مدينة الإسكندرية، وقد تاجرت فى المنسوجات الحريرية والجواهر واللآلى والطيوب والبخور، كما سيطر التدمريون بعد سقوط دولة الأنباط على الطريق التجارى عبر البحر الأحمر إلى الإسكندرية بمصر عبر البحر الأبيض المتوسط [١] .

جعل الازدهار الاقتصادى الناتج عن مكاسب الضرائب والمكوس على تلك التجارة، من تدمر مدينة كانت من أمهات المدن فى العالم القديم، قامت فيها طبقة ارستقراطية أقامت حكم أقلية [اوليجاركى] وبلغت من الثراء شأوا بعيدا خاصة فى القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث بعد الميلاد بترفها وولعها بالبذخ والأبهة وابتنائها للمعابد الضخمة والقصور الرحيبة والشوارع المروقة أو المعمدة [رواق بأعمدة] وارتادت المسارح ووصلت بتنافسها فى البذخ إلى بناء مقابر ومدافن غاية فى الترف وزخرفت بعناية، وهى لا تستهدف الحياة الأخرى بقدر ما تسعى للتفاخر فى الحياة الدنيا، إضافة لضربهم للعملة ونقش صورهم عليها وإحاطتها بالكتابة.

وعلى الرغم من أن التدمريين كانوا قبائل عربية إلا أن حضارتهم كانت خليطا من عناصر سورية ويونانية ـ رومانية وفارسية.

فاللغة التى تكلم بها التدمريون هى الآرامية كتبوها بخط نبطى، إلى جانب استعمال اللغة الإغريقية، وسبق القول أن زنوبيا تكلمت عدة لغات [٢] .

وفيما يتعلق بالديانة فقد عبدوا الأصنام، وأهم الآلهة عندهم إله الشمس ويليه اللت [اللات] ثم الإله بعل ويرح بول ورحم وأشتر [عشتار] .

من حيث العمارة والتخطيط العمرانى للمدينة وتنظيم باحاتها وشوارعها وحماماتها ومسرحها ومعابدها، فالتأثير الإغريقى الرومانى واضحاً بها، بل هى تكاد تكون متطابقة مع أى مدينة رومانية فى أى مكان من العالم.

---

(١) جواد على، المرجع السابق، ص٧٧ .

(٢) عن زنوبيا انظر : ما سبق ذكره بالصفحة ٩٥ من هذه الدراسة.

وفيما يتعلق بالفن كنحت التماثيل فقد اعتبره بعضهم "فرعاً جامداً متخلفا للفن الإغريقي" وانه كان فناً مشرى جاهزاً من السوق أو باستجلاب الفنانين الإغريق والرومان الذين قاموا بنحت تلك الأعمال فى تدمر، إلا أن الأعمال الفنية التى عثر عليها، وتعود للتدمريين كلها تتجلى بطابع شرقى واضح ذات نسج محلى يعود لأكثر من ألفى عام قبل ذلك "فكان الفن التدمرى محليا متأثرا بالفن البارثى المعاصر فى فارس، والذى نضج فى معين التقاليد البابلية والآشورية والسورية عموماً، كما استقى من الفن اليونانى الذى استشرق، وعلى هذا تجلت فى الفن التدمرى الروح الشرقية كخط عام أساسى"[1].

آثار تدمر اليوم وبعد عمليات التنقيب الأثرى والترميم يمكن مشاهدتها فى مدينة تدمر نفسها وضواحيها القريبة المباشرة فى الجبل الأبيض وجبل المرأة وجبل شاعر وجبل بلعاس ومنطقة القريتين وفى دورا أوريس [صالحته الفرات] وفى متاحف دمشق الوطنى ومتحف السويداء وغيرها من متاحف سوريا[2].

---

(١) عدنان البنى، المرجع السابق، ص٢٥

(٢) أجرت بعثة بولونية حفريات أثرية بالمنطقة منذ سنة ١٩٥٩م بإشراف كازيمير زميخالوفسكى، وأصدرت دورية فى بولونيا منذ عام ١٩٦٦م تسمى Studia Palmyrenskie كما أجرت بعثة فرنسية - أمريكية تنقيبات فى دورا أوريس وقد نشرت أعمالها فى المؤلف

F.Cumont, Fouilles de Doura- Europos,2Vols. Paris. 192.

الفصل الثالث

الغساسنة

الغساسنة

الغساسنة من قبيلة مازن، وهي فرع من قبائل أزد اليمن، نزحوا تحت قيادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقياء [١] إلى بادية الشام قبيل أو بعد حادثة انهيار سد مأرب (سيل العرم) وما نتج عن ذلك من تدهور نظم الزراعة وأعمال الرى فى اليمن.

والدولة التى كونها هؤلاء النازحون على حدود الشام اشتهرت بدولة الغساسنة، كما عرف ملوكها ببنى جفنة، واتخذوا اسم غسان عندما توقفوا فى أرض همذان بتهامة على ماء لبنى زبيد يعرف بغسان فغلب عليهم اسمه، وفى ذلك يقول حسان بن ثابت:

أما سألت فإنا معشر نجب الأزد نسبتنا والماء غسان [٢] .

أما تسمية آل جفنة لأن أول ملوكهم كان يسمى جفنة، وهو ابن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وقد يطلق عليهم اسم آل ثعلبة، وذلك نسبة إلى جدهم ثعلبة بن مازن .

وعندما نزل الغساسنة بالشام كان يسكنها قبائل بنى سليح بن حلوان من قضاعة ممن يعرف رؤساؤهم باسم الفجاعمة، الذين يبدو أنهم كانوا موالين للروم، فخضعوا لهم بدفع الجزية ثم حاربوهم، الأمر الذى أدى إلى الصدام بين الرومان والغساسنة فى عدة مواقع منها وادى الكسوة ويوم حليمة [٣]، وحين تبين للرومان شجاعة الغساسنة فإنهم تحولوا إلى مهادنتهم واستمالتهم واستغلالهم بنفس الطريقة التى استغل بها الفرس إمارة الحيرة على حدود العراق، وقد جعل الرومان من الغساسنة شبه دولة حاضرة امتدت سلطتهم فى آخر عهدهم من جبل الشيخ (الثلج) إلى خليج العقبة (أيلة) وأهم مراكزهم كانت في الجولان وآخر بجلق على نهر بردى قرب دمشق، وبشكل عام إن سلطة بنى جفنة لم تكن تقف عند حدود بعينها فهى كانت مفروضة على كل القبائل الضاربة فى بلاد الشام من شمالها إلى جنوبها والتى كانت ترحل إلى أعماق الصحراء [٤] .

قائمة ملوك الغساسنة التى تصل إلى حوالى ثلاثين أميراً مضطربة بين الكتاب العرب:

---

(١) مزيقياء هذا اللقب فسرته المصادر العربية تفسرين أحدهما ان عمراً لقب به لانه كان يمزق كل يوم من سنى حكمه حلتين لئلا يلبسهما غيره فسمى مزيقياء، والآخر ان عمراً لقب مزيقياء لأن قبيلة الأزد تمزقت على عهده كل ممزق عند هروبهم من السيل العرم، لدرجة أن العرب اتخذت افتراقهم مثلاً فقالت ذهبت بنو فلان ايادى سبأ. للمزيد عن ذلك انظر: الأصفهانى، المرجع السابق، ص ٧٧ .

(٢) المسعودى، المرجع السابق، ص ١٠٧ .

(٣) عن يوم حليمة انظر الصفحة رقم من هذه الدراسة.

(٤) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢١٢، ٢١٣

من أشهرهم الحارث بن جبلة الذي يعرف أيضاً بالحارث بن أبي شمر، اختلفت المصادر العربية في أمه ونسبها وأكدت أنه كان عاملاً للروم زمن الامبراطور البيزنطي جستينان ٥٢٧ ـ ٥٦٥م كما كان معاصراً للملكين من ملوك الفرس هما كسرى قباذ ٤٤٨ ـ ٥٣١م وكسرى أنوشروان ٥٣١ ـ ٥٧٩م.

حارب الحارث بن جبلة، المنذر أمير الحيرة في عدة مواقع وانتصر عليه سنة ٥٢٨م. وقمع ثورة اليهود في فلسطين، وأعترف له الرومان بالزعامة على بعض القبائل العربية كما خعلوا عليه لقب بطريق أوباسيليوس أو فيلاركوس [١] ويعتقد البعض أن هذا الإجراء هدف به الامبراطور البيزنطي إلى جعل الحارث خصماً قوياً في وجه المنذر أمير الحيرة الذي كان موالياً للفرس، وقد اشتبك الحارث بن جبلة مع المنذر بن النعمان ملك الحيرة في عدة مواقع وكانت الحجة الواضحة بينهما الأراضي التي تمتد على جانبي الطريق الحربية من دمشق إلى ما بعد تدمر حتى مدينة سرجيوس فقد ادعى كل منهما أن قبائل العرب الضاربة في هذه الأراضي تخضع لسلطانه، وأنها تدفع له الجزية وعلى هذا النحو قامت الحرب بين الغساسنة وأمراء الحيرة [٢].

قام الحارث الذي كان مسيحيا على المذهب المونوفيزتي بزيارة القسطنطينية، ربما لمناقشة أمر الصراع مع المناذرة حسب بعض الآراء أو للاتفاق مع الامبراطور على من يخلفه [الحارث] في إمارة الغساسنة حسب بعض الآراء الأخرى فاغتنم بطارقة القسطنطينية هذه الفرصة لإثارة المشاعر ضده لتشجيع هذا الأمير العربي لمذهب الموتوفيزتي في بلاده وذلك قبل أن يتوفى سنة ٥٦٩ ـ ٥٧٠م بعد أن حكم حوالي أربعين عاماً.

المنذر بن الحارث، والذي يطلق عليه المنذر الأكبر تمييزاً عن أخيه المنذر الأصغر [٣] والمعروف في المصادر الإغريقية واللاتينية والسريانية باسم Alamundaros أو باسم أبو كرب[٤] تولى إمارة الغساسنة بعد أبيه وعلى عهده زادت حدة الصراع مع إمارة الحيرة التي أرسل إليها جيشاً فانتهبها وأحرقها سنة ٥٧٠م، لذا عرف في بعض

(١) يعتقد بعض الباحثين ان جستنيان منح الحارث بن جبلة لقب بطريق Patricius او لقب فيلاركوس Phylarchos بمعنى شيخ قبيلة او لقب فلاقيوس بمعنى صديق وهي القاب كثيراً ما ينعم بها قياصرة الروم على بعض رعاياهم، ولم يمنح لقب باسيليوس والذي كان يعني ملك لأن حمله كان قاصراً على الأباطرة الرومان دون سواهم.

للمزيد عن ذلك انظر: تيودور نولدكه، أمراء غسان من ال جفنة، تعريب بندلي جوزي وقسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٣م، ص٣.

لمصادر العربية بالمنذر المحرق كما عرف أبناؤه بآل المحرق[1].

كما تميز عهده أيضاً بتوتر العلاقات مع الروم لبعض الوقت والسبب فى ذلك يرجع إلى تعصب المنذر للمذهب المونوفيزتي الأمر الذى أغضب الامبراطور جستين الثانى ٥٦٥ - ٥٧٨م فأوعز إلى أحد عماله بالمنطقة بالقضاء على المنذر الأمر الذى قابله هذا الأخير بشق عصا الطاعة على الرومان حوالى ثلاث سنوات انتهزها أمراء الحيرة، فقاموا بالإغارة على سورية عندها لم يجد الرومان بدًا من استرضاء الغساسنة للوقوف فى وجه هذا التوسع، وتم الصلح بين الروم والغساسنة عند ضريح القديس سرجيوس بالرصافة فى أواخر عهد الامبراطور جستين الثانى.

وفى عهد الامبراطور البيزنطى الجديد تبيرريوس الثانى ٥٧٨ - ٥٨٢م قام المنذر برفقة بعض أبنائه بزيارة القسطنطينية حيث أنعم عليه الامبرطور بالتاج وذلك شتاء سنة ٥٨٠م، ورغم ذلك فإنه مع تجدد الصراع الفارسى البيزنطى عادت الأوضاع للتوتر والتأزم بين المنذر والروم، إذ شك هؤلاء فى إخلاصه لهم واتهموه بالتواطؤ مع الفرس حين وجدوا المعبر (الجسر) الذى أقاموه على الفرات وهم فى طريقهم لغزو فارس محطماً، ولم تنجح محاولة غزو المنذر بمفرده لبلاد فارس وعودته منها بغنائم وفيرة فى إعادته ثقة البيزنطيين به، بل على العكس ربما اعتقدوا فى ذلك التصرف خروجاً عن إرادتهم، ولعلهم استشعروا خطره وقدرته على إعلان التحرر والانفصال عن التبعية لهم، لذا أصدر تبيريوس أوامره بالقبض على المنذر، حيث اقتيد وإحدى نسائه وبعض أولاده أسيراً إلى القسطنطينية بعد حكم استمر١٣عاماً. ثم عندما تولى موريق الامبرطورية البيزنطية أمر بنفيه إلى جزيرة صقلية وذلك حوالى عام ٥٨٢م[2].

حاول أبناء المنذر الثورة على الروم «فتركوا ديارهم وتحصنوا فى البادية واتخذوها مركزاً لشن الغارات على حدود سورية فينهبون ويخربون وتعرضت بصرى لغاراتهم ولم يسع موريق إلا أن يعد حملة لتأديب أبناء المنذر تمكنت بعد سنة من إلقاء القبض على النعمان بن المنذر الذى اقتيد هو الآخر أسيراً إلى القسطنطينية حيث انتهى نهاية غامضة» [3].

بعد ذلك قطع الروم المعونة المالية التى كانوا قد خصصوها للغساسنة فتفرق هؤلاء، وانقسموا فرقا متعددة لكل منها رئيس، انتهى أمرها بالدخول فى خدمة الفرس أو بالارتحال لبلاد الروم أو بالتوطن فى المدن والقرى بالجزيرة والعراق، وبدأت تتطاحن فيما

---

(٢) نولدكه، المرجع السابق، ص ٣١، جواد على، المرجع السابق، ص ١٣٨ .

(٣) المرجع نفسه، ص ٤١٨ .

بينها كما أخذت تغير على المناطق المتحضرة من سورية وتعيث فساداً فى المناطق المعمورة مما دفع بالروم إلى ضرورة إقامة أمير جديد غسانى عليهم [1] كما استغل الظرف نفسه الفرس واحتلوا دمشق سنة ٦١٣م والقدس سنه ٦١٤م.

عند هذا الحد تصمت المصادر الإغريقية والرومانية والسريانية فى حديثها عن الغساسنة، فى حين تستمر المصادر الأخبارية العربية فى تناولهم خاصة فى الشعر. ويفهم من هذه القصائد أن الأمراء االغساسنة بعد المنذر كانوا ضعافاً وأن مدد حكمهم كانت قصيرة.

«... كما أن دخول الفرس لبلاد الشام فى سنة ٦١٣م وما يليها قضى على بقية ملك بنى جفنة، فتفرقوا فى الصحراء وفى بلاد الروم، وأنه لم يتولى فى الفترة من دخولهم الشام في تلك السنة وخروجهم منها أيام هرقل سنة ٦٢٩م أمير غسانى بلاد الشام الجنوبية، ويذكر حسان بن ثابت: أن كسرى الثانى ابرويز قتل أحد امرائهم [3]، وأغلب الظن أن هرقل أسند عمالة سورية إلى أحد أمراء غسان بعد نجاحه فى طرد الفرس من البلاد سنة ٦٢٩م بدليل أن الغساسنة حاربوا المسلمين مراراً فى جانب الروم وأن خالد بن الوليد أوقع بهم فى سنة ٦٣٤م فى مرج الصفر جنوبى دمشق، كما أن جبلة بن الأيهم كان فى وقعة اليرموك فى سنة ٦٣٦م، كذلك تشير المصادر العربية إلى اسم أمير غسانى آخر هو الحارث بن شمر الغسانى أمير مؤتة الذى أرسل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ٦ هجرية، ٦٣٩م شجاع بن وهب ليطلب منه الدخول فى الإسلام، وكان يحمل إليه كتاباً من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقتله، وهو الذى سير إليه الرسول حملة لتأديب الغساسنة بقيادة زيد بن حارثة الكلبى» [2].

أما جبلة بن الأيهم الذى يزعم الأخباريون العرب أنه آخر أمراء الغساسنة فهو الذى أسلم فى عهد الأمير عمر بن الخطاب، ولم يكن قد تشرب الإيمان بعد فحدث أن لطم رجلاً من المسلمين وحين حاولوا القصاص منه هرب إلى الروم حيث اعتنق المسيحية.

---

(١) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٠٨ .

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

(٣) وقد رثاه حسان بن ثابت بقوله :

تناولنى كسرى ببؤسى ودونه	قفاف من الصحان فالمتثلم
ففجعنى لا وفق الله امره	بابيض وهاب قليل التجهم
لتعف مياه الحارثين وقد عف	مياهها من كل حى عرمرم

حضارة الغساسنة

عاش الغساسنة رغم اتصالهم بالروم إذ استخدموهم أداة لمحاربة الفرس ومن ولاهم من القبائل العربية، وحمل بعضهم الألقاب الرومية عاشوا أقرب ما يكون لزعماء أو مشايخ القبائل متنقلين بين أطراف الأراضى التى سيطروا عليها، ولم يعرف لهم عاصمة وإن برزت أسماء لبعض المدن مثل جلق والجابية، لذا وكما رأى نولدكه فأنهم لم يقوموا بتحصين المدن، وإن عرفوا بناء القصور والأبنية العامة كالقناطر والأديرة وغيرها مع الإشارة إلى أن مدينة حرثا الواقعة بالبادية كانوا كثيراً ما يلجأون إليها عندما يتهددهم خطر من الأخطار[1].

الاقتصاد الغسانى، قام، إضافة للمعونة المالية التي كان يتلقاها زعماؤهم من الروم، على الزراعة، خاصة منطقة حوران حيث عمروا القرى والضياع التي عددها بعضهم إلى ثلاثين قرية[2].

أما عن الفن والعمارة، فإنها جاءت متأثرة بالفن البيزنطى وبالفن الساسانى وهى للأخير أقرب منها للأول، كما أنها كانت المنبع الذى استقت منه العمارة الأموية كثير من مظاهرها.

فيما يتعلق بالديانة، وكما سبق القول، فإنهم، على الأخص الأمراء منهم كانوا قد اعتنقوا المسيحية على المذهب المونوفيزيتى[3].

---

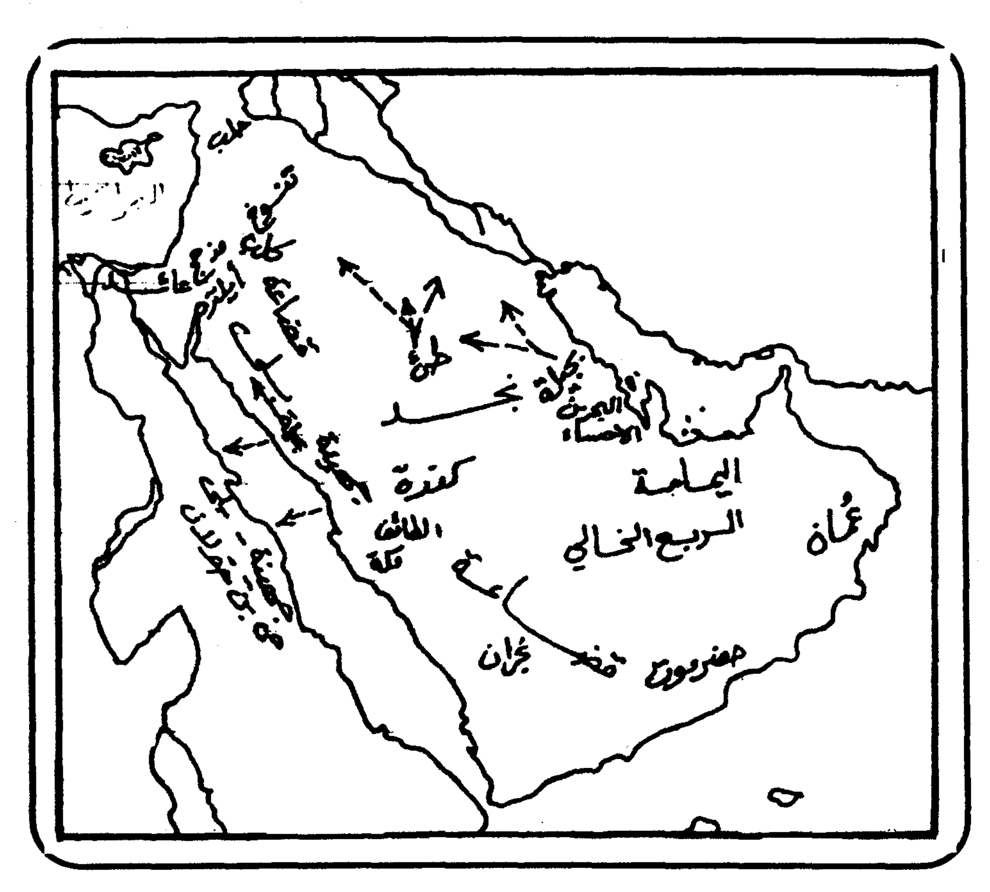
(١) نولدكه، المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) ياقوت الحموى، المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٣) يسمى هذا المذهب ايضاً مذهب اليعقونى نسبة الى مؤسسه يعقوب البرانعى، المتوفى سنة ٥٧٨م، كما يسمى مذهب الطبيعة الواحدة.

الفصل الرابع

المنـــــاذرة



الخريطة رقم (٤) توزيع القبائل القحطانية

المنـــــاذرة

المناذرة الذين عرفوا باللخميين وبآل نصر وبالتنوخيين[1] وكونوا مملكة معاصرة لمملكة الغساسنة عرفت بمملكة الحيرة، هم من القبائل العربية الجنوبية، رحلت عن اليمن على أثر تصدع وانهيار سد مأرب، وقد نزلت بادى ذى بدء فى البحرين حين استقرت وتنوخت، أى تحالفت فيما بينهما، ثم أخذت تتطلع للاستقرار على مشارف الطرق التى كانت تحت سيطرة الفرس، فانتهزت فرصة الحرب الأهلية فى بلاد فارس أواخر الدولة البارثية وتطاحن الملوك فيما بينهم، وهاجرت إلى المنطقة الخصبة بالنجف على الضفة الغربية للفرات حيث الحيرة والأنبار بنحو ثلاثة أميال جنوبى الكوفة.

وقد أحاط الأخباريون العرب سير هذه المرحلة بهالة من الأساطير والخرافات، الأمر الذى جعلها متناقضة مضطربة فيما بينهم، وإن كان من الواضح أن الأنبار والحيرة كانتا مدينتين قديمتين، وأنهما شهدتا ازدهاراً اقتصادياً فى العصر البارثى والسلوقى.

والحيرة التى نسبت إليها هذه المملكة، هناك خلاف كبير فى سبب تسميتها بهذا الاسم فقيل إنه لما صار تبع فى غزوته الثانية وأتى موضع الحيرة تحير، وهو يريد الأنبار فسمى هذا الموضع بالحيرة [2] وقيل إن عابر والد قحطان هو الذى حير الحيرة، أى مدنها، وهذا الرأى أقرب للاعتقاد إذ أنه يتفق مع رأى اللغويين الذين يرون أن أصل الكلمة من الآرامية «حرتا» Herta وحيرتو السريانية، ومعناها المعسكر والحصن وأن حيرتا وحيرة Hira فى التواريخ السريانية التى تعرضت لذكر الغساسنة تقابل كلمة عسكر عند العرب [3].

ينقسم تاريخ مملكة الحيرة بعد إقامة التنوخيين بها قسمين أو مرحلتين، الأولى: مرحلة ملوك التنوخيين، والثانية: مرحلة ملوك المناذرة.

جعل الأخباريون العرب بداية حكم التنوخيين بتولى مالك بن فهم الذى اتخذ من الأنبار

---

(١) سمى المناذرة بهذا الاسم لتكرار اسم المنذريين ملوكهم وباللخميين نسبةً إلى جدهم «لخم» وبالتنوخيين لأن قبائلهم عندما نزل البحرين تنوخت وتحالفت فيما بينها.

(٢) نهب المفسرون مذاهب شتى فى تفسير اسم الحيرة فبالإضافة لما سبق نكره، أضافوا فى رواية للزجاجى أنه لما نزلها مالك بن زهير جعلها حيراً واقطعه فوق فسميت الحيرة بذلك، وقيل من الحائر أى بركة من الماء أو حوض يسبب إليه سيل جاء وسمى بذلك لأن الماء يتحير فيه، وأكثر الناس يسمون الحائر حيراً. انظر للمزيد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٢٤ .

(٣) جواد على، المرجع السابق، جزء ٤، ص ٥، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٢٤ .

منزلاً ثم خلفه أخوه عمرو بن فهم فى رواية [١] وجذيمة بن مالك فى رواية أخرى [٢] وهو المعروف بجذيمة الأبرش أو جذيمة الصباح، لبرص كان به، «فكنت العرب عنه وهابت العرب أن تسميه به وتنسبه إليه إعظاماً له، وذكروا أن جذيمة لم يكن ينادم أحداً وكان يقول: أنا أعظم من أن انادم إلا الفرقدين، فكان يشرب كأساً، ويصب لكل منهما فى الأرض كأساً حتى أتاه مالك وعقيل [٣] بابن أخته عمرو بن عدى وكان قد ضل واستعصى على جذيمة العثور عليه فاتخذهما نديمين له لا يفترق عنهما قط، أما الفرقدان اللذان كان ينادمهما فصنمان صنعهما لما تكهن وسماهما الضيزنين، وكان مكان الضيزنين بالحيرة معروفاً وكان يستقى بهما ويستنصر بهما على العدو» [٤].

كما تنسب إليه الروايات العربية تلك القصة مع الملكة زنوبيا ملكة تدمر التى احتالت عليه ثم قتلته لقتله أبيها عمرو بن ظرب [٥] وبعد مقتل جذيمة تولى أمرهم عمرو بن عدى حسب بعض الروايات [٦] والذى حصن الحيرة، كما أنه يعتبر المؤسس لإمارة اللخميين بها.

المرحلة الثانية: أو فترة الملوك المناذرة والتى اتسمت باتصالهم الوثيق بالفرس بعد أن استتبت أوضاعهم وقضوا على الفتن الداخلية التى تلت انهيار الأسرة البارثية، هذا الاتصال الوثيق جعل بعض أخبارى العرب يربطهم بالفرس، كما فعل الطبرى وابن الأثير وغيرهما[٧].

لذا فقائمة هؤلاء الملوك فى المصادر الأخبارية العربية مضطربة يعتريها الشك فى بعض جوانبها، ومع ذلك يمكن القول بأن هذه القائمة شملت حوالى عشرين اسماً حكموا حوالى مائتى عام، منهم : أشهر ملوكها

امرؤ القيس ٢٨٨ ـ ٣٢٨م، بالغ الأخباريون العرب فى عمره؛ إذ جعلوه ملكاً فقط ١١٤ عاماً، فى حين يعتقد أنه لم يحكم سوى ٣٥ سنة فقط، ويخلطون بينه وبين المنذر

---

(١) الطبرى، المرجع السابق، ص ٤٥٠، ابن الأثير. المرجع السابق، ص ١٩٦.

(٢) هما ابناء فالج وقيل أنهما ابنى فارج بن مالك بن كعب.

(٣) الطبرى، المرجع السابق، ص ٧٥٢، ابن الأثير، المرجع السابق ص ٧٩٧، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٩٥ من هذه الدراسة.

(٦) هو عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مسعود بن مالك بن غنم من نمارة بن لخم، من هنا جاءت تسميتهم باللخميين، وورد ايضاً انه هو من هاجر بهم من اليمن إلى العراق حيث اسكنهم بالحيرة بعد أن راى مناماً افزعه.

(٧) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٢١٦.

وأطلقوا عليه المحرق وعلى بنى نصر آل محرق «ويعتقد الدكتور جواد على أن هذه الصفة لم تطلق على امرئ القيس؛ لأنه أحرق أعداءه، ولكن لهذه الصفة علاقة بصنم يدعى محرق تعبدت له بعض القبائل مثل بكر بن وائل وربيعة، وقد ورد بين أسماء الجاهليين اسم له علاقة بهذا الصنم وهو عبد محرق» [1] .

أكمل هذا الملك تمصير الحيرة والنهوض بها، فلعبت دوراً تاريخياً هاماً إلى جانب الفرس الساسانيين الذين جعلوا منها إمارة حاجزة تحميهم من غارات الأعراب والروم، كذلك استعملوها فى تنفيذ أغراض الفرس وأهدافهم فى تهديد الروم والعرب الموالين لهم.

وقد تمكن امرؤ القيس بمعاونة الفرس من السيطرة على عدد من القبائل العربية وإخضاعها له، وذلك كما يتضح من النقش الذى وجد على قبره، وهو النقش المعروف بنقش النمارة حيث عثر عليه، إذ ورد بهذا النقش[2] أنه أخضع قبيلة أسد، نزار، مذحج ومعد.

النعمان الأول بن امرئ القيس الثانى ٣٩٠ - ٤١٨م :

حظى هذا الملك الذى عرف بالنعمان الأعور أو النعمان السائح بشهرة ذائعة الصيت، فقد وصف بأنه حازم ضابط لملكه، وأنه اجتمع إليه من الأموال والأتباع والرقيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة، وكان من أشد ملوك العرب نكاية بالأعداء وأبعدهم مغاراً وغزا الشام مراراً كثيرة، وأكثر المصائب فى أهلها وسبى وغنم.

وفى عهده شهدت العمارة نشاطاً؛ إذ ينسب إليه بناء قصر السدير وقصر الخورنق الذى يرد أنه شيده مقراً لبهرايم بن ويزدجرد بن بهرام كرمان شاه بن سابور ذى الأكتاف؛ لينمو فى جو الحيرة العليل حيث المياه والنخيل وطيب المناخ حتى قيل «يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة» [3] .

كما ينسب لعهد هذا الملك تفوق الناحية العسكرية لدى المناذرة؛ إذ تم تقسيم الجيش

---

(١) جواد على، المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢) عثر على هذا النقش بجبل حوران بصحراء النمارة، محفوظ الآن بمتحف اللوفر بباريس يتكون من خمسة أسطر، مكتوب باللغة العربية المشوبة بالآرامية وبخط نبطى مرحلة انتقاله للخط الذى استخدم فى صدر الإسلام، وقد قراه الدكتور جواد النحو التالى: هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى تقلد وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج إلى اليوم وقد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدا واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم. توفى سنة ٢٢٣م فى اليوم السابع من [سبتمبر] وفق مكسلول .

(٣) جواد على، المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ١٥٨.

إلى خمس كتائب على النحو التالى :

١ ـ دوسر، وهى من قبيلة تنوخ، وكانت من القوة بحيث ضرب بها العرب المثل فقالوا: «أبطش من دوسر».

٢ ـ الشهباء، وهى من الفرس، ويطلق على هاتين الكتيبيتين اسم القبيلتين.

٣ ـ الرهائن، وكانوا خمسمائة رجل رهائن للقبائل العربية يقيمون على باب الملك سنة، ثم يحل محلهم خمسمائة آخرون فى فصل الربيع.

٤ ـ الصنائع، وهم بنو قيس وبنو تيم اللات أبى ثعلبة وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه.

٥ ـ الوضائع، كانوا ألف رجل من الفرس، يضعهم ملك فارس فى الحيرة نجدة لملك العرب، كانوا يرابطون سنة ثم ينصرفون، ويأتى مكانهم ألف جدد [١] .

كما يعتقد أنه فى عهد هذا الملك [النعمان الأول] تمتع المسيحيون بحرية ممارسة عقيدتهم، بل تحاول بعض الآراء جعله هو نفسه مسيحياً، فزهد فى الدنيا ولبس المسوح وتخلى عن الملك وساح آخر عمره، وربما كان ذلك لكى لا يقع تحت طائلة الفرس المهمينين على شئون الحيرة والمناوئين للمسيحية.

المنذر بن امرئ القيس المعروف بابن ماء السماء ٥١٢ ـ ٥٥٤ :

وماء السماء هو لقب أمه مارية بنت عوف، وقد كنيت بماء السماء لجمالها وحسنها، أما المنذر الذى سبقه حسب حمزة الأصفهانى ملكين آخرين حملا اسم المنذر، المعلومات عنهما شحيحة، فإنه لقب بذى القرنين لاتخاذه ضفيرتين برأسه [٢] .

عاصر المنذر بن ماء السماء من الفرس كسرى قباذ وابنه كسرى أنوشروان، ومن البيزنطين الامبراطور جستنيان، ومن الغساسنة الحارث بن جبلة.

كان المنذر بن امرئ القيس شجاعاً، أغار سنة ٥١٤م على بلاد الروم ووقع فى أسره قائدين منهم [٣] خاطبه الامبراطور البيزنطى فى فك أسرهما، كما يعتقد أنه حاول استمالته لجانب الروم عوضاً عن الفرس، كما حارب الغساسنة مرات عدة كانت فى معظمها بسبب تحصيل الإتاوة من عرب منطقة تدمر التى ادعى كل منهما خضوعها له، وتمكن المنذر فى إحداها من أسر أحد أبناء الحارث بن جبلة فقدمه قرباناً للإلهة الزهراء،

---

(١) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٣١، ٢٣٢.

(٢) الطبرى، المرجع السابق، ص ٩٠٠.

(٣) هما ديمتريوس ويوحنا حسب بعض الآراء، وحسب بعضها الآخر هما جان وتموستران.

وما انفكت تلك الغارات مستمرة إلى أن قتل المنذر بن امرئ القيس نفسه في الواقعة المعروفة بيوم حليمة سنة ٥٥٤م، والذى افتخر به الغساسنة حتى قيل فى أمثالهم «وما يوم حليمة بسر» [١] .

يرد أيضا في سيرة هذا الملك أن علاقته كانت قد ساءت مع الفرس؛ إذ حاول كسرى قباذ إجبار المنذر على اعتناق مذهب مزدك [٢] مما أدى إلى هرب المنذر من الحيرة وأحل الفرس محله الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندى ملكاً على الحيرة[٣]. وظل المنذر سارحاً مدة حكم كسرى قباذ، وعندما تولى كسرى أنوشروان وناهض المزدكية [الزندقة] عاد المنذر إلى مملكته حيث هرب الملك الكندى بماله ونسائه، فتبعهم المنذر بن ماء السماء حتى أسر منهم اثنى عشر أميراً عند دير بنى مرينا حيث أمر بحرقهم [٤] .

ويتناول الدكتور جواد على هذا الموضوع ناقداً ما ذهب إليه الأخباريون بالقول «... فالمنذر رجل كفء ذو شخصية قوية أوقع الرعب فى أرض الروم وأكره القيصر على إرسال وفد لفك قائدين من قواده سقطا أسيرين فى يديه ولإقناعه بالانضمام إليه إن أمكن، أو تأمين جانبه على الأقل، وقباذ رجل لاقى فى ملكه مصائب جمة: طرد من الملك وسجن وأريد إهلاكه، ولكنه هرب من سجنه ونجا، وبعد جهد وتعب وعمل سرى استعاد ملكه وحكم دولة لم تكن قواعد الأمن فيها رصينة ساعة توليه الملك، ثم حارب الروم وحاربه الروم، فرجل مثل هذا الرجل لابد أن يكون قلقاً يخشى منافسة الرجال الأقوياء، فليس بمستبعد إذن أن يكون قباذ قد حسب حساباً لتوسع نفوذ المنذر، ولاحتمال اتصال الروم به لإقناعه بالانضمام إليهم، فلما ظهر الحارث الكندى فى الطريق طامعاً فى ملك المنذر، وفى ملك عرب العراق، لم يجد من مصلحته الدفاع عن المنذر فتركه وشأنه، فتغلب الحارث عليه» [٥] .

ويروى الأخباريون العرب أن المنذر بن ماء السماء هو صاحب النصبين أو القريين الذين أقامهما لنديميه: خالد بن نضلة وعمرو بن مسعود، وأقام بنصبيهما بوابة أمر بمرور كل من ينوى القدوم إليه بالدخول عبرها كما تمادى وأقام فى كل سنة يومين، يوم بؤس أو

---

(١) جواد على، المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٢) مذهب مزدك أو المزدكية نسبة مزدك من مدينة نيسابور بخراسان شرقى فارس، وقد ظهر حوالى سنة ٤٩٨م، ويدعو هذا المذهب إلى عدم التفرقة بين الأعمال الطيبة والأعمال الخبيثة وإلى الإباحية وحرم أكل اللحم وقتل الحيوان.

(٣) عن ملوك كندة انظر ما سيأتى بالصفحة ١٢٢ من هذه الدراسة.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٢٢٣.

(٥) جواد على، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص ٧٠، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

نحس كل من يلقاه فيه من إنسان أو حيوان يلقى حتفه ويطلى بدمه النصبين سابقى الذكر، ويوم نعيم يحسن فيه إلى كل من يلقاه من الناس[1]

ويعتقد أن المنذر قبيل مقتله اعتنق المسيحية وإن كان هذا الأمر محفوف بالشك.

عمرو بن المنذر المعروف بعمرو بن هند ٥٥٤ ـ ٥٦٤م :

هو ابن المنذر بن امرئ القيس، وقد ينسب لأمه هند بنت عمرو بن حجر الكندى، وقد يسمى مضرط الحجارة لشدته وصلابته أو المحرق.

ويذكر عنه أنه قام بغزو الغساسنة زمن الحارث بن جبلة سنة ٥٦٣م وأرسل إليها غزوتين أخريين انتصافاً لإهانة لحقت برسله لدى القسطنطينية سنة ٥٦٦، ٥٦٧م. كما حارب بعض القبائل العربية الأخرى التى امتنعت عن الوقوف معه فى حروبه مع الغساسنة مثل قبائل تغلب وطيئ وتميم.

لقد كانت الحيرة منتدى الشعراء خلال عصر هذا الملك حيث أقام بها طرفة بن العبد، المتلمس بن على والمنخل اليشكرى وامرؤ القيس، ويبدو أن المنذر ووالدته قد تنصرا إذ يذكر أن هند شيدت ديراً عرف بدير هند الكبرى فى الحيرة.

نهاية عمرو بن هند كانت على يدى الشاعر عمرو بن كلثوم[2] .

المنذر بن المنذر ٥٧٩ ـ ٥٨٣م : ويذكر عنه كأحد مظاهر ضعف المنانرة فى أواخر عهدهم، أوصى بعرشه لإياس بن قبيصة الطائى حتى يرى الفرس رأيهم فى أمر تنصيب ملك جديد.

أما النعمان بن المنذر فحكم من ٥٨٣ ـ ٦٠٥م، وهو أكبر أبناء المنذر بن المنذر من زوجته سلمى بنت وائل، خلف عدد من الأبناء والبنات، طمعوا جميعهم فى عرش أبيهم، فعمل هو

(١) يذكر أن المنذر استمر على ذلك التقليد إلى أن صادف فى يوم نحسه الشاعر عبيد بن الأبرص الأسدى وقد جاء ممتدحاً، فلما علم انه لاقى حتفه لامحالة طلب إمهاله سنة ليؤمن معيشة أهله من بعده، وعندما أوفى بعهده سأله المنذر : ما حملك على قتل نفسك أجابه : إن لى ديناً يمنعنى من الغدر، قال : وما دينك؟ قال: النصرانية فأبطل من توه تلك العادة وكان سبب تنصيره وتنصير أهل الحيرة فيما زعموا. للمزيد عن ذلك انظر ياقوت الحموى، المرجع السابق، ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) إذ يذكر أن سبب ذلك كان عندما حاول عمرو بن هند جعل والدة عمرو بن كلثوم «ليلى» تخدم والدته هند، وقد اشار عمرو بن كلثوم إلى هذه الحادثة فى معلقته التى قال فيها :

باى مشيئة عمرو بن هـــند	نكون لقيلــكم فيها قطينا
باى مشيئة عـمرو بن هـــند	تطيع بنا الوشـاة وتزدرينا
تهددنا واوعــدنا رويـــدا	مـتى كـنا لامـك مقتوينـا
وإن قنـاتنا يـا عمرو اعـيت	على الأعــداء قبلك أن تلينـا

الآخر بأن أوصى إياس بن قبيصة الطائى بإدارة الدولة إلى الفرس إلا أنه قتل من قبل الفرس أنفسهم.

زمن هذا الملك الذى حاول غزو بعض القبائل العربية بالبحرين، قام الغساسنة بغزوهم حوالى عام ٦٠٠م.

عبد النعمان الأصنام مثل اللات والعزى، ثم تنصر حسب بعض الآراء، ويرجعون فضل ذلك إلى عدى بن زيد الذى تولى تنشئته [١].

مات هذا الملك عندما رفض طلب كسرى تزويجه بإحدى نساء بيته، فأمر هذا الأخير بأن يرمى تحت أرجل الفيلة، حسب بعض الآراء أو مات بسجنه بساباط.

كان لبناته الأربع هند ـ حرقة ـ حريقة ـ وعنفقير، وكان لبعضهن شأن فى العصر الإسلامى.

من المآثر التى تروى عن النعمان بن المنذر أنه عندما تنصر شيد العديد من الأديرة منها دير اللج أو اللجة. وكان مسيحياً على مذهب النساطرة.

وأنه أحاط نفسه بالعديد من الشعراء كالنابغة الذبيانى والمنخل اليشكرى والأسود بن يعفر وحاتم الطائى، الذين رووا عنه أنه كان سريع الغضب قابلاً للوشايات، لذا كان سرعان ما يتخلص من أتباعه ومحيطيه بالقتل لتصديقه الوشايات.

كما يروى أن بلاطه أضحى يضاهى بلاط كبار الملوك وأنه كان مرهف الحس؛ إذ نسبت إليه شقائق النعمان لأنه عندما وجد بينها الأحمر والأخضر والأصفر طلب حمايتها وعدم الإضرار بها[٢].

نهاية المناذرة : كانت عندما قرر كسرى أبرويز التخلص من المناذرة فعهد بملك الحيرة إلى إياس بن قبيصة الطائى فحكمها تسع سنوات فى رواية الطبرى[٣].

حارب إياس الروم إلى جانب الفرس. ثم احتشدت قبائل بكر بن وائل ومن ولاها من

---

(١) يروى أن سبب ذلك انه خرج ذات يوم راكباً ومعه عدى بن زيد، فوقف بظهر الحيرة على مقابر، فقال له عدى ابن زيد : أبيت اللعن اتدرى ماتقول هذه المقابر ؟ قال : لا. قال : إنها تقول :

أيها الركب المخبـــون ... على الأرض مجـــدون
مثل ما انتـــم حيينا ... وكما نحن تكونـــون

فقال له : أعد، فقال: إنها تقول :

رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
ثم أضحوا لعب الدهر بهم ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٣) الطبرى، المرجع السابق، ص ١٠٣٨.

العرب، واشتبكوا مع الفرس في يوم عرف بيوم ذى قار حدث حوالى سنة ٦١٠م [١]

بعد انتصار العرب فى يوم ذى قار، قررت حكومة فارس أن تحكم الحيرة حكماً مباشراً فعهد بها إلى موظفين من الفرس دون الاستعانة بالعرب حتى أقبل خالد بن الوليد نحو الحيرة وحاصرها . فصالحه أهلها على مائة الف درهم، وعلى أن يكونوا عيوناً للمسلمين على أهل فارس، وأن لا يهدم المسلمون لهم قصراً ولا بيعة، وهكذا افتتحت الحيرة صلحاً، ويبدو أن فروة بن إياس بن قبيصة هو الذى كان يقوم بإدارتها عند الفتح الإسلامى[٢]

حضارة المناذرة

تأثرت الحضارة بالحيرة نتيجة موقعها، بالثقافات الفارسية والسريانية والإغريقية، فانتقلت الآداب والعلوم منها إلى آداب وعلوم العرب، فقد ذاع صيت الحيرة فى الطب خاصة، واستمرت معروفة بذلك طيلة العصر الإسلامى أيضاً.

كما أحاط ملوك الحيرة الشعراء والخطباء برعايتهم فكانت المنتدى الذى تهافتوا عليه وحرصوا خاصة على حضور مهرجان التفاخر[٣] من كل حدب وصوب ، كما تسابقوا للإحاطة بالملوك ليكونوا من خاصتهم.

الحياة الاقتصادية: تعددت مواردها، فقامت على الزراعة والرعى والتجارة والصناعة التى شملت صناعة الغزل والنسيج[٤] وصناعة الأسلحة من سيوف وسهام ونصال الرماح إلى جانب الصناعات الصغرى كصناعة الحلى وأدوات الزينة من الذهب والفضة وتطعيمها بالأحجار الكريمة.

وقد أثرى أهل الحيرة نتيجة لذلك ثراءً عظيما فأقاموا القصور واستقدموا المغنين والمغنيات، واتخذوا فى دورهم نفيس الأثاث والرياش، واستعملوا الآوانى الفضية والذهبية للأكل، وناموا على فرش الحرير فوق الأسرة المجللة بالكلل، واتخذوا الطيوب والبخور فى المجامر قبل النوم، كما كانوا يضمخون ذفاريهم بالمسك والعنبر ويلبسون فاخر الثياب ويشربون القهوة والخمر[٥].

---

(١) عن تفاصيل يوم ذى قار انظر الصفحة ١٥٧ من هذه الدراسة .

(٢) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(٣) كان النعمان بن المنذر قد اقام مهرجاناً ادبياً سنوياً؟ يتفاخر الجميع بالجنس العربى، يذكر ابن الكلبى أنه اقامه رداً على كسرى الذى اقام ببلاطه مهرجاناً معدداً فيه فضائل الأمم ومغمطاً من حق العرب.

(٤) عرفت عند أهل الحيرة ثلاثة انواع من الثياب الثمينة التى كان يخلعها الملوك على الشعراء، وهى جباب المواقعها ذهب فى قضيب الزمرد تسمى أثواب الرضا أو اثواب المرفل.

(٥) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٧٢.

من مظاهر ثراء وتحضر أهل الحيرة: اهتمامهم بالعمارة خاصة عمارة القصور والأديرة والكنائس.

والعمارة فى الحيرة جاءت فى أول عهدها متأثرة بالعمارة والفن الساسانى والبيزنطي، وإن كانت أكثر ميلاً للأول لقرب الجوار، ثم تميزت بطابعها المنفرد الذى ظل شائعاً حتى صدر الإسلام.

«وقد وصفت الحيرة عند الأخباريين بالبياض، فقالوا: الحيرة البيضاء [1] تعبيراً عن حسن عمارتها ووضوح هذا اللون على سائر أبنتيها، كما وصفوها بالامتداد والاتساع فقالوا: الحيرة الروحاء [2] ».

ومن روائع عمارة المناذرة: في القصور، قصر الخورنق، الذى يعتقد أن تسميته فارسية الأصل من خورنكاه، بمعنى موضع الأكل والشرب، وقد بنى بظاهر الحيرة فى عهد النعمان الأول ٣٩٠ ـ ٤١٨م، وينسب بناؤه معمارياً إلى المهندس سنمار، الذى يعتقد أنه أعجمى، وأنه قتل عقب انتهائه من تشييد ذلك القصر، فضربت به العرب المثل فى الجزاء حيث قالوا «جزاءه كجزاء سنمار» [3] .

وقد ظل قصر الخورنق قائماً حتى القرن الثامن الهجرى.

وقصر السدير الذى شيد هو الآخر فى عهد النعمان الأول، وتم تشييده قريباً من الخورنق، وهو الآخر حسب بعض الآراء معرب عن تسمية فارسية تعنى القبة

---

(١) الهمذانى، المرجع السابق، ص ١٨١.

(٢) ياقوت الحموى، المرجع السابق، ص ٣٢٨، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٨٢ .

(٣) نقدت الآراء فى قتل النعمان الأول لسنمار منها انه قتله كى لا يبنى لغيره قصيراً شبيه به، ومنها انه كان على موضع حجرة معينه فى نلك البناء لو سحبت لانهار القصر، فقام بقتله لكى يختفى نلك السر وقيل ايضاً إنه «سنمار» صرح بأنه قادر على بناء أفضل من قصر الخورنق الذى استغرق منه ستين سنة عمل، بحيث يدور مع الشمس، عندما بلغ نلك مسمع النعمان عاقبه على تقصيره وعدم إقامة مثل هذا البناء له بأن القاه من على سطح قصر الخورنق، وفى نلك قالت العرب فى شعر أبو الطمحان القينى :

جــزاء سـنمار جـزاها وربـها ... وبـاللات والـعز جـزاء الكفر

وقال عبد العزى بن امرئ القيس اللكبى :

جزانى جـــزاه اللـــه شـــر جزائـــه ... جزاء ســـنمار ومـــا كـــان ذا ذنـــب

ســـوى رصـــه البنيان عشرين حـجـة ... يــعل عليـــه بالقرامـــيد والســكب

فـــلما راى البنيان تـــم سموقـــه ... وآض كمثل الطود ذى الباذخ الصـــعب

لتسقيفه بثلاث قباب، أو نظراً لكثرة إحاطة النخيل به، فشكل غابة من النخيل أو سوار نخيل، فقالت العرب ما هذا إلا سدير

ذلك بالإضافة إلى عدد أخر كبير من القصور التى أقيمت فى مختلف عهود الملوك المناذرة والتى عددها الأخباريون على النحو التالى:

قصر العذيب، قصر الصنبر، قصر الفرس، القصر الزوراد، قصر الأبيض، قصر مقاتل، قصر أو دار المقطع، قصر العدسيين، قصر بنى بقيلة، قصر بنى مازن، قصر الطين، وقصر أبى الخصيب، أما فيما يتعلق بالأديرة والكنائس، فقد تعددت هى الأخرى، وتعددت مواضعها منذ أن انتشرت المسيحية بالحيرة، ومنها كنيسة الباغوتة، ودير اللج، ودير مارت ويم، الذى ظل قائماً إلى زمن الواثق العباسى، وزاره برفقة إسحق بن إبراهيم الموصلى، ودير هند الكبرى ودير هند الصغرى، ودير الجماجم.

وقد كشفت الحفائر الأثرية التى أجريت بأطلال الحيرة منذ سنة ١٩٣١م برئاسة الأستاذين/ تلنكر ورايس عن آثار بعض تلك العمائر وتبين أنها شيدت باللبن والآجر متأثرة فى بعض جوانبها بالعمارة الساسانية والبيزنطية وتبين أيضا وجود استمرار لأثر بابلى آشورى.

من مفاخر الحيرة أيضاً خلال عهد المناذرة: أنها صارت مهد الكتابة؛ إذ ازدهرت الحياة العلمية ازدهاراً لم يشهده أى جزء عربى آخر قبل الإسلام، فانتشرت بها دور العلم وشاع تعلم الكتابة، وقد اشتق الخط الحيرى من الخط الآرامى، ويعتقد أن عرب الحجاز اقتبسوا الخط الحيرى إلى جانب استعمالهم للخط الكوفى النبطى[١].

وفيما يتعلق بالحياة الاجتماعية فإنه من المعروف أنه خلال عهد الملك عمرو بن عدى كانت الحيرة تتكون من عدة طوائف ظهرت بوضوح أكثر خلال عصور الملوك المتأخرين فصارت على النحو التالى:

طائفة العباد، سكنوا الحيرة وابتنوا بها الدور والقصور، وهم من نصارى العرب من قبائل تميم ولخم والأزد، جمعتهم وحدة الدين، وقد سموا بالعباد؛ لأنه لا يضاف إلا إلى الخالق، أما العبيد فيضاف إلى المخلوق والخالق، وهم اشتهروا بمعرفتهم للقراءة والكتابة.

طائفة الأحلاف، وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة، ولم يكونوا من تنوخ ولا من العباد،

---

(١) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٦٨

فهم قوم من العرب حالفوا المناذرة، واعترفوا بسيادتهم عليهم.

ذلك إلى جانب وجود بقايا من الكلدانيين والآراميين والبابليين والأنباط العراقيين، مع جماعة من اليهود وبعض الفرس الذين كانوا مرسلين كموظفين من قبل كسرى بفارس[١] .

الحياة الدينية للمناذرة: فقد عاشوا أول حياتهم وثنيين يعبدون الأصنام أو صابئة يعبدون الكواكب أو مجوس يعبدون النار، ومنهم من اعتنق اليهودية أو المسيحية، والتي شاعت بمذهبيها، مذهب الطبيعتين أو مذهب اليعاقبة[٢] .

وبخصوص انتشار المزدكية أو الزندقة، فإنها عرفت طريقها لبعض الأفراد خاصة زمن كسرى قباذ، ولكنها لم تلق قبولاً عاه

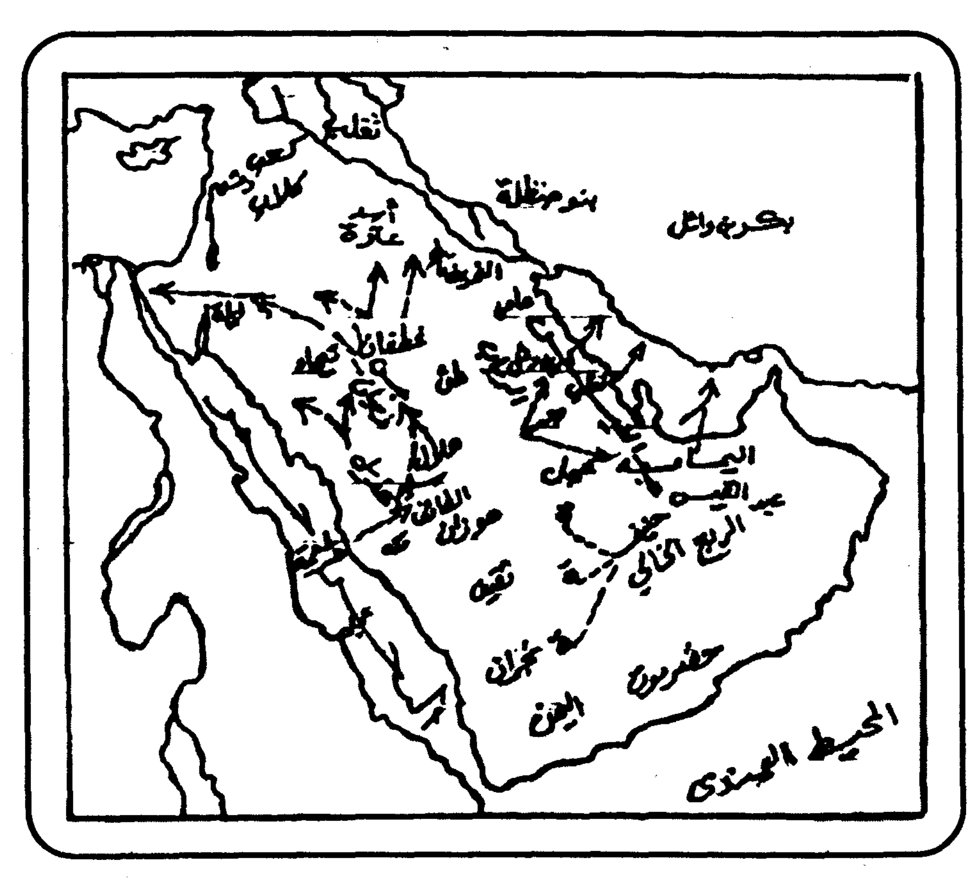
---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٢) راجع ما سبق ذكره بالصفحة ١١٠ هامش «٤» من هذه الدراسة .

الفصل الخامس

كنـــــدة



الخريطة رقم (٥) توزيع القبائل العدنانية

كنـــــدة

إضافة لملكتى الغساسنة والمناذرة، قامت إمارة فى نجد وشمالاً فى أرض معد عرفت بدولة أو إمارة كندة، ونسبت إلى قبائل كندة التى هاجرت هى الأخرى من اليمن حيث كانت لها أرضها التى عرفت بها بين حضرموت ونجران واليمامة.

أما سبب هجرتها إلى أرض معد، فهو الصراع الذى قام بينها وبين قبائل حضر موت الذين تفوقوا على الكنديين وأجلوهم عن البلاد[١] .

شملت قائمة ملوك كندة عدد من الشخصيات، بعضهم لا يعرف عنهم سوى أسمائهم، منهم مرتع بن معاوية بن ثور، ثور بن مرتع، معاوية بن ثور، الحارث بن معاوية، ووهب بن الحارث[٢] ثم ملكهم حجر بن عمرو آكل المرار[٣] ، وهو أول شخصية تاريخية فى قائمة ملوك كندة يعتقد أنه تولى الحكم بالفترة ما بين ٤٨٠ ـ ٥٢٨م، حارب اللخميين كما حارب المناذرة، ودان بالطاعة لحسان بن تبع الحميرى باليمن، ومن هنا يربط بعض الباحثين بين تاريخ كندة فى الحجاز وتاريخ دولة حمير[٤] .

تولى بعد ذلك عمرو بن حجر، ثم الحارث بن عمرو الذى وصلت مملكة كندة فى عهده ذروة مجدها، فشملت اليمامة وأرض بكر بن وائل التى كانت خاضعة للخميين، فشملت مملكة الحيرة نفسها، وذلك عندما ظهرت المزدكية [٥] وحاول كسرى قباذ إجبار المنذر بن ماء السماء على اعتناقها مما أدى إلى هروبه من الحيرة، فأحل الفرس محله الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار، وظل أميراً على الحيرة بقية أيامه إلى أن ولى كسرى أنوشروان، وناهض المزدكية، فعاد المنذر إلى الحيرة، وهرب الحارث بن عمرو بماله ونسائه وظل المنذر يتعقبه إلى أن قتل منهم فى يوم واحد اثنى عشر أميراً سمى عند العرب يوم خزاز[٦] .

« وتقول الروايات العربية أن المنذر بن ماء السماء تزوج هند بنت الحارث بن عمرو، التى غلب اسمها على ابنها عمرو بن المنذر ملك الحيرة، فأصبح مشهوراً عند العرب

---

(١) الهمذانى، المرجع السابق، ص ٢٢١ وما بعدها .

(٢) ابن خلدون، المرجع السابق، ص ٢٧٣، جورجى زيدان، المرجع السابق، ص ٢٤٣.

(٣) سمى بآكل المرار تشبيهاً له بالجمل الذى يزيد فمه بعد أكل نبات المرار.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٢٣٢.

(٥) عن المزدكية راجع ما سبق ذكره بالصفحة من هذه الدراسة.

(٦) إضافة لمواقع أخرى مشهورة مثل وقعة جبل أوارة الأول والثانى. للمزيد عن ذلك انظر: جواد على، المرجع السابق، ص ٣٥٥

بعمرو بن هند[1]، وهى شقيقة الملك قابوس وعمة الشاعر الكندى المشهور امرئ القيس، الذى هام أول حياته فى أحياء العرب لاعباً لاهياً وحين أتاه خبر مقتل والده الحارث بن عمرو، قال قولته المشهورة : اليوم خمر وغداً أمر، ثم سار جوالاً يطلب النصرة والمعونة للثأر لأبيه من قتلته بنى أسد أو وهو يفر هارباً من طلب المنذر ملك الحيرة حتى وصل القسطنطينية حسب بعض الروايات أو مات دون ذلك حسب بعضها الآخر فى الفترة ما بين ٥٣٠ - ٥٤٠م»[2].

وكان امرؤ القيس قد أودع أمواله ودروعه فى حصن الأبلق لدى السموأل. وعندما علم بذلك الحارث بن جبلة الغسانى حاول الحصول عليها فدفع السموأل حياة ابنه ثمناً للحفاظ على تلك الأمانة، فضربت به العرب المثل فى الوفاء حيث قالت : «أوفى من السموأل».

ويعتقد أنه عقب ذلك انفرط عقد ملوك كندة، فعادوا إلى موطنهم الأصلى اليمن، حيث برز من بين أسمائهم قيس بن معد يكرب ثم ابنه الأشعث بن قيس الذى حضر إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى ٦٠ أو ٧٠ من أشراف كندة، فأسلموا على يديه فى المدينة[3].

إضافة للأنباط - التدمريين - الغساسنة - المناذرة - وكندة، قامت إمارة صغرى فى كل من مدينة الرها Edesse المعروفة الآن باسم أورفة، قامت بها أسرة ملكية حملوا أسماء معروفة، كما عبدوا آلهة معروفة أيضاً، ترجع أهميتها لموقعها، إذ كانت مركزاً تجارياً هاماً فى الجزيرة العربية، كما ترجع لدارسى تاريخ الأدب السريانى الذى ظهر بعد الآرامى[4].

كما قامت إمارة فى حمص حمل ملوكها أسماء عربية صرفة كاسم شمس، جميل، عزيز، ذلك بالإضافة إلى إمارة أخرى نمت فى تلال الصفا شرقى وشمال جبال حوران، أطلق عليهم المستشرقون اسم الصفويين، وازدهرت عندما قضى الرومان على مملكة الأنباط سنة ١٠٦م[5] .

وأهمية هذه الإمارة للكتابة التى عرفت باسم الصفوية، والتى تؤرخ ابتداءً من القرن

---

(١) عن عمرو بن هند، راجع ما سبق ذكره بالصفحة رقم من هذه الدراسة .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣) حمزه الأصفهانى، المرجع السابق، ص ٩٣، ابن خلدون، المرجع السابق، ص ٧٦ .

(٤) جواد على، المرجع السابق، الجزء الثانى، ص ٦١٩ وما بعدها .

(٥) عن ذلك راجع ما سبق ذكره بالصفحة رقم ٨٤ من هذه الدراسة.

الأول الميلادى إلى القرن الثالث الميلادى، «والكتابة الصفوية تتميز عن الكتابات اليمنية الشمالية المعروفة بالمعينية واللحيانية والثمودية من حيث إنها أكثرها تأثراً بالمؤثرات السامية الشمالية، أى الآرامية مما جعلها أقرب اللهجات العربية القديمة إلى اللغة العربية الفصحى أى لغة القرآن، ومن أهم شواهد اللغة الصفوية لغة نقش النمارة»[1].

ومن هذا العرض لتاريخ هذه الممالك والإمارات نستطيع أن نستخلص أن بلاد العرب الشمالية المتاخمة لحدود كل من الشام والعراق عرفت عصراً من الازدهار السياسى والحضارى والاقتصادى، بل والفكرى خلال الفترة ما بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن الخامس الميلادى.

وبصرف النظر عن أهمية الموقع بالنسبة لأهل المنطقة التى تعتبر عقدة المواصلات الأرضية والبحرية بين المشرق وبين عالم البحر المتوسط، فلا شك، أن ازدهار هذه الإمارات العربية يرجع بالدرجة الأولى إلى الظروف السياسية المواتية بالنسبة لأهل البلاد، والتى تمثلت فى الصراعات التى قامت فى المنطقة، بعد أن دخلت فى نطاق امبراطورية الإسكندر بين مملكة السلوقيين فى الشام وبين دولة البطالمة فى مصر، ثم فى الصراع بين الامبراطورية الرومانية ودولة الفرس.

فخضوع المنطقة للدول الكبرى التى أقرت الأمور وهيأت استتباب الأمن كان من بين أسباب الازدهار الاقتصادى الذى تمثل فى النشاط التجارى الذى اهتمت به هذه الدول، وكان من الطبيعى أن يستفيد العرب من أهل المنطقة على كل المستويات: السياسية والحضارية والاقتصادية، فلقد تأثر العرب باليونان والرومان وحاكوهم فى حياتهم السياسية وفى طريقة معاشهم اليومية كما عملوا فى التجارة وكونوا الثروات وانتهى الأمر بأن كونوا أسرات عربية حاكمة فى هذه المدن وبطبيعة الحال لا يعنى قيام حكومة محلية فى كل مدينة من هذه المدن أنها كانت مستقلة عن الأخرى فطبيعة التجارة التى لا تزدهر إلا فى نطاق الأمن على الطرقات واستقرار السلام بين الممالك والدول كان يتطلب وجود علاقات ودية بين هذه المدن، وذلك أن كل واحدة منها لم تكن أكثر من محطة على طريق القوافل التجارية، تفيد هذه القوافل بما تقدمه لها من خدمات على الطريق، فى نظير الإتاوة المفروضة، على تجارة العبور، كما تتم الفائدة عن طريق تبادل السلع المحلية أو المستودعة، وفى ذلك كسب لجميع الأطراف.

---

(١) عن نقش النمارة راجع ما سبق ذكره بالصفحة رقم ١١٠ من هذه الدراسة.

وهكذا يصل تاريخ هذه المدن، وهى تتعاصر وتزدهر ثم تضمحل ليقوم غيرها بنفس الدور فى تسلسل لا ينقطع بين ماضى العرب البعيد فى شمال الجزيرة قبل الإسلام وبين ماضيهم فى العصور الإسلامية المبكرة.

وإذا كان تراثنا العربى الإسلامى لم يحفظ لنا من أخبار هذه الشعوب العربية شيئاً كثيراً، فإن الفضل يرجع إلى ما تركه هؤلاء العرب من آثار، سجلوا عليها ما قاموا به من أعمال، والحقيقة أن هؤلاء العرب ملأوا تاريخ هذه الفترة العريقة بنشاطاتهم فى ميادين السياسة والحضارة، ولم يتركوا - رغم إمكاناتهم المحدودة - بلادهم نهباً لأطماع أصحاب الدول الكبرى فى تلك العصور، أو فراغاً يمكن أن يملأه الأجانب من ذوى الحول والطول.

وفى هذه الظروف حارب هؤلاء العرب دفاعاً عن بلادهم فى كل الأحيان وخضعوا وحاربوا إلى جانب الغزاة فى بعض الأحيان، ولكنهم كانوا لا يلبثون أن يطمحوا فى الاستقلال وأن يحققوه فى كثير من الأحيان، وهم يمتلكون ناصية التجارة ويحققون لأنفسهم وبلادهم عن طريقها القوة والرخاء[1].

---

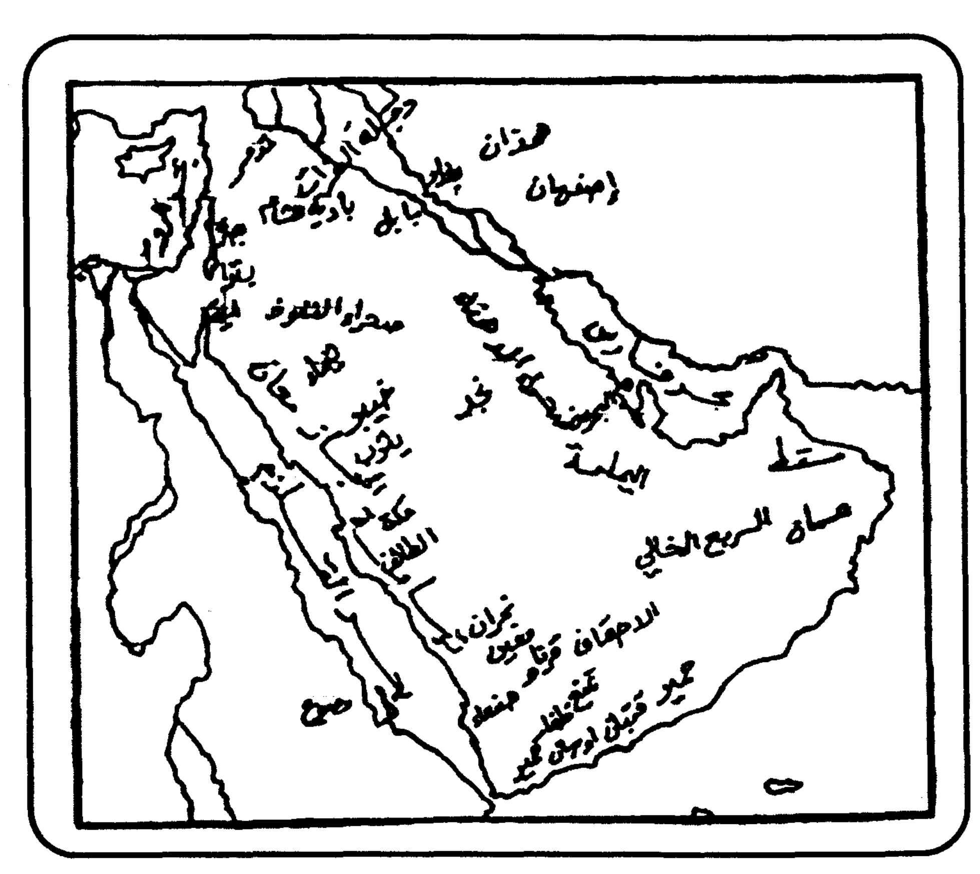
(١) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٦٦ وما بعدها.

البَابُ الرَّابِعُ

الحضارة فى وسط الجزيرة العربية
[الحجـــــاز]

الفصل الأول

تعريف الحجاز
تاريخ مكة
يثرب
الطائف



الخريطة رقم ٦٠) الحجاز

الحجـــاز

يقصد بالحجاز[1] أو منطقة وسط الجزيرة العربية أو بلاد عرب الشمال : المساحات الشاسعة من الأراضي التي تمتد من بلاد اليمن جنوباً الى بادية الشام شمالاً، وهى فى معظمها مناطق صحراوية خالية من مظاهر العمران ، وإذا كان التطور قد تباين من جزء إلى آخر فى اليمن أو فى الشام والعراق، وكان من أبرز مظاهر هذا التطور ما أشرنا إليه من قيام الدول فى الجنوب أو الدويلات فى الشمال[2] فإن هذه المنطقة [الحجاز] قد شهدت نوعاً من الحضارة قبل الإسلام اختلف مظهره عما سبق دراسته، ويتمثل فى ظهور مراكز عمرانية كمكة والطائف ويثرب، ومنها أن الله تعالى قد اختار هذا الإقليم ليكون مهداً لآخر رسالاته، ومن ذلك الحين وأرض الحجاز مطمح المسلمين ومهوى عقيدتهم فى كل زمان ومكان .

يضاف إلى ذلك أن بلاد الحجاز لم تخضع للقوى الخارجية المتمثلة فى ذلك الوقت فى الفرس والروم.

وإذا كانت طبيعة بلاد الحجاز قد حالت من جانب دون خضوعها للأجانب، فإنها من جانب آخر لا يعنى انعزال الحجاز بعيداً عن مسرح الأحداث خلال تلك الحقبة، إذ كان لها أهميتها من الناحية الاقتصادية والدينية [3] ، ذلك لأنها من الناحية الاقتصادية «كان يشقها شريان رئيسى من شرايين التجارة العالمية، تتفرع منه شرايين تتجه صوب الشرق والشمال الشرقى وفى موزاته شريان رئيسى آخر كان له حظه فى عالم تجارة ذلك الزمن» [4]، ويقصد بهذا الشريان الثانى طريق البحر الأحمر الموصل إلى الهند، لذلك كانت الحجاز جسراً يربط بلاد الشام وحوض البحر المتوسط باليمن والحبشة والصومال والسواحل المطلة على المحيط الهندى، وكان لذلك أعظم الأثر فى قيام مدن تجارية بالحجاز، تعتبر محطات تجارية واقعة على هذا الطريق البحرى، وفى قيام ثغور تجارية تتمير منها سفن الروم بالبضائع ومنتجات الهند مثل ثغر الشعيبة مرفأ مكة القديم قبل ظهور ثغر جدة ، وثغر ينبع مرفأ يثرب.

ولما كانت أرض الحجاز قد أصبحت ممراً للقوافل التجارية القادمة من الجنوب إلى

---

(١) يورد الأخباريون ان الحجاز سمى كذلك لأنه يحجز بين تهامة ونجد.

(٢) عن ذلك راجع مّا سبق ذكره بالفصول السابقة من هذه الدراسة.

(٣) عن الناحية الدينية انظر الصفحة رقم ١٤٦ من هذه الدراسة.

(٤) جواد عى، المرجع السابق، ص ١٦١

الشمال وبالعكس، فإن أهل الحجاز أصبحوا فى المقام الأول تجاراً، وقد ساعدهم على احتكار تجارة الهند والحبشة واليمن، الحروب المتواصلة بين فارس وبيزنطة، والتى من أهم مظاهرها فى مجال سيطرتهم على هذه المنطقة الحملة الرومانية المعروفة بحملة اليوس جالوس سنة ٢٤ ق .م [١] . ومحاولة ابرهة التى تخفت تحت شعار هدم الكعبة إلا أنه من المعتقد أنه [ابرهة] كان يسعى للسيطرة على مكة ، ومن ثم على القبائل العربية المنتشرة بالحجاز [٢] .

وقد تعززت مكانة الحجاز الاقتصادية بالحروب المتواصلة بين الفرس والروم، وهى الحروب التى انتهت بتغلب الفرس على الروم، وبإغلاق المسالك التجارية عبر آسيا الغربية، فأصبحت الحجاز ملتقى القادم إلى اليمن أو المجتاز إلى الطائف أو المتوجه إلى الشام [٣] .

ثم تأصلت هذه المكانة فى نهاية القرن السادس الميلادى عندما احتكرت قبيلة قريش [٤] تجارة الهند بفضل جهود زعمائها [٥] .

وأهم ما يعنينا فى دراستنا هذه لإقليم الحجاز، الوسط، حيث ازدهرت مكة والطائف ويثرب.

---

(١) عن هذه الحملة راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٥٤ من هذه الدراسة.

(٢) عن هذه الحملة راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٥٣ من هذه الدراسة.

(٣) البلاذرى، المرجع السابق، ص ٤١، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٩٣.

(٤) قريش قبائل تكاثرت عن ولد النضر بن كنانة بن فهد بن مالك بن النضر، واختلفت الأراء فى أصل التسمية قريش فقيل(١) إنها تصغير قرش وهو الحوت الكبير المفترس الذى عاش فى البحر الأحمر،(٢) أنه مشتق من التقرش وهو التجارة(٣) التجمع والمقصود تجمع القبائل القرشية داخل مكة، للمزيد عن ذلك انظر: جواد على، المرجع السابق، ص ١٨ وما بعدها، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٧١ وما بعدها.

(٥) من ذلك الاحتكار مثلاً قيامهم برحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام.

مـــكة

فى وسط طريق القوافل المحاذى للبحر الأحمر تقوم عدة سلاسل من الجبال التى تقطعها أودية مستعرضة، فتكون منها قمماً غريبة الشكل تبعد نحو الثمانين كيلو متراً عن الشاطئ، وهي تحيط بوادى فسيح غير ذى زرع، له ثلاثة منافذ، وفى هذا الوادى المحصور بين الجبال تقوم مكة، التى كان أول من اتخذ منها مسكناً بعد أن كانت مجرد محطة للقوافل وسوقاً للتجارة إبراهيم[1] عندما أنزل بها السيدة هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام، ويتضح ذلك من قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ [2] ، كما كان البيت الحرام هو أول بناء يقوم بها لقوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً﴾. كما كانت بئر زمزم هى أول الآبار التى فجرها الله بطريقة إعجازية، وفى هذه المنطقة حول هذه البئر أخذ الناس يتجمعون، فكان أول من أقام مع هاجر وابنها قبيلة جرهم، إذ يذكر ابن الأثير قائلاً: «كانت جرهم فى وادى قريب من مكة ولزمت الطير الوادى حيث رأت الماء، فلما رأت جرهم الطير، قالوا: ما لزمته إلا وبه ماء، فجاءوا إلى هاجر، حيث أقاموا معها، وتزوج منهم ابنها إسماعيل عليه السلام، وتعلم العربية فسمى وأولاده بالعرب المستعربة[3] .

ومكة التى كانت قبل الإسلام أشبه ما تكون بعاصمة الحجاز اختلفت الآراء فى مصدر

---

(١) ولد ابراهيم عليه السلام بالعراق لأب نجار كان يصنع الأصنام ويبيعها لمن يعبدها من قومه، فلما شب إبراهيم ورأى الأصنام يصنعها أبوه ويعبدها الناس ساوره الشك فى أمرها، فغافلهم وذهب إلى هذه الآلهة [الأصنام] وكسرها إلا كبيرها، (بل فعله كبيرها هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) سورة الأنبياء الآيتان ٦٢ ـ ٦٤ . ولم ينجح إبراهيم فى هداية قومه، بل كان جزاؤه أن ألقوه فى النار وأنجاه الله منها ففر إلى فلسطين مصطحباً زوجته سارة ومن فلسطين ارتحل إلى مصر التى يعتقد انها كانت تحت حكم الهكسوس، ولما كانت سارة زوج إبراهيم قد سلخت السنين الطوال مع إبراهيم ولم تلد، تزوج هاجر فولدت له إسماعيل، فأحس إبراهيم أن العيش لن يطيب وهاتان المراتان فى مكان واحد عند ذلك ذهب بهاجر وابنها قاصداً الجنوب حتى وصل إلى الوادى الذى تقوم فيه اليوم مكة وأسكنهما فيه .

(٢) سورة إبراهيم، الآية «٣٧» .

(٣) تزوج إسماعيل عليه السلام من جرهم ثلاث نساء كانت ثالثتهن بنت الحارث بن مضاض بن عمرو، فأنجبت له اثنى عشر ولداً، هم العرب المستعربة، وهم الذين ينتمون من ناحية خؤولتهم فى جرهم إلى العرب العاربة أبناء يعرب بن قحطان، فأما ابوهم إسماعيل بن إبراهيم فيمت من ناحية امومته إلى مصر ومن ناحية أبوته إلى العراق وإلى فلسطين

اشتقاقها، فقد قيل إنها سميت مكة «لأنها تمك الجبارين أى تذهب نخوتهم، أو لازدحام الناس بها من قولهم: قد امتك الفصيل ضرع أمه، إذا مصه مصاً شديداً، كما يقال إنها سميت مكة لأن العرب فى الجاهلية كانت تقول: لا يتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة، فنمك فيه، أى نصفر، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا كانوا بها. ويذكر أيضاً أنها سميت مكة، لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، وهى فى هبطة بمنزلة المكوك، كما أن هناك تفسيراً لغوياً على أساسه تكون مكة مشتقة من امتك، من قولهم : امتك الفصيل أخلاف الناقة، إذا جذب جميع ما فيها من حليب جذباً شديداً، ولما كانت مكة مكاناً مقدساً للعبادة، فقد امتكت الناس، أى جذبتهم من جميع أنحاء الدنيا. ويقال أيضاً : إنها سميت مكة من مك الثدى، أى مصه، لقلة مائها، لأنهم كانوا يمتكون الماء، أى يستخرجونه، وقيل: إنها محك الذنوب، أى تذهب بها، كما جاء ذكر مدينة مكة فى جغرافية بطليموس تحت اسم ماكورابا Macoraba، وكلمة ماكورابا يعتقد أنها من مكرب التى عرفت عند السبئيين. ويعتقد أيضاً أن مكة مشتقة من كلمة مك البابلية، بمعنى البيت.

وقد ورد فى القرآن الكريم إسم آخر لمكة وهو بكة، وقيل إن بكة المقصود بها موضع البيت [الكعبة]، ومكة المقصود بها المنطقة المحيطة بالبيت [الكعبة] .

وقيل إن بكة هو موضع البيت، ومكة هى القرية. ويعتقد الدكتور جواد على أن بكة هى مكة، بدلت فيها الميم باء فى لهجة من لهجات القبائل العربية التى تبدل الميم باء.

وذكر الأخباريون لمكة أسماء أخرى منها النساسة، الناسة الباسة، أم رحم، أم القرى، معاد، الحاطمة، البيت العتيق، الحرم، صلاح، البلد الأمين، العرش، القادس، المقدسة، كوثى، البلد، البيت المحرم» [1] .

مناخ مكة قارى إذ تشتد الحرارة نهاراً، والرياح الساخنة تكاد تخمد الأنفاس خاصة بالصيف، وفى الشتاء تنزل بها السيول التى كثيراً ما هددت سكانها بالانجراف وهددت كثيراً من دورها بالانهيار، ومع ذلك فقد عانت مكة قلة المياه وشدة العطش.

يزعم الأخباريون أن أقدم من حكم مكة العمالقة ثم خلفهم بنو جرهم وأن مكة قد انقسمت جزئين، الجزء الأول ويعرف بالمعلاة، اقامت به جرهم وفرضت الإتاوة فيه على من دخله، كما فعلت العمالقة بالجزء الثانى المعروف بالأبطح أو المسفلة، والذى كثيراً ما هددته السيول، حيث جمعت الضريبة ممن يمر بحيهم.

---

(١) جورجى زيدان، المرجع السابق، ص ٢٧٥، جواد على، المرجع السابق، ص ٩، ما بعدها، عبد العزيز سالم، ص ٢٩٣ وما بعدها ، سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٢٨٢ وما بعدها .

لم يطل أمد انقسام مكة جزئين، إذ تمكنت جرهم من التغلب على العمالقة فى الحروب المسماة حروب قعيقان وأجياد[١] وقامت قبيلة جرهم بأمر البيت الحرام ومكة حتى تمكنت قبيلة خزاعة من نزول المكان بعد حادثة السيل العرم [انهيار سد مأرب] [٢] وطرد الجرهميين والإقامة مكانهم.

وعندما دخلت قريش مكة كانت الولاية على الكعبة لبنى خزاعة الذين كانوا قد غيروا دين إبراهيم بعبادة الأصنام، كما كانوا شديدي التمسك بالولاية على الكعبة لأنها كانت شرفاً كبيراً لمن يحوز عليها، وقد بقيت الولاية في أيديهم إلى أن قرر قصى بن كلاب سيد قريش أن ينتزعها منهم بعد أن تجمعت تحت رايته كل قريش ممن استقروا وسط مكة حول الكعبة وفى ظاهرها والذين عرفوا بقريش البطاح، وممن سكنوا بظاهرها وعرفوا بقريش الظواهر، لذا عرف قصى بالمجمع[٣]، وبدأ بذلك نجم قريش فى الارتفاع، وهو أول من أعز هذه القبيلة وأظهر مجدها وسناء ذكرها، وبعد أن استقامت له الأمور ونفى خزاعة، هدم البيت ثم أعاد بنائه ولم يبنه أحد قبله، كما بنى دار الندوة [٤] التى كانت من أهم المؤسسات فى مكة قبل الإسلام، حيث صارت ملتقى كبار القوم للتشاور وتبادل الآراء .

كان لقصى من الأولاد الذكور عبد مناف[٥]، عبد الدار، عبد العزى، عبد قصى، وقد قسم بينهم مراتب الشرف في مكة، ويرى الطبرى أن نزاعاً قد نشب بين عبد الدار وأبناء أخيه عبد مناف على هذه المناصب، لأن قصى، وهو على فراش الموت أوكل إلى ابنه عبد الدار بكل هذه الوظائف، لأنه كان أكبر أبنائه، وأن الحرب أوشكت أن تقع بين الطرفين بعد انقسام قريش، لولا نجاح المساعي التي قسمت وظائف مكة بين هؤلاء وأولئك، وهذه الوظائف هى :

١- النـدوة : دار أنشأها قصى بن كلاب، وسميت بذلك، لأنهم كانوا ينتدون فيها،

---

(١) قعيقان نسبة الى قعقعة السلاح ، أجياد نسبة إلى الجود بالدم فى هذه الحرب .

(٢) عن سد مارب وانهياره راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٧١ من هذه الدراسة .

(٣) عن هذا اللقب راجع ما سبق ذكره بالصفحة ١٢٩ من هذه الدراسة.

(٤) يذكر ان قبيلة قريش كانت تجتمع عندما استقرت أمورها بدار قصى بن كلاب وعندما تمكن هذا من وضع يده على أمور مكة وضاقت داره عن القيام بدورها فى ترتيب أمور الحكم والإدارة قرر أن يبنى داراً لاجتماع رؤساء القبائل يتشاورون فيها فى مصالح المدينة المختلفة وقد عرفت بدار الندوة، وكان بناؤها بجوار الكعبة وجعل بابها فى مقابل المسجد الحرام.

(٥) عبد مناف انجب هاشمًا الذى انجب عبد المطلب جد النبى محمد صلى الله عليه وسلم، انظر لذلك رسم شجرة عائلة قصى بالرسم المرفق بالصفحة رقم ١٩٠ من هذه الدراسة.

فيتحدثون ويتشاورون فى حروبهم وأمورهم ويعقدون الألوية ويزوجون من أراد التزويج[1] وكان لا يدخلها من قريش أو من غيرها إلا من بلغ من عمره أربعين سنة، وكان مباحاً لأولاد قصى دخولها جميعاً

٢- الرفادة : وهى إطعام من لم يكن له سعة ولا زاد من الحجاج ، ويذكر أن قصى قد فرض على كل قرشى قدراً من المال أو الطعام يتم تقديمه إلى المحتاجين من الحجيج فى موسم الحج.

٣- السقاية : هى التكفل بسقاية الحجاج عن طريق أحواض من أدم يحضر إليها الماء من الآبار وتقديمها للحجيج بعد مزجه بشىء من التمر أو الزبيب، ومن الأعمال المذكورة فى هذا الجانب حفر عبد المطلب بن هاشم لبئر زمزم بعد أن ردمه الجرهميون[2] .

٤- اللـــواء : راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى الحرب، وتدور حول المعارك، وحامل اللواء أو صاحب اللواء يتولى مهمة إعطاء العلم للقرشيين بالحرب بالإعلان عنها وقيادة الجيش إليها.

٥- السدانة : وتعنى حراسة الكعبة وحمايتها.

هذا ومن المعلوم أن هذه الوظائف قد استمرت بمكة حتى كان فتحها سنة ٨ هجرية ودخول القرشيين للإسلام.

---

(١) البلاذرى، المرجع السابق، ص ٥٢.

(٢) وقد لقى عبد المطلب معارضة شديدة من قريش وقد علل بعض الباحثين ذلك بالقول ربما انهم خافوا أن يغيض ماؤها، كما كان يحدث فى بعض السنوات او انهم كانوا يحرصون على عدم المساس بها، لما كان لها من المكانة العظيمة فى نفوسهم، هذا ولو أن ابن هشام يشير إلى أنهم كانوا يريدون مشاركة عبد المطلب فيها، وأن الخصومة فى ذلك تطلبت الاحتكام إلى كاهنة بنى سعد هذيم على مشارف الشام، كما إن عبد المطلب انذر التضحية بأحد ابنائه إن هو استكمل حفر هذه البئر، للمزيد عن ذلك انظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ص ٣٣٧، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٩٦

الطائـــف

مدينة صغيرة، قديمة البنيان، تقع على ظهر جبل غزوان من جبال السراة، قريباً من مكة، لذلك تعتبر قرينة لها وارتبطت بها ارتباطاً طويلاً، ربما بحكم قربها منها، كما كانت المركز الوثنى الثانى فى الحجاز بعدها، واقترن اسمها فى أحيان كثيرة بها، فيطلق عليهما المكتين أو القريتين، كما فى قوله تعالى: ﴿ولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [1].

عرفت الطائف قديماً باسم وج وهو اسم وادى ينسب إلى وج بن عبد الحى من العماليق[2] أما تسميتها بالطائف فقد اختلفت الآراء بشأنه، فمنها من يقول إن رجلاً من العرب قتل واستجار بأهل الطائف وكان ثرياً فبنى طوفاً [حائطاً] حول المدينة تحصيناً وحماية لها فسميت بالطائف ، ومنها أنه كان لقبيلة ثقيف بالطائف بيت يسترونه بالثياب ويهدون له الهدى، ويطوفون حوله ويسمونه الربة أو اللات، فمن الطواف حول هذا البيت الذى كانوا يعظمونه كتعظيم أهل مكة للكعبة، سميت المدينة بالطائف .

مناخ هذه المدينة، نظراً لوقوعها فى منطقة جبلية، فهو معتدل، إذ تهب عليها الرياح الشمالية مما جعلها لطيفة المناخ أثناء الصيف، فكانت مصيفاً لأهل مكة حينما تشتد حرارتها، وقد ساعد ذلك على تميز حياة الطائف الاقتصادية، إذ توفرت بها التربة الجيدة والمياة العذبة الأمر الذى يهنيئ ظروف صالحة للزراعة التى كانت الدعامة الأولى فى حياة الطائف الاقتصادية، فأحاطت بها الحدائق لمسافة تزيد على ثلاثة كيلو مترات التى اشتهرت بزراعة الكروم والنخيل ومعظم أنواع الفاكهة، إضافة للحنطة والعسل الذى حاز على شهرة ذائعة الصيت فى التاريخ القديم.

وبفضل هذه الزراعة، ونتيجة الموقع، أصبحت التجارة من الحرف الهامة لأهل الطائف خاصة تجارتهم مع مكة التى كانت المورد الأساسى المهم والأقرب بالنسبة لهم، خاصة الزبيب الذى كان ينبذ فى السقاية للحجيج .

من أشهر من سكن الطائف بعد العماليق، قبيلة ثقيف حيث كانت الغلبة لهم، ثم جماعة من قريش من كنانة وعذرة وهوازن والأوس والخزرج ومزينة وجهينة، وقد

---

(١) سورة الزخرف، الآية «٣٠».

(٢) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٣٥٠.

ارتبط هؤلاء بأهل الطائف ارتباطاً وثيقاً إلى جانب ذلك وجد الحميريون وبعض اليهود الذين أقاموا بها للتجارة، كما سكنها قوم من الروم(١)

يثـــرب

يثرب مدينة محمد صلى الله عليه وسلم، وهى التى اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون منطلقاً لانتشار الإسلام، وإذا كانت مكة هى مهد النبى محمد صلى الله عليه وسلم، فإن يثرب هى مثواه الأخير، وهى بذلك بعد مكة أحب المدن إلى قلوب المسلمين.

ويثرب مدينة قديمة تقع على بعد حوالى ٤٠٠ كيلو متر للشمال من مكة فى منطقة تكثر بها الأشجار والمياه، وكان ذلك سبباً فى استقرار الناس بها، فقد ورد ذكرها فى الكتابات العينية والسبئية(٢) ، كما ورد ذكرها فى جغرافية بطليموس، وعرفت عند الأخباريين العرب بعدة أسماء عددها بعضهم إلى تسعة وعشرين اسماً (٣)، وناداها الله تعالى باسم يثرب والمدينة والدار، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : «يسمونها يثرب ألا وهى طيبة الطيبة»، كأنه كره أن تسمى يثرب لما فى اللفظ من التثريب .

أرض يثرب من أخصب أراضى الحجاز، فهى أرض بركانية خصبة، تتوافر فيها مياه الأودية والآبار والعيون، وأرض على هذا النحو من الخصب تكون صالحة للزراعة، ومن أهمها زراعة النخيل والشعير والقمح والكروم والرمان والموز وغير ذلك، بالإضافة إلى أعمال التجارة والصناعة (٤) .

يزعم الأخباريون أن أول من سكن يثرب هم العمالقة ثم نزحت إليها بعض اليهود بعد أن أدت الثورات التى قاموا بها فى أورشليم [القدس] على الرومان اعتباراً من القرن الأول قبل الميلاد واستمرت حتى القرن الثانى بعد الميلاد إلى تسريبهم والاستقرار ببعض مناطق بلاد الحجار

---

(١) عبد العزيز سالم، المرجع نفسه، ص ٣٢٦ وما بعدها

(٢) عن معين وسبأ راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٤٧ من هذه الدراسة.

(٣) ابن خلدون، المرجع السابق، ٣٥٨

(٤) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٣٣٠

أصبح اليهود فى يثرب أصحاب مصالح خاصة تجارية، حتى جاءتهم الأوس والخزرج وجاورتهم مدة من الزمن دونما مشاكل، ثم أخذ اليهود بزرع بذور الشقاق والفتن وأصبحت الأوس والخزرج فى خوف من أن يقوم اليهود بطردهم، فاختاروا مالك بن عجلان، وجعلوه أميراً عليهم وتمكن هذا من قتل زعيم اليهود، واستعان بالعرب الغساسنة [٤] فى حربة ضدهم وفى الانتصار عليهم، وبذلك أصبحت السيادة فى يثرب للأوس والخزرج بينما بقى اليهود مقيمين بهذه المدينة ، وبأماكن أخرى كثيرة مثل خيبر وتيماء ووادى القرى يتاجرون ويزرعون فى كنف العرب أما الأوس والخزرج فقد وقع بينهم الشقاق الذى وصل إلى الحرب، وجرت بينهم بعض الأيام المشهورة فى تاريخ العرب القديم كيوم بعاث، حيث ناصر اليهود الأوس ، ودارت الدائرة على الخزرج حتى كادت أن تفنى لولا تعقل بعض رجال الأوس الذين نادوا بإيقاف الحرب وتداعوا للصلح وعلى إقامة حكومة تدير شئونهم يرأسها عبد الله بن أبى بن سلول وهموا بتتويجه فعلاً، ولكن شاءت إرادة الله أن يهاجر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ويجتمع أهلها حوله وأصبحوا بنعمة الله إخواناً، وصارت يثرب تعرف بالمدينة المنورة

---

(١) عن الغساسنة راجع ما سبق ذكره بالصفحة   من هذ ه الدراسة

الفصل الثاني

بعض أحوال عرب الحجاز قبل الإسلام

- الأحوال السياسية
- مذاهب العرب فى التسمية
- الأحوال الاجتماعية
- اهتمام العرب بالأنساب
- تقويم العرب
- الأشهر الحرم
- الحياة الاقتصادية
- الحياة الفكرية
- الحياة الدينية
- مظاهر تعظيم العرب للأصنام
- الديانة اليهودية فى بلاد العرب
- الديانة المسيحية فى شبه الجزيرة العربية
- التوحيد فى شبه الجزيرة العربية

بعض أحوال عرب الحجاز قبل الإسلام

الأحوال السياسية:

على عكس الحياة الحضرية السهلة التى عاشها عرب اليمن أو الشام أو العراق، فإن عرب الحجاز كانوا بدو يعيشون على تربية قطعان الأغنام ورعى الإبل، وكان الأساس فى حياتهم، إنما هو العصبية القبلية، حيث ألفت كل قبيلة جماعة مستقلة تمام الاستقلال، وانسحب هذا الاستقلال على أفراد القبيلة، فكل فرد فيها لا يرى فى زعامة شيخ القبيلة إلا رمزاً لفكرة عامة، شاءت الظروف أن يأخذ هو منها نصيباً، بل كان مطلق الحرية فى أن يرفض ما اجتمع عليه رأى الأغلبية من أبناء قبيلته، وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظاماً لنقل سلطة رئيس القبيلة، فكان يختار لها غالباً أكبر الأفراد سناً وأكثرهم مالا، وأعظمهم نفوذاً، وأجدرهم لكسب الاحترام الشخصى.

وإذا ما تضخمت قبيلة ما، تشعبت فروعاً كثيرة «هى تكبر أو تصغر حسب تفرعات القبائل الذى يتوالى من عشر درجات تبدأ بالأصل الذى يعرف بالجذم وتليه طبقات: الجمهور والشعب والقبيلة والعمارة، والبطن والفخذ والعشيرة والفصيلة وأخيراً الرهط، وهم رهط الرجل وأسرته»[1] . وهذه الفروع يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل ولا تتحد إلا فى ظروف غير عادية كالاشتراك فى الدفاع عن القبيلة أو القيام بالغارات والغزوات وبالرغم من أجواء الحرية هذه التى يتمتع بها الجميع، إلا أنه مما لا شك فيه أن شيخ القبيلة، وقد تمتع بسلطات سياسية واسعة، فهو الذى كان يحق له إعلان الحرب والدعوة إلى السلام، كما كانت طاعته بين أبناء قبيلته ديناً واجب الوفاء كما أنهم يستمعون إلى نصيحته ويدافعون عن سمعته التى هى فى ذات الوقت سمعة القبيلة كلها .

ركن آخر هام من أركان القبيلة الأساسية يتمثل فى شاعرها، فالشاعر هو صوت القبيلة المعبر عن آرائها والمادح لأفعالها والذاكر لنسبها وفضلها وتاريخها والمهاجم لأعدائها .

نقطة هامة أخرى فى حياة عربى وسط شبه الجزيرة يتمثل فى عدم الاستقرار، وذلك

---

(١) محمد محمود جمعة، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية القاهرة، ١٩٤٩م، ص٩، من جهة أخرى يرى البعض أن هذا التقسيم الذى يشتمل على البطن والفخذ والفصيل مأخوذ من وصف الناقة التى هى معاش العرب ويرى آخرون أنه مأخوذ من وصف المرأة أو الأم التى هى أصل القبيلة وهم يدللون على ذلك بأن النظام الأموى الذى يعترف بالسيادة فى الأسرة للزوجة أو للمرأة كان فاشياً عند العرب، للمزيد عن ذلك انظر: عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٣٠٤ وما بعدها.

بسبب الظروف المناخية وتركيبة العرب الفكرية والاجتماعية، لأن ذلك كله جعل الصراع والخلاف سهل الوقوع بين هذه القبائل، ومن هنا وقعت مجموعة كبيرة من الحروب بين بعضهم البعض، عرفت فى التاريخ باسم أيام العرب، وهى كثيرة جداً لدرجة يصعب حصرها، وقد سميت هذه الأيام بأسماء الأماكن التى وقعت فيها أو أبرز أحداثها أو بالقبائل التى اشتركت فيها[1] .

وكان لاتساع الأرض فى وسط الجزيرة وقسوة الطبيعة وصعوبة المواصلات أثره فى منع قيام دولة موحدة؛ لأن الترحال يمنع قيام وحدة القبائل وفرض التعاون كما أن العصبية أو التعصب فى القبيلة يسهم فى خلق عصبية مفرقة حتى أن البدوى لم يكن يتقبل الخضوع لأية سلطة بشرية خارج قبيلته ، وليس لديه صورة عن فكرة الدولة.

مذاهب العرب فى التسمية:

كان العرب يتخيرون لأبنائهم الأسماء التى وجدوها فى بيئتهم، والتى تدل على الشدة والفتك والصلابة مثل فهد، كلب، أسد، ومنها ما يدل على التفاؤل مثل نائل ووائل ومالك وسعد وغيرها، ومنها ما سمى بالغليظ من الأرض كصخر وحجر وجندل، وكانوا يتخيرون لعبيدهم خير الأسماء وأخفها على السمع كريحان وعنبر وجوهر، وفى مثل هذه الأسماء قيل إن بعض العرب سئل «لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح؟! فقال : إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا»[2] .

وإلى جانب ذلك تسمى القبائل والأشخاص بأسماء الآلهة التى عرفوها مثل عبد مناة وعبد اللات وعبد العزى وعبد شمس وغيرها[3] .

أما الكنية كأبى القاسم وابن عباس وأم سلمة فكانت علامة التعظيم، ثم أطلقت على كل من له ولد ومن لم يكن له ذرية مثلاً عائشة كانت تنادى بأم عبد الله، وهو عبد الله بن الزبير ولد أختها أسماء رضى الله عنهم.

أحوال العرب الاجتماعية:

وإذا كانت القبيلة هى وحدة الحياة السياسية فى المجال السياسى عند العرب، فهى

---

(١) انظر تفصيل ذلك بالصفحة رقم ١٥٧ من هذه الدراسة.

(٢) الهمذانى ، المرجع السابق، ص ٧١، محمد محمود جمعة، المرجع السابق، ص ١١٥ .

(٣) انظر تفصيل ذلك بالصفحة رقم ١٥٣ من هذه الدراسة.

كذلك فى المجال الاجتماعى، وتشكلت القبيلة أساساً من أبنائها الصرحاء، أى أبنائها غير المختلطين والذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم، ويسعون للحفاظ على سمعة القبيلة، ويدافعون عنها ويتعصبون لها. إلى جانب الصرحاء ضمت القبيلة طبقة الموالى وتضم الحلفاء والعتقاء ولهذه المجموعة حقوق المجموعة الأولى وعليها واجباتها، أما الرقيق فهم الذين يشترون من الأسواق أو يجلبون عن طريق الأسر فى الحروب، لا يتمتعون بحقوق كثيرة وأثقل كاهلها بالواجبات ويمتهن أحقر الأعمال التى أنف العرب القيام بها.

كانت الأسرة هى بيت العربى وملاذه، ولقد عرف العربى بحبه لأسرته وحمايته لها وتعبه فى سبيلها.

ولقد قامت الأسرة قبل الإسلام على الزواج، وإن وجد عدة أنواع من الزواج حرمها الإسلام فيما بعد، كما عرف تعدد الزوجات والطلاق الذى كان بيد الرجل فى معظم الأحيان وبيد المرأة فى أحيان أخرى[1] ومن البديهى فى المجتمع القبلى البدوى أن يتمتع الرجل بسلطات واسعة أكثر من النساء، لكن ذلك لا يعنى ضياع حقوق النساء تماماً، ولدينا من أحداث تاريخ العرب قبل الإسلام ما يدل على مكانة عالية للمرأة [2].

وقد عرف عن العرب حبهم لأبنائهم ورعايتهم لهم وكانت معاملة الأبناء الذكور تنطوى على المعاملة بالحب والحنان، أما البنات فلم يكن فى كثير من الأحيان مرغوباً فى إنجابهن، وهذه النقطة تقودنا إلى ما عرف عند العرب بوْاد البنات [3]. الذى تعددت الآراء فيه.

والعرب قبل الإسلام انقسموا اجتماعياً إلى بدو وحضر أو أعراب وعرب، والبدو أو الأعراب هم القسم الغالب فى الجزيرة العربية ويسكنون خارج المدن، وقد اتصفوا بالمروءة والشجاعة والكرم والفصاحة، كما كانوا يتميزون بالذكاء والحمية وعزة النفس وإباء الضيم والنجدة.

وتتلخص حياة البدو فى البساطة الخالية من التكلفات المعقدة التى توجبها الحياة الاجتماعية بالمدن، فكانوا يسكنون الخيام المصنوعة من الوبر أو الشعر التى لا تزيد محتوياتها عن أمتعة بسيطة «إذ تقتصر على الضرورى من الأقوات والملابس والمساكن وتقتصر عما فوق ذلك من حاجى أو كمالى» كما يقول ابن خلدون، فهم «يتخذون البيوت من الشعر أو الوبر أو الشجر أو الطين والحجارة غير منجدة، إنما هو قصد الاستظلال

---

(١) انظر تفصيل ذلك بالصفحة رقم ١٨٧ من هذه الدراسة.
(٢) انظر تفصيل ذلك بالصفحة رقم ١٨٧ من هذه الدراسة.
(٣) انظر تفصيل ذلك بالصفحة رقم ١٨٨ من هذه الدراسة.

والكن لا ما وراءه، أما أقواتهم فيناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار»[1]

والحضر هم سكان المدن أو الحواضر وكانت تضمهم مجالس يتباهون فيها على بعضهم بما يملكون، كما كانت لهم بيوت من الحجر أو اللبن وربما تأنقوا فيها ونقلوا إليها من المظاهر التى كانت بمجالس الملوك ما يتفق مع أسلوب حياتهم مثلاً قد تزين الغرف بالأسرة التى كانت تصنع من سعف النخيل وتوضع فوقها ستارة رقيقة.

اهتمام العرب بالأنساب:

اشتدت عناية العرب قبل الإسلام بأنسابهم، لأنهم كانوا قبائل متفرقين لا تخمد بينهم الحروب التى تشعل لأتفه الأسباب، فكان ارتباط الدم باعثاً على التناحر أنفة من تغلب الأباعد على الأقارب «أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب» وقد وصل بهم المدى إلى حفظ أنساب الخيل والإبل، وقد طغت أسماء من العرب اشتهروا بحفظ الأنساب كدغفل بن حنظلة الذى ضرب به المثل فقيل : أنسب من دغفل.

وكان تقدير النسب عندهم على أساس الشهرة وسناء الذكر من خلال الشجاعة والكرم وأصالة الرأى، فمن توفرت فيه هذه الصفات، ساد قومه فى الغالب، وعلى الرغم من أن العلاقة بين القبائل كانت تقوم على أساس المنافسة والغلبة إلا أنهم كانو يتضامنون، كما كانوا يتحالفون ويتوالون، والولاء هو نوع من الارتباط بين العرب وغيرهم من الأعاجم الذين يعيشون بينهم، وقد يحدث أن يخلع الرجل ابنه أو مولاه إذا ساء سلوكه، فيصبح غير مرتبط به، وخليع، وقد يعلنون هذا الخلع فى أحد الأسواق كسوق عكاظ، وقد يكتبون فيه كتاباً.

تقويم العرب:

كانت العرب قبل الإسلام تؤرخ بالأحداث الهامة فى تاريخها كبناء الكعبة وعام الفيل وعام الفجار وسيل العرم.

وقد ظل الأمر على هذا الحال حتى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث اتخذ الهجرة من مكة إلى المدينة «يثرب» مبدأ للتاريخ العربى، واتخذ المحرم سنة الهجرة أول العام.

---

(١) ابن خلدون، المرجع السابق، ص٤١٠.

وقد رسمت العرب الشهور فبدأت بالمحرم وسمته كذلك لتحريمها الحرب فيه، ثم صفر لخروجهم فيه إلى الحرب وانصرافهم فيه عن ديارهم، وربيع الذى سمى كذلك لارتباع الناس والدواب فيه، وجماد لجمود الماء فيهما فى الزمن الذى سميت فيه هذه الشهور، ورجب لخوفهم أن تقع الحرب فيه من قولهم : رجبت الشيء، إذا خفته، وشعبان لتشعبهم إلى طلب الغارات، ورمضان لشدة حر الرمضاء فيه، وشوال؛ لأن الإبل تشول فيها أذنابها تشاءمت به العرب، فلم تكن تتزوج فيه، وذى القعدة لقعودهم فيه عن الغارات، وذى الحجة؛ لأنهم كانوا يحجون فيه.

أما أيام الأسبوع فكانت تبدأ بالأحد على النحو التالى: أول، أهون، جبار، دبار، مؤنس، عروبة، شيار[1].

الأشهر الحرم:

عرفت العرب قبل الإسلام الأشهر الحرم، فكانت قبيلة ربيعة ومضر يحرمون أربعة أشهر من السنة، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، واختلفتا (ربيعة ومضر) فى الشهر الرابع، فقالت قبيلة ربيعة : هو شهر رجب، في حين قالت مضر: رمضان، واستمر خلافها إلى أن قال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات : ذو القعدة و ذو الحجة، والمحرم ثم رجب»، فنص بذلك على ترجيح قول ربيعة.

وهذه الأشهر الأربعة قد حرم القتال فيها حتى لو كان من قبيلة الأخذ بالثأر منذ عهد إبراهيم عليه السلام، ولما جاء الإسلام أقر حرمتها، بقوله تعالى : ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم﴾ [2].

ويعتبر العدوان فى هذه الأشهر نوعاً شنيعاً من الفجور، وسموا الحرب التى تقع فى هذه الأشهر حرب فجار.

الحياة الاقتصادية:

قامت الحياة الاقتصادية في وسط شبه الجزيرة العربية على عاملين أساسين هما الرعي والتجارة بالإضافة إلى الزراعة في بعض المناطق التى توفرت بها المياه أما

(١) عبيد بن شرية، المرجع السابق، ص ٣٨٤، المسعودى، المرجع السابق ص ١٨٩ وما بعدها.
(٢) سورة التوبة الآية ٣٦.

الصناعات، فكانت يدوية بسيطة. ولما كان المناخ وقلة الأمطار سبباً فى ندرة الغطاء النباتى، من هنا احترف العرب الرعى وقاموا بتربية الحيوانات التى لا يتطلب وجودها كميات وافرة من الماء، واهتموا بتربية الإبل على أساس أنها أقدر الحيوانات على السير فى الصحراء، وتحتمل أجواء هذه المناطق، أما الخيل، فكان اهتمام العرب بها اهتماماً بالغاً، وذلك لاستخدامها فى القتال والسباق والتنقل.

وقد اشتهر العرب قبل الإسلام بالتجارة ، وكانت شبة الجزيرة تمثل بحراً تخترقه قوافل الإبل فكان هناك طريقان رئيسيان للقوافل أحدهما من الجنوب إلى الشمال غير بعيد من البحر الأحمر، وفى الشمال يتفرع إلى الشرق اتجاه سوريا وإلى الجنوب الغربى تجاه فلسطين ومصر.

أما الطريق الثانى، فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلى الخليج العربى ماراً بمكة، هذا وقد تعود أهل مكة على القيام برحلتين تجاريتين سنوياً إحداهما صيفاً تتجه شمالاً إلى بلاد الشام، والأخرى شتاء وتتجه جنوبياً إلى بلاد اليمن [١] ، وبالرغم من الارتباك الذى يحدث كثيراً فى النواحى الاجتماعية بسبب تعطل التفاهم والسلام إلا أن العرب حرصوا على ضمان حد أدنى من التفاهم يصل إلى درجة القداسة يتمثل فى الاتفاق على وقف القتال خلال الأشهر الحرم، فاستفادوا منها فى تنشيط حركة التجارة، وخلق استقرار فى العلاقات الاجتماعية، وكانت عاملاً مهماً فى حياة الجزيرة قبل الإسلام، وقد كانت وسيلة هامة للتقريب بين العادات والاتجاهات وعنصراً فعالاً فى تقريب الشعور وإحداث نوع من الاتجاهات العامة، وكان العرب يجتمعون فيها (الأشهر الحرم) للتجارة علاوة على الأنشطة الفكرية الأخرى، ومن أشهرها سوق عكاظ بأعلى نجد، ثم سوق ذى المجاز، ولقد أحصاها اليعقوبى عشرة أسواق وبين أهمية كل منها وتاريخها[٢].

الحياة الفكرية:

لم يكن التعليم فى ذلك العصر منتشراً فى بلاد العرب، لذلك عاش المجتمع العربى أمياً فى الغالب واقتصرت معرفة القراءة والكتابة على أفراد يعدون بالأصابع غير أنهم قد اكتسبوا بعض العلوم والمعارف بحكم البيئة التى نشأوا فيها وطبيعة البلاد التى عاشوا على أرضها.

---

(١) وهما رحلتا الشتاء والصيف الوارد ذكرهما بسورة قريش بالقرآن الكريم .

(٢) اليعقوبى، المرجع السابق، ص ٢١٨.

هذه العلوم التى يمكن أن نطلق عليها مجموعات من المعارف مثل علم الأنواء، أى توقيت نزول الغيث، كما نبغوا فى علم الأثر وعلم الأنساب الذى سبق القول إنه نبغ فيه دغفل بن حنظلة، الذى كان يضمن لهم تتبع أنسابهم لما له من حاجة فى عقد التحالفات بين القبائل أو حين المنافسة على الرئاسة. وقد كانت مكة مركزاً للحركة الأدبية والتجارية.

وذلك لأن العرب كانوا يفدون إليها فى أيام الحج والمواسم، فينشدون الأشعار ويتبادلون الخبرات، وكان اجتماع الشعراء فى سوق عكاظ له أكبر الأثر فى حياة العرب الأدبية، ولقد منحت طبيعة بلاد العرب الفسيحة، الخيال العربى انطلاقاً لا مثيل له، إلى جانب الصراع القبلى الذى كان عاملاً حاسماً فى شحذ قرائح الشعراء لكى يمدحوا ويهجوا، واتسعت مجالات قول الشعر، إلى جانب ذلك فكان هناك الوصف والفخر والرثاء ووصف الأطلال إلى جانب أشعار الغزل حتى قيل إن الشعر ديوان العرب، حيث يمكن أن يقال باختصار أنهم سجلوا فيه كل حياتهم وتاريخهم.

هذا ولقد تميز العرب بملكة الحفظ والكلام وإلقاء الخطب، وهو ما عوض العجز لديهم فى القراءة والكتابة التى هى فن حضارى، ولذا لم ينشأ الخط فى وسط الجزيرة بل نشأ فى أطرافها، وقد «صنف المختصون الخطوط التى وجدت فى أقاليم شمال الحجاز وجنوب الشام إلى عدة أنواع منها: الكتابة المعينية واللحيانية والصفوية والثمودية، ورأوا أنها جميعاً فروع لخطوط عربية جنوبية، أى من كتابة المسند اليمنية، وهذا يعنى أن أصحاب هذه الكتابات جميعاً أصلهم من اليمن» (١).

الحياة الدينية:

أمة العرب عاشت على فطرة نقية ساذجة، حرة، مستعدة لقبول كل حسن وطرح كل قبيح، وهى أقرب الأمم لقبول الفطرة التى تولد عليها كل نفس إنسانية وشعورهم بالمجهول الضخم، الغائب عنهم والذى يجدون فيه سكناً لأرواحهم ومتنسماً لعقولهم، أقوى من شعور غيرهم من الأمم، ولذا كانوا أقوى الأمم استغراقاً فى العبادة وأشدهم شعوراً به.

أهم مصادر الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام: القرآن الكريم وكتاب الأصنام لهشام بن محمد بن السائب الكلبى.

وقد انصب في جزيرة العرب جملة أديان بحكم اتصالها إلى حد ما بأمم أخرى

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص٢٠٧، وعن المسند راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٧٥.

كالفرس والروم والأحباش والهند، فقد وجد فيها إلى جانب عبادة الأصنام والأوثان والأنصاب عبادات أخرى متنافرة كعبادة النار والكواكب والملائكة والجن والأشجار، فضلاً عن اليهودية والنصرانية (المسيحية) كما كان يوجد بها الموحدون (الحنفاء).

وقد جمع القرآن الكريم، فى آية واحدة جميع هذه المذاهب إذ قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾[1].

والمفروض فى عرب الحجاز أنهم كانوا يدينون منذ بناء الكعبة[2] بديانة إسماعيل بن الخليل إبراهيم عليهما السلام، الذى بعث نبياً لجرهم والعمالقة وخزاعة، ولكنهم انحرفوا عنها إلى الشرك بعبادة الأوثان والأنصاب والأصنام مع ملاحظة أن هذا الشرك لم يلغ عندهم وجود الله سبحانه وتعالى، فكأنهم يعبدون هذه الأصنام والأوثان والأنصاب زلفى لمن هو أعظم منها فى نظرهم، فهم يعتقدون فى الإله الأعظم ويكبرون هذه الأصنام؛ لأن فيها سراً وقدرة على قضاء الحاجات إلى حد محدود، وهذا ما يطابق قوله تعالى: ﴿وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ .

ينسب غالب الرواة إلى عمرو بن ربيعة بن حارثه الخزاعى، المشهور بعمرو بن لحى الخزاعى أمر إدخال عبادة الأصنام إلى شبه الجزيرة العربية وجلبها فيما يقال من بلقاء الشام التى زارها إثر مرض ألم به، ووصفت له حمةٌ بالشام ليستشفى بمائها. فقد وجد أهل الحمة يعبدون الأصنام وعندما سألهم عنها، قالوا: «نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو»، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة [3] .

كما يشير ابن الكلبى إلى أن عبادة الأصنام عند العرب ترجع إلى عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبنائهما البيت، و «أنه كان لا يظعن من مكه ظاغن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمناً منهم بها وصبابة بالحرم وحبا له»، ثم جرهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كان.

على أن عبادة الأصنام التى شاعت عند العرب كانت تختلف فى معناها عن الوثنيات الأخرى، فبينما كانت الأصنام فى الجهات الأخرى [4] تعبد بصفتها آلهه قائمة بذاتها،

---

(١) سورة الحج، الآية ١٧.

(٢) عن بناء الكعبة راجع ما سبق ذكره بالصفحة ١٣٣ من هذه الدراسة .

(٣) ابن الكلبى، الأصنام، طبع دار الكتب بمصر، ١٣٤٣هـ ، ١٨٩٤م ، ص ٦.

(٤) مثل ذلك عبادة البابليين والآشوريين والمصريين الفراعنة أو الأغريق والرومان.

كانت تعبد فى جزيرة العرب بصفتها شفعاء عند الله، أى أن العرب قد أشركوا الأصنام مع الله تعالى.

حاول اللغويون والمفسرون التفريق بين مدلول كل من الأصنام والأوثان والأنصاب، فذهب بعضهم إلى القول بأن ما له صورة إن كان من حجر، فهو صنم وإن كان من غيره كالنحاس مثلاً فهو الوثن، وأن ما ليس له صورة مهما اختلفت مادته، فهو نصب، وجمعها أنصاب، وأن طقوس عبادة كل منها تختلف عن الأخرى، والذى يفهم من كتاب الأصنام هو أن عبادة الأنصاب حجازية الأصل، وأن أهم طقوسها هو الدوران أو الطواف حول النصب بينما كان لعبادة الأصنام والأوثان طقوسها الخاصة من الدعاء لها وتقديم القرابين[1].

كان لكل قبيلة تقريباً آلهتها وأصنامها، ويفهم من النصوص أن عدداً من هذه الآلهة كانت ثنائية أى مزدوجة من ذكر وأنثى، ومن أشهر هذه الآلهة إساف ونائلة، اللذان يعتقد أنهما رجل وامرأة من قبيلة جرهم أحبا بعضهما، ودخلا الكعبة، احتميا بها، فمسخا، ولما طال عليهما الزمن عبدا، وكان صنم أحدهما ملاصق للكعبة والآخر عند بئر زمزم.

ثم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ويظهر أن هذه الأصنام الخمسة كانت قديمة فى العالم، فقد ورد فى القرآن الكريم أن نوحاً نهى قومه عن عبادتها. كما يذكر ابن الكلبى أن هذه الأصنام الخمسة أسماء لقوم صالحين ماتوا فى شهر واحد، فجزع عليهم أهلهم وعز عليهم مفارقتهم إياهم، فروا أن يصنعوا لهم خمسة أصنام على صورهم، ونصبوها لهم وعظموهم وأخذ تعظيمها يزداد على مر الأيام حتى جاء جيل فعبدها، فبعث الله إليهم النبى إدريس عليه السلام، فكذبوه، ولا يزال أمرهم يشتد حتى جاء نوح عليه السلام، فدعاهم إلى توحيد الله فكذبوه، فأرسل الله عليهم الطوفان فغرقوا، وحمل الماء هذه الأصنام حتى قذفها إلى أرض جدة، ثم طمرتها الرمال، لكن جدد العرب بعد ذلك تماثيل هذه الآلهه وعبدوها!!!![2].

فكانت قبيلة كلب تعبد وداً الذى عرفه المعينيون من أهل اليمن قديماً رمزاً للإله القمر[3]، وكان صنمه فى دومة الجندل على هيئة رجل محارب يتقلد سيفاً ويتنكب رمحاً ويحمل جعبة بها نبل، وسدنته من قضاعة. وقبيلة هذيل عبدت سواعاً وكان سدنته من بنى لحيان وكان صنمه على هيئة امرأة، ذلك فى حين اتخذت قبيلة مذحج يغوث إلهاً لها بأكمة

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٣٣٩.

(٢) ابن الكلبى، المرجع السابق، ص ٣٧ وما بعدها.

(٣) عن عبادة أهل اليمن للقمر راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٧٨ من هذه الدراسة.

باليمن عرفت باسم القبيلة فهى مذحج أيضاً، كما عبده أهل جرش، وكان على صورة أسد. واتخذت قبيلة همذان فى قرية خيوان يعوق إلهاً لها وكان على صورة فرس، كما عبدت حمير باليمن الإله نسر، وكان على صورة نسر، وقد استمرت فى عبادته حتى غلبت عليهم اليهودية فى عهد ذى نواس(1).

أما اللات فهى عبارة عن صخرة مربعة، وهى أحدث من مناة، وقد عبدت بالطائف، وهى إلهة مؤنثة، وتمثل الشمس، وكان سدنتها من بنى عتاب بن مالك الثقفى، وقد ظلت معظمة من ثقيف وقريش وسائر قبائل العرب إلى السنة الثامنة للهجرة، سنة فتح مكة، عندما هدمها المغيرة بن شعبة بأمر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

والعزى، الذى يمثل الشمس أيضاً، فهو عبارة عن ثلاث شجرات مجتمعة بنى حولها بيت فى موضع حراض من وادى نخلة الشامية بوادى قرب مكة، وكانت من أعظم أصنام العرب، وذلك ما يفهم من الابتهالات التى كانت تقولها قريش عنده مثل:

واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى(2).

وأنه (العزى) أيضاً كان يأتى بعد اللات وقبل مناة، وهذا ما جاء بالقرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ كان سدنة العزى من بنى شيبان بن جابر بن مرة من بنى سليم، وكان آخر سدنتها ذبية بن حرص السلمى الذى قتله خالد بن الوليد عندما بعثه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فقطع الأشجار الثلاث التى كانوا يعتقدون أن الشيطان يحل بها.

بينما كانت مناة أقدم أصنام العرب على ساحل البحر بين مكة ويثرب فى موضع قديد من ناحية المشلل على بعد سبعة أميال من يثرب.

«ومع أن مناة كان صنم هذيل وخزاعة، فقد اعتبر إله الخزرج والأوس أولاً قبل كل شيء؛ إذ كانوا أشد الناس إعظاماً له، كما كان يعظمه أهل مكة وسائر عرب المنطقة حول مكة والمدينة ويذبحون له ويقدمون الهدايا»(3) وقد تم هدمه هو الآخر عام الفتح حوالى عام ٦٣٠م حين هدمها على بن أبى طالب بأمر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

أما هبل فقد كان من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى عرفته قريش بهذا الشكل، فجعلوا له يداً من ذهب، وكان موضوعاً بجوف الكعبة، وكانت له سبعة أقداح للضرب بها أو ما يعرف بالاستقسام زلام التى يقول عنها ابن الكلبى:

---

(١) عن ذى نواس راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٥٩ من هذه الدراسة.

(٢) ابن الكلبى، المرجع السابق، ص ١٨ وما بعدها، محمد جمعة محمود، المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣) ابن الكلبى، المرجع نفسه، ص ٣٧.

«إنه كان قدام الصنم سبعة أقداح : منها ما هو خاص بصحة نسب الأبناء، ومكتوب فيه صريح، ويمن لا تصح نسبته ومكتوب فيه «ملصق»، ومنها ما هو خاص بالموت، وما هو خاص بالزواج وغير ذلك، فكان طالب الاستخارة يبدأ بتقديم الهدية ثم تضرب القداح بمعرفة السدنة على ما يرجح» (١)، كما هناك أقداح مكتوب عليها أمر ونهى وافعل ولا تفعل. ومثل هذا ما ينسب إلى امرئ القيس (٢) من أنه استقسم بالأزلام عند ذى الخلصة، وهو يطلب بثأر أبيه، فخرج السهم ينهاه على ذلك، فحطم القداح فى وجه الصنم، وقال :

لـو كنت يـا ذا الخلصـة الموتور　　　مثلى وكـان شـيخك المقبـورا

لـم تنه عن قـتل العـدا زورا

أما صنم الأقيصر، فقد كان فى مشارف الشام، وقد عبدته قضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان، وقد ظل هذا الصنم بدومة الجندل إلى أن سار إليه خالد بن الوليد بأمر النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى العام السابع للهجرة وهدمه وهو فى طريقه إلى تبوك.

والفلس عبدته قبيلة طيئ بين جبلى آجا وسلمى، وكان صنمه على هيئة إنسان أحمر الأنف، يتقلد سيفين، وقد ظلت عبادته إلى أن هدمه على بن أبى طالب بأمر النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأخذ سيفيه.

أما سعد فقد كان صخرة طويلة (نصب) على ساحل جدة «والظاهر أنه كانت تذبح الذبائح على هذه الصخرة التى كان يتبرك بها، مما جعل الإبل التى كان يسوقها عنده بعض الرجال تنفر فى كل وجه، وفى ذلك قال الرجل:

أتينـا إلى سـعد ليجمـع شـملنا　　　فشتتـنا سـعد فلا نـحن من سـعد

وهـل سـعد إلا صـخرة بتنوفـة　　　مـن الأرض لا يـدعى لغـى ولا رشد (٣)

وذو الخلصة كان نصباً على هيئة صخرة بيضاء، ومنقوشة، عبدته خثعم وبجيلة وأزد السراة، وكان موقعه فى تبالة جنوبى مكة، أرسل إليه جرير بن عبد الله لهدمه بعد فتح مكة، ويذكر أن سدنته أبلوا فى الدفاع عنه قبل أن تضرم ببيته النار، ويتخذ عتبة لمسجد تبالة.

أما عن بيوت الأصنام، فإن أشهرها الكعبة بمكة البيت الذى رفع قواعده إبراهيم

---

(١) المكان نفسه.

(٢) عن امرئ القيس راجع ما سبق ذكره بالصفحة ١٢٣ من هذه الدراسة.

(٣) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص٢٤٧.

وابنه إسماعيل عليهما السلام[1]، وتذكر الروايات أن إبراهيم عليه السلام بناه فى ارتفاع يتراوح ما بين سبعة أذرع وتسعة أذرع، وأنه لم يكن مسقوفاً، وعندما بنته قريش[2] انقصت من طوله ليكون ستة أذرع، وجعلت مساحتها فى موضع الحجر، ثم زادت فى ارتفاعه ليصبح تسعة أذرع، فصار ارتفاعه ثمانية عشر ذراعاً. ومن المعروف أن الكعبة أجريت عليها كثير من التعديلات طيلة العهد الإسلامى[3].

كان لقريش أصناماً فى جوف الكعبة مثل هبل ومن حولها، وقد أرادت قريش من ذلك أن تستهوى أفئدة العرب فى موسم الحج، فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حتى إذا أتوا إلى مكة وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فيها، فأولوها احترامهم وتقديسهم، فظهرت بذلك مكة قبيل الإسلام بمظهر عاصمة الجزيرة العربية الدينية والفكرية والاقتصادية، وذلك بفضل تحضر القرشيين.

كعبة نجران، وكانت لبنى الحارث بن كعب، بنوها على بناء كعبة مكة وعظموها مضاهاة لها، وكان فيها أساقفة، بمعنى أنها كانت للنصارى، كما يعتقد البعض أنها كانت دار ندوة.

بيت رئام أو بيت ريام، وكان لحمير باليمن وكانوا يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح، كما كان لقبائل إياد بيت يسمى كعبة إياد.

مظاهر تعظيم العرب للأصنام:

بلغ عدد الأصنام حول الكعبة قبيل الإسلام ما يزيد على ٣٦٠ صنماً ولشدة تعظيم العرب لها كانوا يضيفون أسمائها إلى أسمائهم، فقالوا مثلاً : عبد اللات، عبد العزى،

---

(١) يعتقد أن قواعد هذا البيت قد أوجدها الله سبحانه وتعالى منذ الأزل، وإنما الأمر لابراهيم كان بإظهارها للعيان فقط، فى حين تذهب بعض الآراء الأخرى إلى القول بأن أول من انشأه هو إبراهيم عليه السلام ليتعبد به.

(٢) عن هدم الكعبة وإعادة بنائها راجع ما سبق ذكره بالصفحة ١٣٢ .

(٣) المعروف أن عبد الله بن الزبير بن العوام كان قد هدم الكعبة عندما استعاذ بالبيت وبعد أن أصابها الحريق أثناء الحصار الذى ضربه الحجاج حولها فى خلافة عبد الملك بن مروان، كما أعاد الحجاج بناء الكعبة بعد استعادته لها وظلت الترميمات تجرى عليها باستمرار حتى الآن، هذا ومن المعلوم أن طول وجهها الشرقى حيث يوجد الباب وذلك من الركن الأسود إلى الركن الشامى يبلغ طوله ما بين ٢٥ إلى ٢٧ ذراعاً، وطول مؤخرتها وهو الشق الغربى من الركن اليمانى إلى الركن الغربى مثل واجهتها أى ما بين ٢٥ إلى ٢٧ ذراعاً أما عرضها من ناحية الركن اليمانى إلى الركن الأسود فهو ما بين ١٥ الى ٢٠ ذراعاً، وعرضها المقابل من الركن الغربى إلى الركن الشامى ما بين ٢١ إلى ٢٤ ذراعاً، أما سمك الجدار فهو يتراوح ما بين ذراعين إلى خمسة أذرع.

وبلغ من تعظيمهم لها أن الحائض كانت تتحاشى القرب منها، وكانوا يقسمون ما تنتجه مزارعهم بينها وبين الله، وكذلك ما ينتجه الحيوان، وكانوا يتقربون إليها بالقرابين إذ تنحر الذبائح على البئر الذى يوجد أمام الصنم[1] من أجل أن يراق فيه الدم أو على الصخرة التى تمثل المذبح، والتى كانت تقسم وتوزع لحومها (لحوم الذبائح) على الموجودين، لذلك كان فقراء العرب خاصة زمن المجاعات يحتشدون قرب الأصنام المشهورة طلباً للطعام من أولئك الوافدين إليها بالهدايا كما كانوا يستنصرون بها على الأعداء، بل إن بعضهم اتخذ أصناماً فى بيته، فكان آخر ما يصنع فى منزله إذا أراد السفر أن يتمسح به، وكذلك يفعل عند أول قدومه من السفر بعد أن يكون قد أحضر إليها الهدايا من الطعام والثياب والحلى والسلاح [2].

هذه الأصنام صنعت من مواد مختلفة، أحياناً من التمر!!

الديانة اليهودية فى بلاد العرب:

اليهودية شريعة موسى عليه السلام، وسميت يهودية نسبة إلى يهوذا أحد أبناء إسرائيل (يعقوب) عليه السلام.

ظهرت هذه الديانة بمصر، ولما لم يؤمن بها فرعون مصر وقومه، خرج موسى وبنو قومه من مصر، فانتقلت هذه الديانة معهم إلى فلسطين، ومنها سرت إلى شبة الجزيرة العربية التى كانت عبادة الأصنام غالبة فيها فلم تستطع اليهودية أن تتغلب عليها أو تضعف من قوتها من طول مجاورتها لها، وذلك لأن اليهود الذين أووا إلى جزيرة العرب لم يهتموا بنشر دينهم غيرة على هذا الدين من أن يتساووا فيه مع الشعوب الأخرى، وترفعاً بشعب الله المختار على أن ينحط إلى مستوى الطبقات الأخرى لحقارتها فى نظرهم.

إنما كان اهتمام بنى إسرائيل بالناحية المادية والبحث عن طرق الكسب واتخاذ قواعد ومستعمرات أقاموها على طريق الحجاز تسهيلاً لتجارتهم وتجارهم، أى لتكون محاط (محطات) ينزلون بها وقت الحاجة، ولذا فقد ظهرت اليهودية فى اليمن ويثرب وبالعقبة.

ظهرت اليهودية فى اليمن على شكل دولة ذات حكومة [3] أما ظهورها فى يثرب، فالمرجح أنه حدث فى زمن متقدم، تحت تأثير المنافع المادية فحينما كثر عددهم بأورشليم (القدس) وتطلعت نفوسهم إلى الاستئثار بأموال التجارة والمنفعة تسربت طوائفهم من

---

(١) هذا البئر أمام صنم العزى كان يطلق عليه اسم العبقب.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص٣٥٢.

(٣) عن انتشار اليهودية باليمن راجع ما سبق ذكره بالصفحة ٥٧ من هذه الدراسة.

أورشليم إلى العقبة ثم ظهروا فى يثرب مهاجرين، واستوطنوا الجهات الأكثر صلاحية لهم ولمعيشتهم كأرض خيبر ووادى القرى وأرض تيماء، وكل هذه الجهات واقعة فى شمال الحجاز، ولها أهمية اقتصادية، فبعضها يشرف على الطرق التجارية والبعض ينعم بخيرات الجزيرة.

وقد استطاع اليهود أن يعيشوا فى بلاد العرب بوسائلهم التقليدية من المكر والخداع والكيد، ونجحوا إلى حد كبير في الاستئثار بخيرات البلاد، ولكن دينهم نفسه لم يجد طريقاً إلى قلوب العرب.

الديانة المسيحية فى شبه الجزيرة العربية

هى شريعة المسيح عيسى عليه السلام، وتسمى النصرانية نسبة إلى الناصرة، وهى أول قرية بث فيها عيسى دعوته، ولا يعرف على وجه التحديد زمن دخول هذه الديانة لبلاد العرب، ويعتقد أنها تعربت من فلسطين حوالى القرنين الثالث والرابع الميلاديين بأحد الاحتمالات التالية:

- أن تكون القوافل التجارية سبباً لنقل هذا الدين إلى جزيرة العرب وأن يكون بعض تجار العرب الذين رحلوا إلى الشام اعتنقوها وفضلوها على الوثنية فنقلوها إلى بلادهم.
- دخلت بلاد العرب بواسطة النصارى أنفسهم الذين عندما وقعت الخلافات المذهبية بين المسيحيين فى القرنين الثالث والرابع (الابن - الأم - روح القدس)، هاجروا إلى بلاد العرب ونشروا تعاليم دينهم بين أهلها.
- كان المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام قد عرفوا المسيحية وقد تنصر بعضهم وشيد الأديرة والكنائس[1]، فإنه لم يكن من المستغرب أن يكون أهل الحجاز قد عرفوا النصرانية عن طريق تلك البلاد التى كانت لهم بأهلها علاقات تجارية وثيقة[2].

والملاحظ على النصرانية أيضاً أنها لم تقض فى بلاد العرب على الوثنية، وذلك ربما راجع إلى تعقد تعاليم هذه الديانة، فلم يعتنقها من العرب سوى القليل، بل جارى المسيحيون العرب فى تعظيم الكعبة، فحجوا إليها ووضعوا فيها صورة مريم والمسيح إلى جانب ما كان فيها من صور إبراهيم وموسى وبعض الملائكة.

---

(١) عن الغساسنة والمناذرة راجع ما سبق ذكره بالصفحات ١٠٠ وما بعدها.
(٢) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٣٦٨.

وأشهر من تدين بالمسيحية من العرب إضافة للغساسنة والمناذرة وسكان نجران باليمن أبو عامر الراهب من أهل يثرب، وورقة بن نوفل من مكة، ونسطاس مولى صفوان ابن أمية ومناس ويوحنا عبد صهيب بن سنان الرومى ونسطور الرومى وابنه جعفر وغيرهم.

التوحيد فى شبه الجزيرة العربية

على الرغم من وجود المجوسية والوثنية واليهودية والمسيحية فى بلاد العرب فقد ظهر من بين العرب حنفاء (موحدين) نفروا من هذه الأديان الأربعة، وتشكوا فيها ولم يهضموا تعاليمها، فتنحوا عنها وقنعوا بما تلقوه عن أبيهم إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

كان أكثر من دان بالتوحيد عرب الحجاز مهبط إسماعيل، وهؤلاء شنوا حرباً شعواء على الأصنام وتخلصوا من بعض العادات مثل وأد البنات واعتقدوا بوجود إله واحد لا شريك له، وحرموا الحرام، كما عرفوا الأشهر الحرم.

وفى الختام، فقد عبد العرب من مظاهر الطبيعة ما زعموا فيه النفع أو اتقاء الضرر، فبعضهم عبد النار وبعضهم عبد الشمس، وبعضهم عبد الأصنام الى غير ذلك من العبادات، فجاء الإسلام بالتوحيد الخالص لله وهو ما وصى به الله نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم.

ولما كان الإسلام فطرياً وبسيطاً، فلقد لقى قبولاً فى كل النفوس، فاعتنقته العرب وكانت للإسلام الغلبة على بقية الديانات.

الفصل الثالث

أيام العرب

أيـــام العـــرب

أيام العرب تسمية أطلقت على الغارات والحروب المشهورة التى وقعت بين القبائل العربية وبعضها الآخر، والتى كانت تقع لأتفه الأسباب، فكانت كثيرة، وغالباً ما كان مردها إلى الجهل والتجاهل بالعرف المعمول به بين القبائل أو خرقه أو للاخذ بالثأر أو الإغارة على القوافل والجيران أو بسبب التفاخر والتباهى.

وبعض هذه الأسباب كالغارة على الجيران والقوافل التجارية اتخذته بعض القبائل مصدراً للاسترزاق، ومن هذه القبائل الصعاليك أو الفتاك.

وهذه الأيام على كثرتها يعوزها الترتيب التاريخى، كما يكتنفها كثير من التناقضات بين مختلف الروايات، وهى فى معظمها من القصص الشعبى اللطيف الذى يتخلله كثير من قطع الشعر.

ومن اشهر هذه الأيام:

• خزاز والحنو:

بطل هذا اليوم هو كليب بن وائل التغلبى الذى حرر قبيلته من نير سيطرة عمرو بن زيد بن مالك بن زيد بن شرحبيل القضاعى المشهور بالمغرق، فافتخر به عرب الشمال وولوه الملك عليهم وأقسموا له بالطاعة، وقد جرت هذه الواقعة التى جرت قرب جبل خزاز بأواخر القرن الخامس الميلادى[1].

كان من نتائج يوم خزاز أن قام عمرو بن زيد بإجلاء قوم من بنى ربيعة بن نزار عن تهامة، كما قام بتهجير بنى حى بن خولان من هناك إلى صعيد مصر فى المراكب عبر البحر الأحمر، وعندما غرق بعضهم، أطلق على عمرو لقب مفرق[2].

لم يطل الأمد بعمرو بن زيد، فقام للانتقام من يوم خزاز، فكانت واقعة يوم الحنو، فثأر من التغلبيين حيث قتل عتاب جد عمرو بن كلثوم وكذلك حاطب بن حلزة سيد بكر بن وائل.

---

(١) الهمذانى، الرجع السابق، ص ٨٦.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص٣١٢.

• يوم الصفقة أو المشقر:

هذا اليوم جرى بين قبيلتي فارس وتميم إذ كانت تميم قد أغارت على قافلة لطيمة لكسرى أبرويز بن هرمز ونهبتها، فانتقم منها هوذة بن على الحنفي صاحب اليمامة الذى دعاهم فى عام شدة ومسغبة فى أحد الحصون وقتلهم غدراً ولم يشفع إلا فى بعضهم الذين كساهم وأطلقهم يوم الفصح، لأنه كان معتنقاً للمسيحية.

كان يوم الصفقة، نسبة إلى إصفاق باب الحصن عليهم، فى مطلع القرن السابع الميلادى، أى قبيل الهجرة، وقرب الوقت الذى أوقع فيه البكريون وبنو عجل بجيش فارس فى ذى قار، الذى يقارن بيوم خزاز من حيث إنه حرر العرب من ربق فارس، كما حرر يوم خزاز المعديين من نير اليمن.

• حرب البسوس:

حرب جرت بين قبيلتى بكر وتغلب أثر مقتل كليب سيد تغلب الذى بلغ مرتبة الملوك واستبد بالناس حتى حرم الأرض على الآخرين، فقتل ناقة تسمى سراب لرجل كان قد نزل ضيفاً على البسوس خالة جساس أخي جليلة زوجة كليب سيد تغلب، فرأى جساس أنه لا سبيل لمحو هذا العار الذى ألحقه به صهره إلا بقتله.

اشتعلت نار الحرب التى قادها أخو كليب وهو الذى عرف بالمهلهل الفارس والشاعر، خال امرئ القيس بن حجر الكندى [1] واستمرت الحرب سجالا لمدة أربعين عاماً، فضرب بها العرب المثل، إذا قالوا: «أشأم من سراب ، وأشأم من البسوس».

• داحس والغبراء

وقعت هذه الحرب بين قبيلتي ذبيان وعبس، بسبب سباق لفرسين (داحس والغبراء) عندما تراهن حذيفة بن بدر بن فزارة سيد ذبيان وقيس بن زهير سيد عبس، وعهد بالتحكيم فى هذا السباق إلى عقال بن مروان بن الحكم، ونشبت الحرب عندما اعترض حذيفة طريق داحس التى كان مقدراً لها الفوز.

وقد جرت عدة وقائع فى هذه الحرب منها يوم العذق ويوم البوار، ومن فرسان هذه الحرب عنترة بن شداد والذى شارك بفرسه الأدهم، وقد توقفت بفضل مساعى

---

(١) عن امرئ القيس بن حجر الكندى، راجع ما سبق ذكره بالصفحة ١٢٢.

الحارث ابن عوف وهرم بن سنان، وقد مجد هذا الصلح الشاعر زهير بن أبى سلمى فى إحدى قصائده.

• الفجــــار:

ومن أشهر الحروب التى وقعت بين قيس وبين كنانة تلك التى عرفت بأيام الفجار، نظراً لاستحلال المحاربين فيها المحارم مما اعتبر فجوراً، وهى أربعة حروب، الأولى منها كانت لأسباب شخصية تافهة من التفاخر بين الشباب أو التعرض لبعض النساء فى سوق عكاظ أو المطالبة بدين، ولم تصل إلى درجة الحرب، بل كان شجاراً أمكن السيطرة عليه بسرعة، اما الحرب الثانية فهى الفجار الحقيقية حوالى سنة ٥٩٠م وكانت بسبب الاعتداء على لطيمة للنعمان بن المنذر التى كان قد سيرها فى حراسة زعيم هوازن وهو عمرو ـ الرحال وتعرض لها البراض بن قيس الذى كان فاتكاً خليعاً فى حماية قريش.

ودارت الحرب بين هوازن وبين قريش وكنانة وحلفائهم من بنى أسد ، وكان من زعماء كنانة حرب بن أمية وعبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة (والد أبى جهل)، أما زعيم هوازن وسليم فكان مسعود بن معتب الثقفى، دارت الحرب سجالاً يوم شمطة ويوم العبلاء لهوازن، ويوم عكاظ لكنانة وقريش إلى أن انتهى الأمر بالصلح ودفع الديات وكانت هذه الحروب فى أواخر القرن السادس الميلادى.

ويضيف ابن الأثير إلى فجارى قريش فجارين للأنصار وذلك من بين الأيام والحروب التى وقعت بين الأوس والخزرج قبل ظهور الإسلام، والتى يذكر منها أكثر من ثلاثة عشر حرباً [1] .

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٣١٧ وما بعدها .

الفصل الرابع

نظام الجوار

نظـــام الجـــوار

تعريف الجوار:

من الممكن تعريف الجوار تعريفاً عاماً بأنه نظام يهدف إلى إسباغ الحماية على فرد أو جماعة فى حاجة إليها.

أهمية الجوار:

يشكل الجوار بهذا المعنى نظاماً من أكثر النظم شيوعاً فى المجتمع العربى قبل الإسلام، ومن أبلغها تأثيراً فى حياته اليومية.

ولا شك أن أهمية هذا النظام ترجع من أساسها إلى افتقاد العرب قبل الإسلام لسلطة مركزية تقر الأمن وتفرض النظام وتكف القوى عن البطش بالضعيف، وتأخذ للمظلوم بحقه من الظالم، فالجوار كان نظاماً أوجدته ضرورات الحياة العربية قبل الإسلام كبديل للسلطة المركزية، وهو بديل مهما كان ناقصاً، استطاع، على نحو أو آخر، وبدرجة أو بأخرى، أن يؤدى وظائف السلطة العامة، وأن يوفر للناس قدراً من الأمن والطمأنينة وأن يدفع عنهم بعضاً من الظلم والاضطهاد وأن يعيد إليهم حقوقاً مغتصبة وأموالاً منتهبة.

ونظراً لما كان لهذا النظام من أهمية بالغة فى حياة العرب نجدهم يجعلون من احترام مقتضياته واجباً يكاد يكون مقدساً، فهم يفخرون به على غيرهم من الشعوب التى لا تعرفه كالفرس والروم، ويوصى ساداتهم وأشرافهم أبناءهم بضرورة مراعاته ويكيل الشعراء الثناء والمدح لمن يحترم جواره، ويهيلون الذم والهجاء على رأس من يغدر بجاره.

وقد ظل الجوار شائع الاستعمال فى صدر الإسلام، استعان به النبى محمد صلى الله عليه وسلم عقب عودته من الطائف وخشية أذى قريش بعد أن مات عمه أبو طالب، بمطعم بن عدى، وكان أحد المشركين، كما أقر صلى الله عليه وسلم إجارة ابنته زينب لزوجها السابق العاص بن الربيع، وكان وقت الإجارة مشركاً قائلاً إنه يجير على المسلمين أدناهم.

هذا وقد عرف العرب قبل الإسلام نوعين رئيسيين للجوار:

أحدهما: جوار الآلهة وغيرها من المعبودات والثانى: جوار البشر

جوار الآلهة وغيرها من المعبودات أو المقدسات:

كانت للعرب قبل الإسلام شأنهم شأن غيرهم من الشعوب أماكن مقدسة يعترف لها بالحرمة، وتمنح الأمان لمن يلوذ بها، ومن هذه الأماكن مكة، فقد كانت الكعبة وما حولها (الحرم) تعد ملاذاً وأمناً لمن أتى إليها واحتمى بها، وامتدت الحرمة إلى المدينة بكاملها فصارت أمناً وأماناً لمن يلوذ بها.

ولم تكن صفة القداسة تقتصر على المعابد وإنما كانت تمتد فتشمل أيضاً قبور زعماء القبائل وساداتها.

كذلك لم تكن ثمة إجراءات معينة ينبغى القيام بها للحصول على الحماية التى يمنحها المعبد أو المقبرة، فكل ما هو مطلوب هو أن يدخل المستجير الحرم، وبمجرد دخوله إليه يصبح آمناً، فمن يعتدى عليه بعد ذلك ينتهك حرمة الجوار ويتعرض من ثم للجزاء المقرر لخرق الجوار.

وطبيعة الجزاء الذى يتعرض له من يعتدى على جوار المعبد أو المقبرة طبيعة مزدوجة فهو جزاء دينى أو غيبى من ناحية، وجزاء مادى أو دنيوى من ناحية أخرى يوقعه به كهنة المعبد أو سدنة الضريح.

جوار البشر:

جوار البشر نوعان: فهو إما جوار جماعة وإما جوار أفراد، فقد تطلب الجوار قبيلة أو وحدة من وحداتها: حى، بطن، عشيرة، وقد يطلب الجوار فرد سواء بمفرده أو مع أسرته، ورغم أن أحكام الجوار فى الحالين واحدة كقاعدة عامة، فإن ثمة فروقاً بينهما.

الجوار الجماعى: ينشأ بالاتفاق بين سيد القبيلة أو الوحدة التى تطلب الجوار وسيد القبيلة التى يطلب جوارها.

ولا يعنى طلب الجوار من قبيلة أو إحدى وحداتها أن يصبح لزاماً على القبيلة التى طلب

إليها الجوار الموافقة على هذا الطلب، فقد تكون لدى القبيلة التى يراد الحصول على جوارها من الأسباب ما يحول دونها والاستجابة لرغبة القبيلة الطالبة.

والهدف من الجوار الذى قد تسعى إليه قبيلة أو إحدى وحداتها هو فى الأعم الأغلب، الحصول على حماية القبيلة التى يطلب جوارها فقد تتعرض قبيلة ضعيفة لهجوم وشيك من قبيلة أقوى تسعى إلى وضع نفسها تحت حماية قبيلة منيعة تقف فى وجه من يريد الاعتداء عليها.

وقد يكون الهدف من الجوار السماح للقبيلة أو إحدى وحداتها بالإفادة من الكلأ والماء الذى يوجد بأرض القبيلة التى يطلب جوارها.

والجوار الجماعى ينشئ التزامات على عاتق كل من الطرفين، فأفراد القبيلة المجيرة يلتزمون بحسن معاملة أفراد القبيلة المستجيرة وبذل كل ما فى وسعهم لحمايتهم والذب عنهم، لذلك يلتزم أفراد القبيلة المستجيرة بأن يسلكوا مسلكاً لا ينطوى على إيذاء لأفراد القبيلة المجيرة أو يتسبب لها فى متاعب أو مضايقات من علاقتها بالقبائل الأخرى.

أما الجوار الفردى حيث يكون طالب الجوار فرد أو أفراد معرضين للقتل على يد خصومهم الذين يطاردونهم ويهددونهم بالقتل.

وقد يلجأ الرجل إلى آخر يطلب جواره آملاً فى أن يمكنه من استرداد ماله الذى فقده بسبب استيلاء آخرين عليه إثر عدوان أو غزو، وقد يطلب الجوار رجل تخلت عنه قبيلته وخلعته لكثرة جناياه، فالخليع لا يمكن يشعر بالأمان فى قبيلة لا حياة له فيها، وأن دمه مهدور، ومن ثم كان يسعى إلى أن يستبدل بعشيرته عشيرة أخرى، وكان الجوار وسيلته لتحقيق ذلك.

وطلب الجوار الفردى لا يتعرض له الرجل فقط إذ قد تطلبه المرأة أيضاً خاصة التى تشقى بزوجها وتريد الخلاص من علاقتها به.

وقد جرت عادة العرب قبل الإسلام بإشهار الجوار عند تمام الاتفاق عليه، وذلك حتى يكون الناس على بينة من أن طالب الجوار قد صار جاراً لمن استجار به، ومن ثم أصبح فى حمايته وتحت رعايته فلا يتعرض له أحد.

وتكشف المصادر الأخبارية العربية أن بعض العرب أجار الطير والحيوان، فقد روى أن

حارثة بن مر خلا ذات يوم فى خيمته فاذا هو بقوم من طيئ ومعهم أوعيتهم، فقال: ما خطبكم؟ قالوا: جراد وقع بفنائك، فجئنا لنأخذه، فركب فرسه وأخذ رمحه وقال: والله لا يعرضن له أحد منكم إلا قتلته، إنكم رأيتموه فى جوارى ثم تريدون أخذه، فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه الشمس وطار، فقال : شأنكم به الآن وقد تحول عن جوارى.

وإذا صحت هذه القصة، فإنها تكشف عن مبالغة بعض العرب فى مفهوم الجوار وذهابهم فيه مذهباً متطرفاً، إظهاراً لمدى عزتهم وقوتهم وتشبيهاً لأفنية منازلهم وخيامهم بحرم المعابد وساحات القبور، وهى إن دلت على شئ فإنها تدل على مدى اعتزاز العربى بفكرة الجوار وتقديسه له.

ينتهى الجوار بطبيعة الحال، بتحقيق الغرض الذى عقد من أجله، غير أن من الممكن إنهاء الجوار أو فسخه أو رده من قبل أحد الطرفين، وفى الأعم الأغلب يكون فسخ الجوار من أحد الطرفين بسبب عدم وفاء الطرف الآخر بالتزاماته.

وقد تكون المبادرة إلى رد الجوار أو فسخه من قبل المستجير ويسعى المستجير إلى فسخ الجوار إذا أساء المجير معاملته أو لقى منه ما يكره وقد يعمد إليه لغير ذلك من الأسباب.

وجرت أيضاً عادة العرب عند فسخ الجوار بإشهار ذلك حتى يعلم الناس به، وإذا كان الفسخ من جانب المستجير وبسبب إخلال المجير بالتزاماته لم يكن المستجير يكتفى عادة بفسخ الجوار أو رده وإنما كان يعمد إلى التشهير بالمجير الذى غدر بعهده وأخل بالتزامه، وكان ذلك يتم علانية على مرأى ومسمع من الناس، وفى بعض الأحيان كان المستجير المغدور يرفع راية للفت أنظار الناس حتى يعلموا غدرة مجيره.

فقد كان من أقبح العيوب عند العرب نقض العهد والغدر وهم يحتقرون من يقعد عن نصرة جاره أو يغدر به حتى أنهم كانوا يرفعون بذلك لواء فى الأسواق تعييراً وتشهيراً.

قال الحادرة (قطبة بن أوس) يخاطب امرأة :

اسمى ويحك هل سمعت بغدرة ... رفع اللواء لنا بها فى مجمع

الفصل الخامس

القتل وجزاؤه

القتـــل وجــزاؤه

عرف العرب قبل الإسلام للقتل جزاءات معينة: كما عرفوا ظروفاً من شأنها إباحة القتل أو إسقاط الجزاء عليه، وأخرى من شأنها تخفيف الجزاء عليه أو تشديده، فكان الجزاء على القتل يتخذ إحدى الصور الثلاث التالية:

الثأر: تسليم القاتل أو أحد أفراد قرابته لجماعة القتيل ـ الدية.

ونستعرض فيما يلى حالات إباحة القتل أو عدم الجزاء عليه: إذ عرف العرب حالات معينة يزهق فيها إنسان روح إنسان آخر، ومع ذلك لم يكن العرف يعدها قتلاً بالمعنى المفهوم، ومن ثم لم تكن تستتبع جزاء فى صورة أو أخرى من صوره، وتتمثل هذه الحالات فيما يلى :

أ ـ وأد الأطفال: فقد عرف العرب وأد الأطفال ذكوراً أو إناثاً وكانوا يلجأون إليه لأسباب متعددة منها أن يكون المولود مشوهاً أو دميماً، ومنها أن يكون الأب عاجزاً عن الإنفاق عليه ومنها أن يكون المولود أنثى ولا يرغب الأب فى الاحتفاظ بها، ففى كل من هذه الحالات كان الأب يعمد إلى وأد مولوده، ولم يكن مثل هذا الفعل يشكل اعتداء على أحد، وبالتالى لم يكن يستتبع أى رد فعل لدى الآخرين، فالأب بوأده مولوده كان يستعمل حقاً تخوله إياه سلطته الأبوية.

ب ـ تقديم الأب ولده قرباناً: عرف العرب قبل الإسلام، قبل غيرهم من الشعوب، القرابين البشرية، فكان للأب الحق فى أن ينذر ابنه بذبحه قرباناً لله، إذا حقق رجاء، كما هو الحال مثلاً عندما نذر عبد المطلب انه إذا من الله عليه بعشرة أبناء بلغوا مبلغ الرجال أن يذبح أحدهم قرباناً لله، كما نذر عبد

المطلب أيضاً أن يذبح أحد أبنائه إن هو تمكن من حفر بئر زمزم [1]، ذبح الرجل أحد أبنائه قرباناً لله كان يعد مظهراً من مظاهر السلطة الأبوية، ومن ثم كان يعد حقاً للأب لا يستتبع أى رد فعل.

ج ـ قتل الأب ولده: كانت للأب سلطة تأديب أولاده وعقابهم، وكان له أن يذهب في عقاب ولده حد قتله، ومن ثم فإن قتل الأب ولده يعد استخداماً لحق يقره العرف.

د ـ الخلع : من الحالات التى لم يكن القتل فيها يستتبع جزاء من أى صورة من صوره مثل الخليع، فقد جرت عادة العرب قبل الإسلام بأن تخلع الأسرة أو العشيرة من تكثر جناياته من أعضائها، لكى تتخلص من المسئولية عما قد يأتيه من جنايات مقبلة، فقد روى أن الرجل كان يأتى بابنه إلى الموسم ويقول : إنى قد خلعت ابنى هذا، فإذا جر لم أضمن، وإن جر عليه لم أطلب، وكذلك إذا خلعته عشيرته كان قومه يعلنون إنا خلعنا فلاناً، فلا نأخذ أحداً بجناته يجنى عليه ولا نؤخذ بجناياته التى يجنيها.

وكان من اللازم أن يتم الخلع بصورة علنية على مرأى ومسمع من جمهور الناس، ولذلك كان يعلن فى موسم الحج وفى الأسواق كسوق عكاظ وقد ينادى به منادى بأعلى صوته يطوف بالأحياء، وقد يكتبون كتاباً يحفظونه عندهم أو يعلقونه فى محل عام ليقف الناس عليه.

لذلك يصبح دم الخليع مهدوراً فلا يتعرض قاتله للثأر، ولا تؤخذ منه دية؛ لذلك يضطر الخليع لطلب الجوار، وإن كان العرب لا يرحبون بإجارة الخلعاء خوفاً من مغبة جناياتهم، الأمر الذى دفع الخلعاء إلى حياة الصعلكة، ومن

---

(١) راجع ما سبق بالصفحة ١٣٤ من هذه الدراسة.

أشهر الصعاليك عروة بن الورد والبراض بن قيس الضمرى.

هـ - إسقاط الجنين: كذلك يبدو أن إسقاط الجنين لم يكن يستتبع دية عند بعض العرب قبل الإسلام، فقد روى أن امرأتين من هذيل اقتتلنا، مزقت إحداهما الأخرى بحجر، فأصابت بطنها وهى حامل، فقتلت ولدها الذى فى بطنها، فاختصموا إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فقضى أن دية ما فى بطنها غرة عبد أو أمة، فقال ولى المرأة التى غرمت: كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل فمثل ذلك يطل «أى يهدر دمه».

أن يكون القتيل مستجيراً:

كان العرب على ما يبدو يعدون الجوار ظرفاً مشدداً يستتبع تغليظ الجزاء على المعتدى، فقتل رجل رجلاً آخر بينما الأخير فى جوار رجل ثالث ينطوى فى واقع الأمر على اعتدائيين، فهو اعتداء على المستجير بقتله واعتداء على المجير بانتهاك جواره وامتهان كرامته والحط من شأنه، ولذلك قلما يكتفى المجير فى هذه الحالة بالثأر من القاتل أو أحد أفراد قرابته، والغالب أن يسرف فى القتل، وإذا استعيض عن الثأر بالدية لم يكتف بدية واحدة، وإنما تضاعف الدية أضعافاً، فقد روى أن أبا دؤاد كان فى جوار الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، فخرج صبيان الحى يلعبون فى غدير، فغمس الصبيان ابن أبى دؤاد فقتلوه، فخرج الحارث فقال: لا يبقى فى الحى صبى إلا غرق فى الغدير، فودوا ابن أبى دؤاد ديات عدة.

الباب الخامس

بعض أحوال المرأة العربية قبل الإسلام

الباب الأول

بعض أنماط الروابط الزوجية عند العرب

- تعـــدد الأزواج
- زواج الســـبى
- زواج المتعـــة أو الـــزواج الموقـــوت
- الخلافة على الأرامل أو وراثة النساء

بعض أنماط الروابط الزوجية عند العرب قبل الإسلام (*)

كان العرب قبل الإسلام يمارسون أنواعاً من الروابط الزوجية تتمثل فى : تعدد الأزواج، زواج السبى، زواج المتعة، والخلافة على الأرامل.

١ ـ تعدد الأزواج:

وهو أن تكون الزوجة واحدة، والأزواج متعددون، وتدل الشواهد على أن العرب القدماء عرفوا لتعدد الأزواج شكلين هما:

أ ـ تعدد الأزواج الذى يشترك فيه الإخوة فى زوجة واحدة

ب ـ تعدد الأزواج الذى يشترك فيه عدد من الرجال لا يرتبطون فيما بينهم برابطة الأخوة فى زوجة واحدة.

فمن الشواهد على تعدد الأزواج الذى يقوم بين الإخوة ما ذكره سترابو حيث يقول: إن الأخوة يشتركون فى كل شىء فى المال ، وفى الزوجة، فللإخوة جميعهم زوجة واحدة تكون مشتركة بينهم، ولكن الرئاسة تكون للأخ الأكبر وإذا أراد أحد الإخوة الاتصال بالزوجة وضع عصاه على باب الخيمة لتكون علامة تفهم الآخرين أن أحدهم فى داخلها فلا يدخلها، وهم جميعاً يحملون العصى معهم أما فى الليل فتكون الزوجة من نصيب الأخ الأكبر.

ولم يشر سترابو إلى القاعدة المتبعة لدى هذه لقبائل فى نسبة الأولاد المولودين من الزوجة المشتركة.

ومن الشواهد على تعدد الأزواج الذى يكون بين رجال لا تربط بينهم رابطة أخوة ما جاء فى حديث السيدة عائشة رضى الله عنها، عن أنكحة العرب إذ ذكرت «يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها» وقد تضمن الحديث أيضاً بياناً لكيفية تحديد نسب ولد المرأة فى هذا النوع من الروابط الزوجية، فقد جاء فيه: أن المرأة إذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع، أرسلت إليهم، فلم يستطيع رجل منهم أن يمتنع

(*) هذا الفصل تم نقله بتصرف عن محمود سلام زناتى، نظم العرب قبل الإسلام. القاهرة ١٩٩٢م.

حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم، إنى ولدت، فهو ابنك يا فلان، وتسمى من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل.

٢ ـ زواج السـبى:

كان العرب قبل الإسلام، كثيراً ما يغزو بعضهم بعضاً، وكانت القبيلة المنتصرة تستولى على كل شيء من القبيلة المهزومة من غنائم وأسلاب وفى مقدمة الغنائم والأسلاب النساء، خاصة الشرائف منهن؛ إذ فيه إظهار لقوة واقتدار القبيلة المنتصرة بقدر ما فيه من إذلال وتحقير للقبيلة المهزومة وكان السبى يقع على الفتيات كما ما يقع على النساء المتزوجات [1] .

وكان العرف يقر للرجل الذى سبا فتاة أو امرأة بالحق فى وطئها ومعاشرتها معاشرة الأزواج، فقد روى عن ابن هيولة الغسانى أنه سبى امرأة الحارث بن عمرو الكندى فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة، وقد كان نال منها، فقال لها: هل كان أصابك، فقالت: نعم والله، فما اشتملت النساء على مثله، فأوثقها بين فرسين ثم استحفزهما حتى قطعاها [2].

وقد تسبى المرأة وهى حامل وتلد فى بيت سابيها، وفى مثل هذه الحالة لم يكن الولد ينسب إلى زوج المرأة قبل السبى، وهو الذى كان سبباً فى إنجابه وإنما كان ينسب لمن سباها.

وقد يستنقذ السبية أهلها، وقد تكون حملت خلال فترة سبيها ممن سباها، فإذا ولدت نسب الولد إلى من كان زوجاً لها إن كانت متزوجة قبل سبيها، أو ينسب إلى أهلها إن لم يكن سبق لها الزواج.

٣ ـ زواج المتعة أو الزواج الموقوت:

وهو الزواج الذى تحدد له منذ انعقاده مدة معينة ينتهى بانتهائها وليس ثمة حد أدنى أو حد أقصى لهذه المدة وإن كان الغالب أن تكون قصيرة، وثمة شواهد تدل على معرفة

---

(١) قال عروة بن الورد :

رحلنا من الأجيال أجيال طيئ ... نسوق النساء عوذها وعشارها

(٢) وقد قال فى ذلك :

كل انثى وإن بدالك منها ... اية الود حبها خيتعور

إن من غره النساء بود ... بعد هذا لجاهل مغرور

العرب قبل الإسلام باليمن لهذا النوع من الزواج، إذ يذكر المؤرخ الروماني اميانوس مارسيلينوس ٣٢٥ ـ ٣٩٨ م عن هذا الزواج في جنوب الجزيرة العربية فيقول: إن عرب العربية السعيدة يمضون حياتهم في تحولات مستمرة، وهم يؤجرون نساءهم لقاء مبلغ من النقود لمدة محددة طبقاً للاتفاق، ولجعله نوعاً من الزواج تهب الزوجة المقبلة لزوجها، على سبيل البائنة حربة وخيمة لكي تتركه بعد حلول اليوم المحدد.

ومن الواضح أن الزواج الموقوت أو زواج المتعة يؤدي إلى خلط الأنساب لا سيما أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يفرضون على المرأة عدة عقب انتهاء هذا الزواج وقبل دخولها في علاقة زوجية جديدة، فمن المتصور أن تعقد المرأة أكثر من زواج من هذا النوع في طهر واحد، وإذا حملت وولدت فإنها من المعتقد أنها تلحقه بالزوج الأخير أو بالأم بسبب اتصال الأولاد المباشر بالأم ولارتحال الأب عن الأم فيأخذ الأولاد نسب الأم ونسب عشيرتها.

٤ ـ الخلافة على الأرامل أو وراثة النساء:

المقصود بالخلافة على الأرامل أو وراثة النساء، العرف السائد لدى كثير من المجتمعات القبلية والذي يقضي بأن الرجل إذا مات عن أرملة خلفه عليها أحد أقاربه الأقربين، وتخضع الخلافة على الأرامل لدى هذه المجتمعات لقواعد متشابهة، من أكثر هذه القواعد شيوعاً تلك التي تقضي بعدم اعتبار العلاقة بين الأرملة وقريب زوجها زواجاً جديداً، ويترتب على عدم اعتبار هذه العلاقة زواجاً جديداً أن قريب الزوج لا يدفع مهراً جديداً وإنما يعاشرها بالمهر الذي دفعه زوجها المتوفي، ولهذا أيضاً لا ينسب الأولاد الذين يولدون من علاقة الأرملة بقريب الزوج إلى هذا القريب، وإنما إلى الزوج الميت نفسه، ولو كان الحمل بهم تم بعد وفاته، فقريب الزوج الميت مجرد بديل عضوي له، تقتصر مهمته على تمكين أرملته من الاستمرار في الإنجاب لاسمه ولمصلحته ومصلحة عشيرته.

وفي الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ [1] خير شاهد على أن العرب قبل الإسلام كانوا يمارسون الخلافة على الأرامل أو وراثة النساء.

---

(١) سورة النساء، الآية ١٩.

الفصل الثانى

نظام المهر

- مقدار المهر
- المسئول عن دفع المهر
- صاحب الحق فى المهر
- حالات استرداد المهر

نظـــام المـــهر

عرف العرب قبل الإسلام طرقاً متعددة للزواج نذكر منها زواج السبى وزواج البدل وزواج المهر.

* **زواج السبى** : كان يحدث عادة فى أعقاب الحروب القبلية حيث يتزوج الرجل من مسبيته، ومثل هذا الزواج بطبيعة الحال لم يكن يتطلب موافقة المسبية أو أهلها، كما لم يكن يتطلب دفع صداق أو مهر إلى المرأة أو أوليائها.

* **زواج البدل** : وهو ما كان يعرف بنكاح الشغار فكان يتمثل فى أن يزوج الرجل موليته لرجل على أن يزوجه الأخير موليته دون أن يدفع أى منها مهراً للآخر، ورغم أن هذه الطريقة فى الزواج على ما يبدو أقدم من زواج المهر، فإن كل الدلائل تشير إلى أنها لم تكن شائعة فى العصر الجاهلى نظراً لما كانت تنطوى عليه من عيوب ومضايقات بالمقارنة بزواج المهر.

* **زواج المهر أو الصداق** : وهو الزواج الذى يقتضى قيام الراغب فى الزواج أو من يقوم مقامه بدفع قدر من المال إلى ولى المرأة التى يرغب فى الزواج منها، فكان أكثر طرق الزواج شيوعاً عند العرب القدماء .

وكان للمهر فى هذا العصر قواعد تنظمه من حيث جوانبه المختلفة، ورغم أن معلوماتنا عن نظام المهر قليلة متناثرة فسوف نحاول الوقوف على ملامحه الرئيسية من حيث المسائل: نوع المهر، مقداره، كيفية دفعه، المسئول عنه وحالات استرداده.

•نـوع المـهر

المهر مقدار من المال يدفعه الراغب فى الزواج أو يدفع لحسابه إلى ولى المرأة التى يرغب فى الزواج منها، ومن الطبيعى أن يختلف نوع المال الذى يدفع على سبيل المهر تبعاً لطبيعة حياة المجتمع الاقتصادية.

ـ ولما كان الرق شائعاً فى شبه جزيرة العرب، ولما كان الأرقاء يستخدمون فى كثير من الأحيان رعاة للإبل فإننا نجد المهر فى بعض الأحيان يشتمل على عبد أو أكثر، وكان ذلك

يحدث، بطبيعة الحال، عندما يكون الراغب فى الزواج على جانب من الثراء، من ذلك مثلاً أن ذا الجدين بن قيس بن خالد زوج بنته للقيط بن زرارة على مائة من الإبل. ليس فيها مصبورة «مشرفة على الهلاك» ولا ناب «مسنة» ولا كزوم «ذهب أسنانها هرماً»، وتزوج مدرك من بنى عامر خود بنت مطرود البجلية على مائة ناقة ورعاتها، ولما شهر أمر المجنون وليلى وتناشد الناس شعره فيها، خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء، وخطبها ورد بن محمد العقيلى وبذل لها عشراً من الإبل وراعيها.

كذلك لما كان كثير من القبائل العربية على صلة مباشرة أو غير مباشرة بالحضارات المجاورة، فقد شاع لديها استخدام العملات الخاصة بهذه الحضارات ومن الطبيعى والأمر كذلك أن تستخدم العملة الأجنبية ضمن مكونات المهر، ولهذا نجد المهر أحياناً يشتمل على مبلغ من النقود بالإضافة إلى عدد من الإبل، ومن ذلك مثلاً أن الحارث بن سليل الأسدى تزوج الزباء ابنة حليفه علقمة بن حفصة على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم كما يرون أن المهر الذى قدمه النبى صلى الله عليه وسلم للسيدة خديجة بنت خويلد كان خمسمائة درهم، وقيل إنه أصدقها اثنى عشرة أوقية ذهب ونشا.

• مقدار المهر

ليس ثمة شك فى أن مقدار المهر كان يختلف من قبيلة إلى أخرى، وهناك من الشواهد ما يدل على أن من القبائل العربية من اشتهر بالمغالاة فى المهور من ذلك مثلاً قبيلة كندة، التى عرفت بالتغالى فى المهور، وقد روى عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اللهم اذهب ملك غسان، وضع مهور كندة» إذ كانوا لا يزوجون بأقل من مائة من الإبل، وربما مهرت الواحدة ألفاً.

ليس ثمة شك فى أن وضع المرأة الاجتماعى كان له أثره فى تحديد مقدار المهر، فمهر بنات شيوخ القبائل وساداتها كانت تتجاوز كثيراً مهور بنات عامة أفراد القبيلة، كذلك لا شك أن صفات الفتاة أو المرأة كان لها تأثيرها فى تحديد مقدار المهر، أيضاً كون المرأة تتزوج للمرة الأولى أو سبق لها الزواج وطلقت أو ترملت، كانت عوامل لا شك لها أثرها فى تحديد مقدار المهر.

يعتقد أن المهر كان يدفع علانية على مرأى ومسمع من عدد من الشهود ويعتقد أيضاً

أن دفع المهر يتم كاملاً قبل انتقال الزوجة إلى زوجها وفى البعض الآخر يدفع جزء من المهر قبل الزواج والجزء الآخر أثناء قيام الرابطة الزوجية. بل إن بعض القبائل تدفع جزء من المهر والجزء الثانى بعد أن تلد المرأة طفلها الأول.

المسئول عن دفع المهر:

كان الراغب فى الزواج نفسه هو الذى يقوم بتوفير رءوس الحيوانات أو مقدار النقود أو غير ذلك من الأشياء، ويتحقق ذلك عندما يكون للراغب فى الزواج ثروته الخاصة به أو من ثروة أبيه خاصة فى حالة بكور سن الزواج.

صاحب الحق فى المهر:

هناك من الشواهد ما يدل على أن المهر كان فى العصر الجاهلى يعد حقاً لولى المرأة وليس حقاً للمرأة نفسها، كما أن هناك شواهد أخرى تدل على أن بعض الآباء خاصة فى المدن مثل مكة وغيرها جرت عادتهم بإعطاء بناتهم المهور التى تدفع بمناسبة زواجهن.

والمعروف أن الإسلام هو الذى جعل لأول مرة المهر حقاً للمرأة نفسها دون أبيها أو وليها كما وجد اصطلاح الصداق للدلالة على ما يقدم من هدية للمرأة نفسها، بينما المهر كان يستخدم للدلالة على الأموال التى تدفع لأولياء المرأة.

حالات استرداد المهر:

عرف العرب قبل الإسلام الطلاق، فكان للزوج الحق فى المطالبة برد ما دفع من مهر لأهل المرأة، كما كان يفعل ذلك أيضاً أهل الزوج فى حالة وفاته ورفض الأرملة قبول قريب الزوج عشيراً لها فى ظل النظام المعروف بوراثة النساء أو الخلافة عليهن وذلك ما يؤكده قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين امنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية ١٩.

الفصل الثالث

أهلية المرأة المالية

أهليـة المـرأة الماليـة

تمتعت المرأة العربية قبل الإسلام بأهلية مالية كاملة، فقد تمتعت بأهلية الوجوب فكانت أهلاً لاكتساب الحقوق والتحمل بالالتزامات المالية، كما تمتعت بأهلية الأداء، فكانت أهلاً - بدءاً من سن معينة - لإجراء التصرفات القانونية المختلفة التى تكسبها حقاً أو تحملها بالتزام، وتدل الشواهد على أن المرأة البدوية والمرأة الحضرية، كانتا فى هذا الشأن على حد سواء.

فمن الدلائل على أنها كانت لها ذمة مالية خاصة، فقد روى أن غنية بنت عفيف، وهى أم حاتم، كانت ذات يسار، وكانت من أسخى الناس وأقراهم، وكانت لا تمسك شيئاً تملكه، فلما رأى إخواتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها مالها فمكثت دهراً لا يدفع إليها منه شيئًا حتى إذا ظنوا أنها وجدت ألم ذلك أعطوها صرمة من إبلها فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها فى كل سنة تسألها، فقالت لها: دونك هذه الصرمة فخذيها فوالله لقد عضنى من الجوع ما لا أمنع منه سائلاً أبداً.

كذلك كانت السيدة خديجة بنت خويلد، رضى الله عنها، من أكبر تجار قريش وأكثرهم مالاً، وأوفرهم غنى، وروى أن عبد الله بن أبى ربيعة كان تاجراً موسراً، وكان متجره إلى اليمن، وكان من أكثرهم مالاً وأن أمه أسماء بنت مخربة كانت عطارة يأتيها العطر من اليمن.

فالشواهد السابقة، وأخرى غيرها، تدل فى وضوح على أن المرأة العربية كانت تتمتع بأهلية تملك الأموال المختلفة.

وثمة مصادر عديدة كان بوسع المرأة الاكتساب ومنها بفضل ممارسة بعض الحرف أو الصناعات مثل الكهانة أو العرافة أو السحر، كما مارسن التطبيب وتزيين النساء والتوليد والختان وإرضاع الأطفال، وهناك من اشتغلن بالتجارة التى عن طريقها استطاعت بعض النساء تكوين ثروات خاصة بلغت فى بعض الأحيان شأواً عظيماً

كالسيدة خديجة بنت خويلد، رضى الله عنها، وهند بنت عتبة زوج أبى سفيان، وأسماء بنت مخربة وغيرهن.

كما حصلت بعض النساء على نصيب من الدية التى تدفع فى حالة قتل أحد أقاربها الأقربين وبخاصة فى حالة قتل أحد أولادها.

يدلنا على ذلك الخبر التالى: روى أنه قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟! قال: تعلمته من قيس بن عاصم المنقرى، رأيته قاعداً بفناء داره محتبياً حمائل سيفه يحدث قومه، حتى أتى برجل مكتوف ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك، فوالله ما حل حبوته ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه، فقال له: يا ابن أخى أثمت بربك، ورميت نفسك بسهمك وقتلت ابن عمك ثم قال لابن له آخر: قم يا بنى فوارى أخاك، وحل أكتاف ابن عمك وسق إلى أمه مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة.

كذلك كانت المرأة أهلاً لأن تكون لها أموالها الخاصة رغم كون أبيها ما زال على قيد الحياة، فقد كانت للبنت ذمتها المالية الخاصة بها.

الفصل الرابع

- البليــــــة
- حداد الأرملة
- عدة الطـلاق
- اعتــزال المــرأة الطامــث
- حجاب الفتاة عند بلوغها
- النسـاء لا يــحلبن الماشـية
- وأد البنـــــات

البَلِيــــَّة

يحيط بالموت، لدى مختلف الشعوب، الكثير من العادات، فقد جرت عادة بعض القبائل العربية قبل الإسلام بعقل ناقة الميت عند قبر صاحبها، والتي كانوا يسمونها بالبلية.

ويفسر ابن أبى الحديد معنى البلية فيقول: «والبلية أنهم إذا مات منهم كريم تلوا ناقته أو بعيره، فعكسوا عنقها وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها فى حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها وربما سلخت وملئ جلدها ثماماً (الثمام: الخوض) وكانوا يزعمون أن من مات ولم يبل عليه حشر ماشياً، ومن كانت له بلية حشر راكباً على بليته».

هذا ومن المحتمل أن العرب كانوا يعتقدون أن الإنسان بموته ينتقل إلى عالم آخر شبيه بالحياة الدنيا، ومن ثم يكون فيه بحاجة إلى دابة يمتطيها كما كان يفعل قبل موته، ثم تطور الأمر وصارت الناقة لازمة لمجرد ركوبها عند المعاد حتى لا يضطر إلى السير على قدميه.

ونظراً لأهمية البعير أو الناقة كوسيلة للانتقال فى ظنهم عند الحشر، حرص الآباء على أن يوصوا أبناءهم بالبلية.

قال عويمر النبهانى يوصى ابنه:

أبنــــى لا تنـسى البليـــة إنـــها   لأبيـــك يـــوم نشـــوره مـــركوب

وقال عمرو بن زيد المتمنى يوصى ابنه:

أبنـــى زودنـــى إذا فـــارقتنى   فى القبر راحلـــة برحـــل قاتر

للبعـث أركبهـا إذا قيل اظعنوا   مستوثقين مـعاً لحشر الحاشر

مــــن لا يوافيـــه عـــلى عثراته   فالخلق بين مـــدفع أو عـــاثر

حداد الأرملة

كانت المرأة الأرملة عند العرب قبل الإسلام ملزمة بالحياة فى عزلة بعيدة عن كل مظاهر التزين والتجمل لمدة عام كامل قبل السماح لها باستئناف حياتها العادية والدخول فى رابطة زوجية جديدة [1] .

جاء فى صحيح مسلم جـ ١١٤/١٠ : أن المرأة كانت إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشاً ولبست شر ثيابها ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة، ثم تؤتى بدابة، حمار أو شاة أو طير فتفتض به، فقلما تفتض بشىء إلا مات، ثم تخرج فتعطى بعرة، فترمى بها، ثم تراجع ما أحبت من طيب أو غيره.

وفى تصورنا أن انتظار المرأة لمدة سنة عند بعض القبائل العربية بعد وفاة الزوج وقبل الدخول فى علاقة زوجية جديدة مرده إلى اعتقادهم أن للموت نجاسة أكثر ما تكون التصاقاً بزوجة المتوفى واعتقادهم أنه بعد مضى سنة تكون هذه النجاسة قد ضعفت، ومن ثم لا تعود الأرملة تشكل مصدر خطر لمن يتصل بها عن قرب أو لمن يعاشرها.

---

(١) عن أنواع الروابط الزوجية، راجع ما سبق ذكره بالصفحة ١٧١ من هذه الدراسة.

عـــدة الطـــلاق

روى محمد بن حبيب: أن من سنن العرب قبل الإسلام أنه «لم يكن للنساء عدة يعتدونها عند الطلاق، وقد ولد منهن عدة على فراش أزواجهن من أزواجهن السابقين».

وكانت المرأة المطلقة تتزوج فى الجاهلية، فإن كانت حاملاً عد حملها مولوداً من زوجها الجديد، ويكون الزوج عندئذ والداً شرعياً، ولو كانت الأم تعرف أن حملها هو من بعلها الأول.

اعتزال المرأة الطامث

روى ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية الكريمة ﴿ويسألونك عن المحيض﴾ أن أهل الجاهلية كانوا لا تساكنهم حائض فى بيت ولا تؤاكلهم فى إناء فأنزل الله تعالى ذكره فى ذلك، فحرم فرجها ما دامت حائضاً وأحل ما سوى ذلك.

ومعنى هذا أن بعض العرب قبل الإسلام كانوا يجعلون من الحيض سبباً فى فرض العزلة الكاملة على المرأة الطامث طيلة فترة الحيض فكانوا يفرضون عليها العيش فى مكان خاص والامتناع عن تناول الطعام مع الآخرين، ثم جاء الإسلام فقصر اجتناب الطامث على حده الأدنى وهو معاشرتها جنسياً.

ويعتقد أن فرض العزلة الكاملة على المرأة الطامث يرجع إلى الاعتقاد بأن دم الطمث يصيبها بنجاسة تشكل خطراً داهماً على كل إنسان أو حيوان يقترب منها.

حجاب الفتاة عند بلوغها

ورد فى الأخبار أن دار الندوة كانت مرجع أهل مكة فى كل أمر من أمورهم صغر أم كبر حتى أن «الجارية إذا حاضت أدخلت دار الندوة، ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف

ابن عبد الدار درعها ثم درعها إياه وانقلب بها إلى أهلها فحجبها، وكان عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار يسمى محيضياً.

فهذا الخبر يشير إلى أن رؤية الفتاة حيضتها للمرة الأولى كانت تستتبع اتخاذ إجراءات معينة، تتمثل في إدخالها دار الندوة حيث يتولى شخص معين شق درعها ثم تدريعها إياه، وبعد انتهاء هذه المرحلة تبدأ مرحلة أخرى حيث يعود بها أهلها فيحجبها.

ويستهدف هذا الإجراء إعلام المجتمعين بأن الفتاة قد بلغت الحيض، وبذلك انتقلت من مرحلة الصبا إلى مرحلة الأنوثة الكاملة، فأصبحت بذلك صالحة للزواج ويأتي حجبها أمراً مكملاً لشعيرة الانتقال يستهدف إعدادها جسدياً للزواج.

النساء لا يحلبن الماشية

روى أبو عبيدة أن للعرب مثلاً «يحلب بني وأضب على يديه» وذلك أن امرأة غاب عنها رجالها الحلابون وعندها صبي قد جاع وعطشوا فلما خافت عليه جاءت به إلى شاة فوضعت يده على طبيها وهي تعصر فوق يده وتحلب، وهي تقول: يحلب بني، وأضب على يديه.

وإنما فعلت ذلك فراراً من العيب أن تعير بذلك، قال : والضب : الحلب بأربع أصابع.

وتدل الشواهد على أن العرف لدى بعض القبائل العربية كان يحظر على النساء حلب الماشية ويجعل منه عملاً من أعمال الرجال.

وهذا الحظر كان، على ما يبدو، متبعاً لدى القبائل البدوية دون القبائل المستواطنة، يتضح ـ ذلك من عبارة الميداني الاعتراضية «والنساء لا يحلبن بالبادية» مما يفيد أن الحظر كان مقصوراً على نساء البادية دون غيرهن، بل من المحتمل أن القبائل البدوية لم تكن تحظر جميعها على النساء حلب الماشية وأن منها ما كان يسمح لهن به.

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٤٥ .

أكـل الـدم المسفوح

ثمة شواهد عدة على أن عادة أكل الدم المسفوح من الحيوانات وهى مازالت على قيد الحياة، كانت معروفة لدى البدو من العرب قبل الإسلام، قال تعالى: ﴿قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسق أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ [١] .

وجاء فى الأخبار أن العرب كانوا يفصدون عرق الناقة ليخرج الدم منه فيشرب، يفعلونه أيام الجوع، كما كانوا يأخذون ذلك الدم ويسخنونه إلى أن يجمد ويقوى، فيطعم به الضيف فى شدة الزمان إذا نزل بهم ضيف، فلا يكون عندهم ما يقرى به، ويشح أن ينحر المضيف راحلته فيفصدها، والفصيد دم كان يوضع فى الجاهلية فى معى من فصد عرق البعير ويشوى، وكان أهل الجاهلية يأكلونه، وتطعمه الضيف فى الأزمة.

المــــرأة العربيــــة

لم تكن المرأة العربية قبل الإسلام موضع استخفاف العربى أو إهانته كما يظن، بل كانت موضع كرامة الرجل بدليل أنها كانت مطلع قصيدته، وكما يقال: فالشعر ديوان العرب.

ولعل العرب كانوا أول أمة للمرأة فيها على الأقل عند بعض القبائل، من فرط الكرامة وسناء الذكر وشرف المنزلة ما لم تتشرف به امرأة أخرى فى أى أمة، فقد كان من حق المرأة العربية أن تختار الرجل وأن تطلقه، وكن يجلسن إلى خطابهن من الرجال يتبادلون شئون الحديث، فإذا عرفت فى خطيبها ما يعيبه ردت خطبته وليس لأهلها أن يكرهوها عليه.

وكان من أجمل ما يمدح به الرجل أن يقال له : «لله درك» أى الذى عرضه نظيف ومصان من ناحية زوجته، كما كانت أكبر مذمة إذ قيل له : «لا أب لك» فقد كان العربى شديد الحرص على صيانة عرضه .

وقد اعتبروا كل امرأة كفئاً لكل رجل وليس كل رجل كفئاً لكل امرأة، كما يميزون المرأة العربية بالتصون والاحتشام رغم دخولها مجالس الرجال والأسواق كسوق عكاظ لتنشد الشعر ويجتمع حولها خلق كثير لسماعه.

غير أن احترام المرأة لم يكن أمراً عاماً بين العرب جميعاً فقد كان بينهم من يسىء معاملتها، وأكثر ما يكون ذلك بين الصعاليك وشرارهم فيمن يقعن سبايا .

وأد البنـــات

اختلفت الآراء الآن فى التفريق بين معنى الوأد والقتل ويعتقد أن انتشار ظاهرة الوأد فى المجتمع العربى قبل الإسلام كانت بسبب الخوف أو الحرص على العرض بالدرجة الأولى؛ إذ كان الوأد للإناث دون الذكور، ثم أتى بعد ذلك خشيتهم من الفقر كما يستدل على ذلك من نصوص القرآن الكريم ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ أو من قوله تعالى : ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ .

كما أن هناك من يرى أن سبب الوأد للبنات كان دينياً بحتاً، إذ أن العرب كانوا يقسمون نتاج الإنسان قسمين: طاهر زكى وهو جنس الذكور، وهو من خلق آلهتهم، وقسم رجس وهو جنس الإناث ويجب التخلص منه بوأده تقرباً إلى الله، فقال فيهم عز وجل: «فاستفتهم ألربك البنات ولكم البنون»

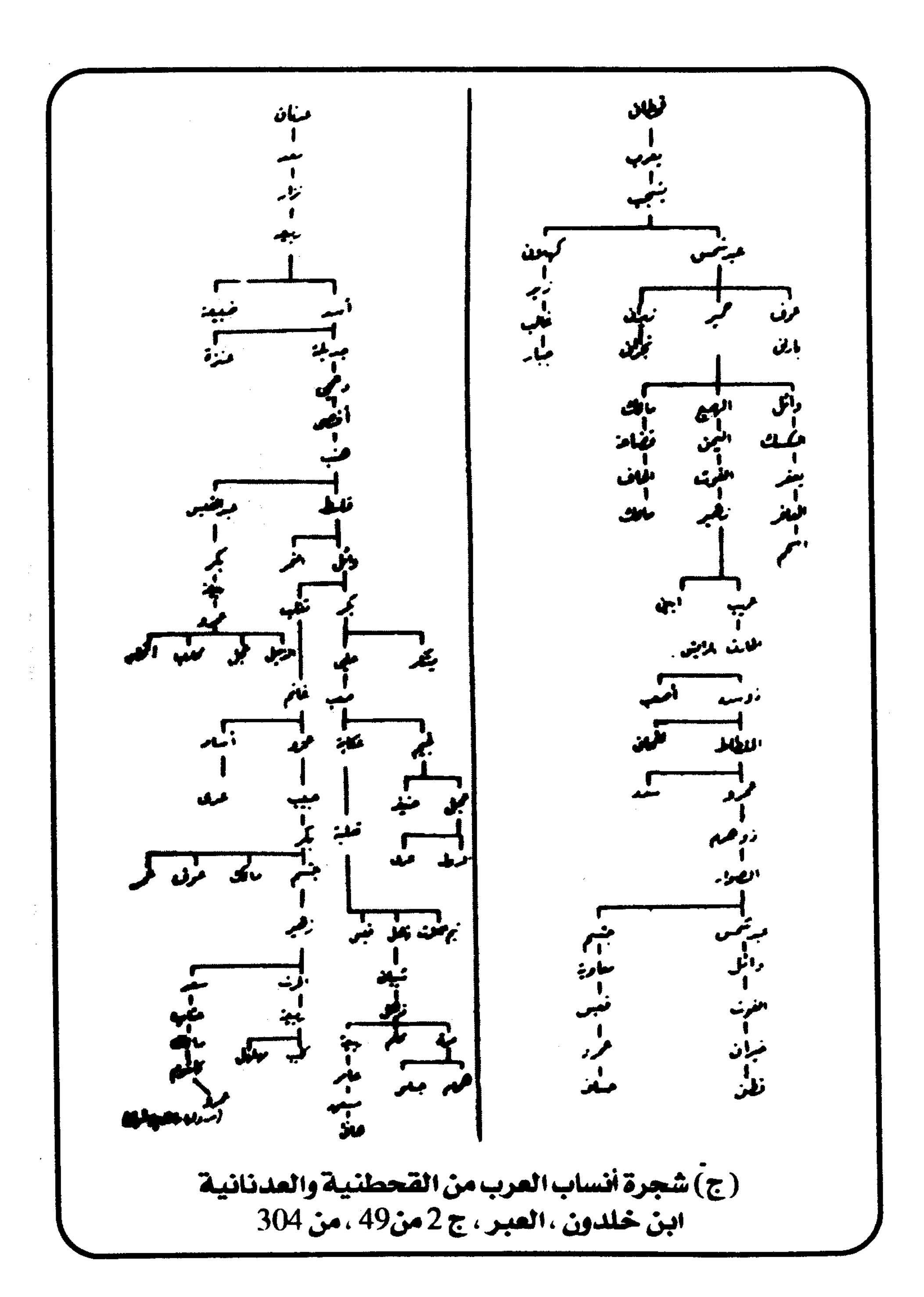
ورأى آخر فى الوأد يذهب إلى القول بأنه كان يتم للأطفال المشوهين أو الطفل الذميم.

كانت الطريقة السائدة فى الوأد، هى أن تحفر حفرة عميقة بجانب الموضع الذى اختير لولادة الأم، فإذا ظهر المولود أنثى قذف بها حية عقب ولادتها وهيل عليها التراب، وبعضهم كان يلجأ فى وأد البنات إلى أماكن خاصة بعيدة عن المنازل، وأشهر مكان معروف لذلك كان جبل أبى دلامة.

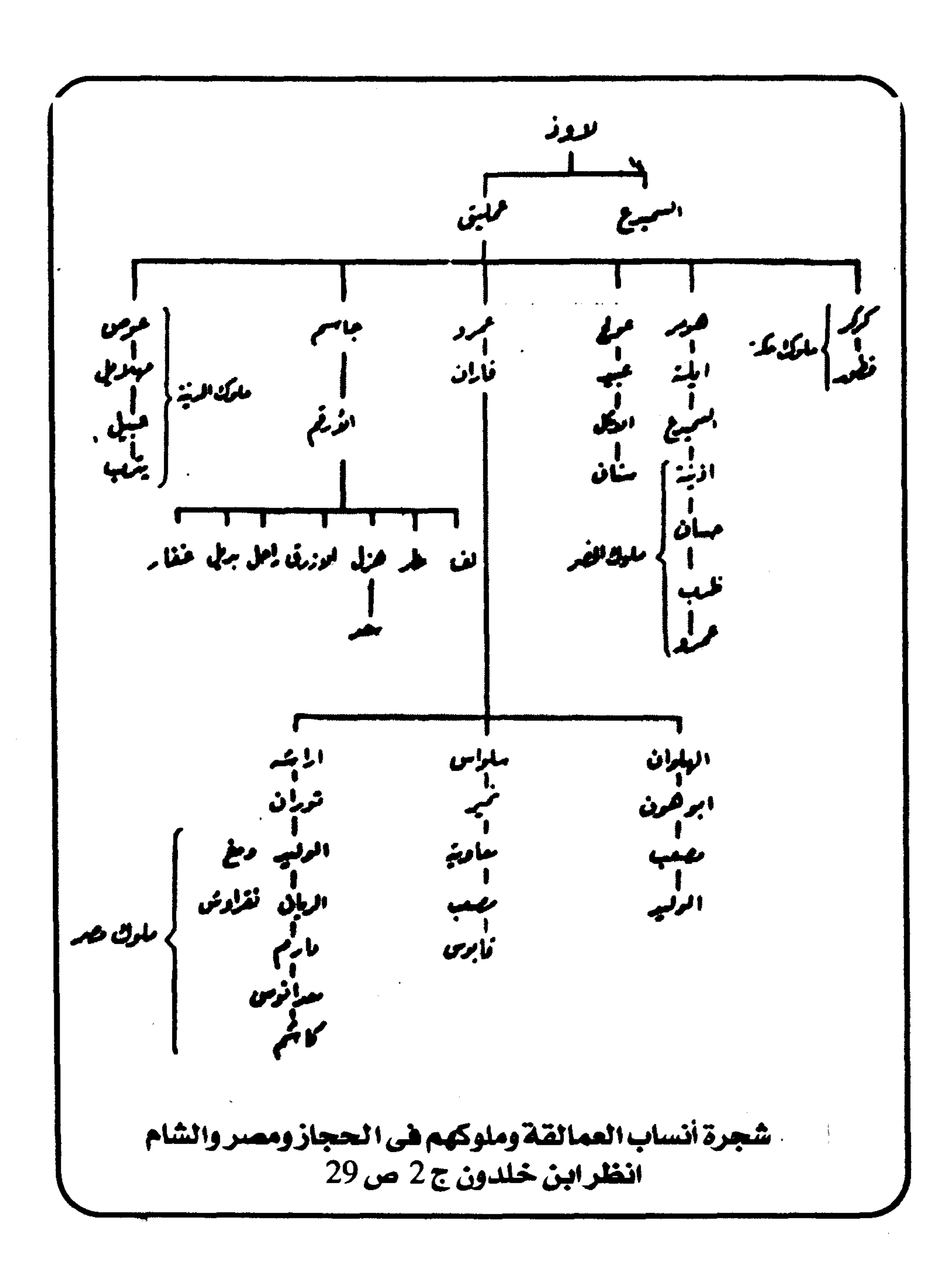
لم يكن نظام وأد البنات عاماً عند العرب قبل الإسلام، فقد كان يكرهه كثير منهم، وكان جمع منهم يفتدون المؤودات.

ومن القبائل التى اشتهرت بالوأد قبيلة ربيعة وكندة وطيئ وتميم، وقد ظل هذا الفعل متفشياً بينهم حتى جاء الإسلام، فمحاه محواً تاماً، والحمد لله.

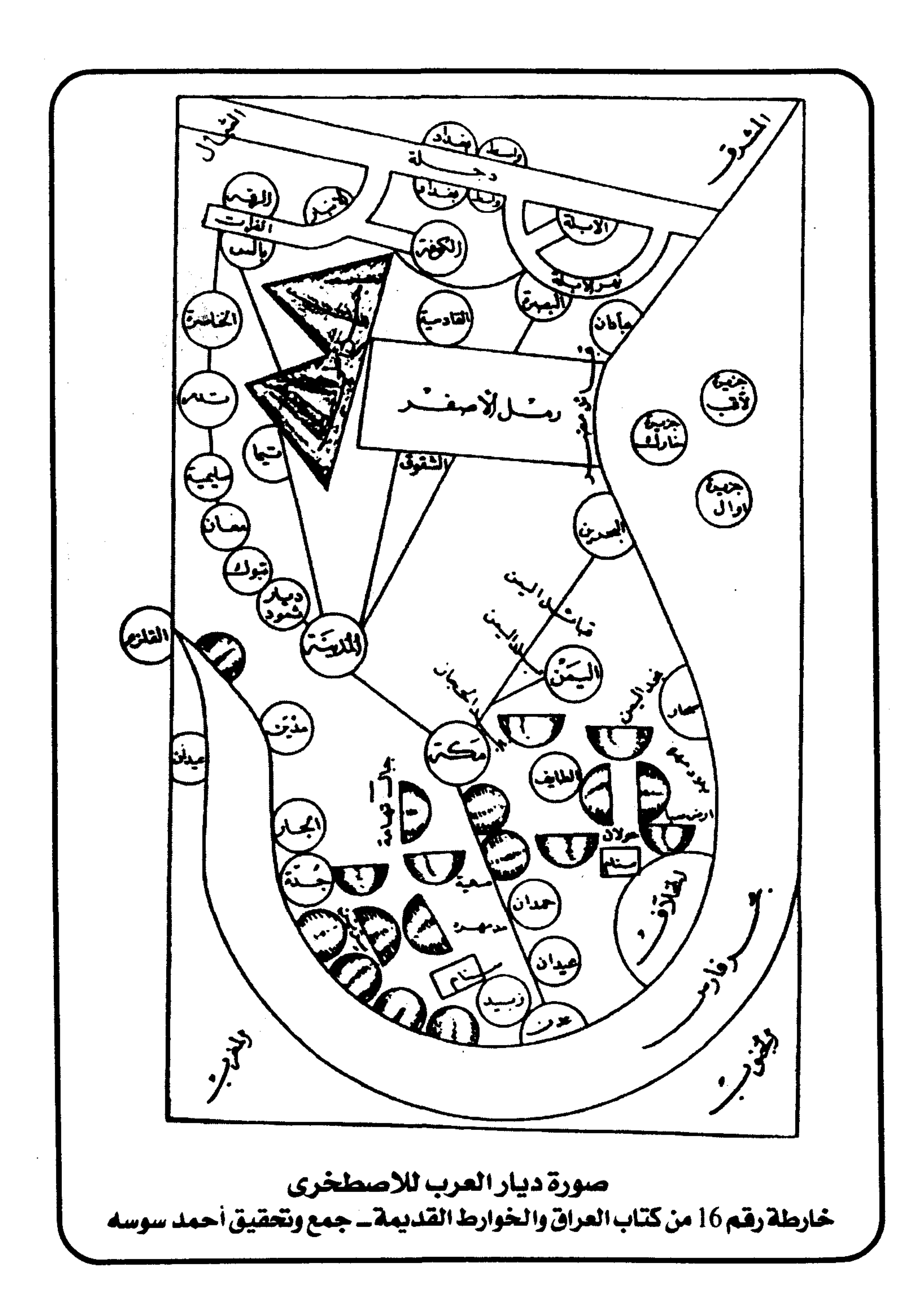
قائمة الصور التوضيحية



(ج) شجرة أنساب العرب من القحطنية والعدنانية
ابن خلدون ، العبر ، ج 2 من49 ، من 304

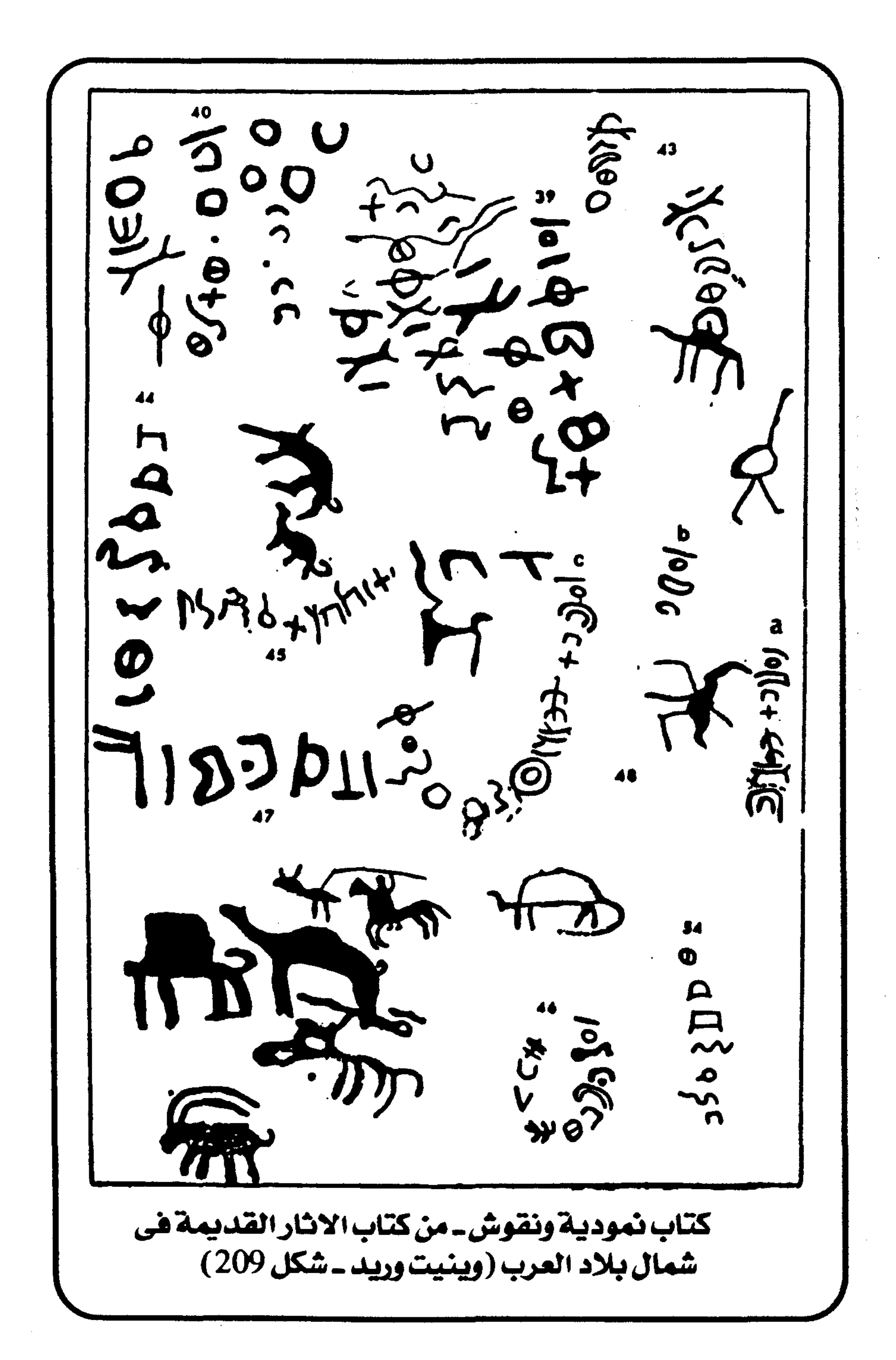


شجرة أنساب العمالقة وملوكهم فى الحجاز ومصر والشام
انظر ابن خلدون ج 2 ص 29



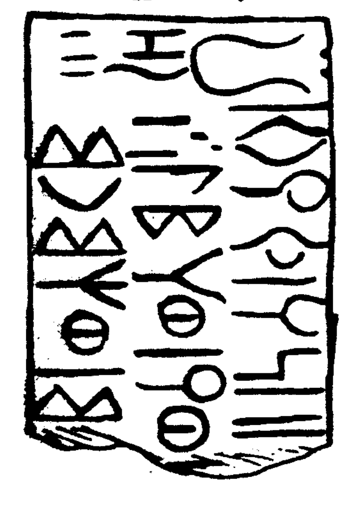
صورة ديار العرب للاصطخرى

خارطة رقم 16 من كتاب العراق والخوارط القديمة ـ جمع وتحقيق أحمد سوسه



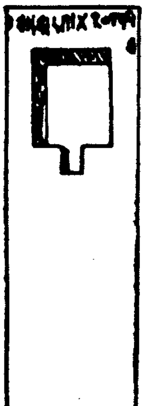
كتاب نمودية ونقوش - من كتاب الاثار القديمة فى
شمال بلاد العرب (وينيت وريد - شكل 209)

جزء مفش سبأيمحفور فى
الحجر الجيرى محفوظ
بمتحف فيينا





حجر كريم سبآى بالمتحف
البريطانى - لندن



نصب من مآرب
مجموعة جلازر ومن رسمه

من كتاب التاريخ العربى القديم لنيلسن وهو مل وورود كاتاكيس وجرمكان
ترجمة فؤاد حسنين على اشكال 50 - 70 - 74

قائمة نقوش الحجاز ونجد

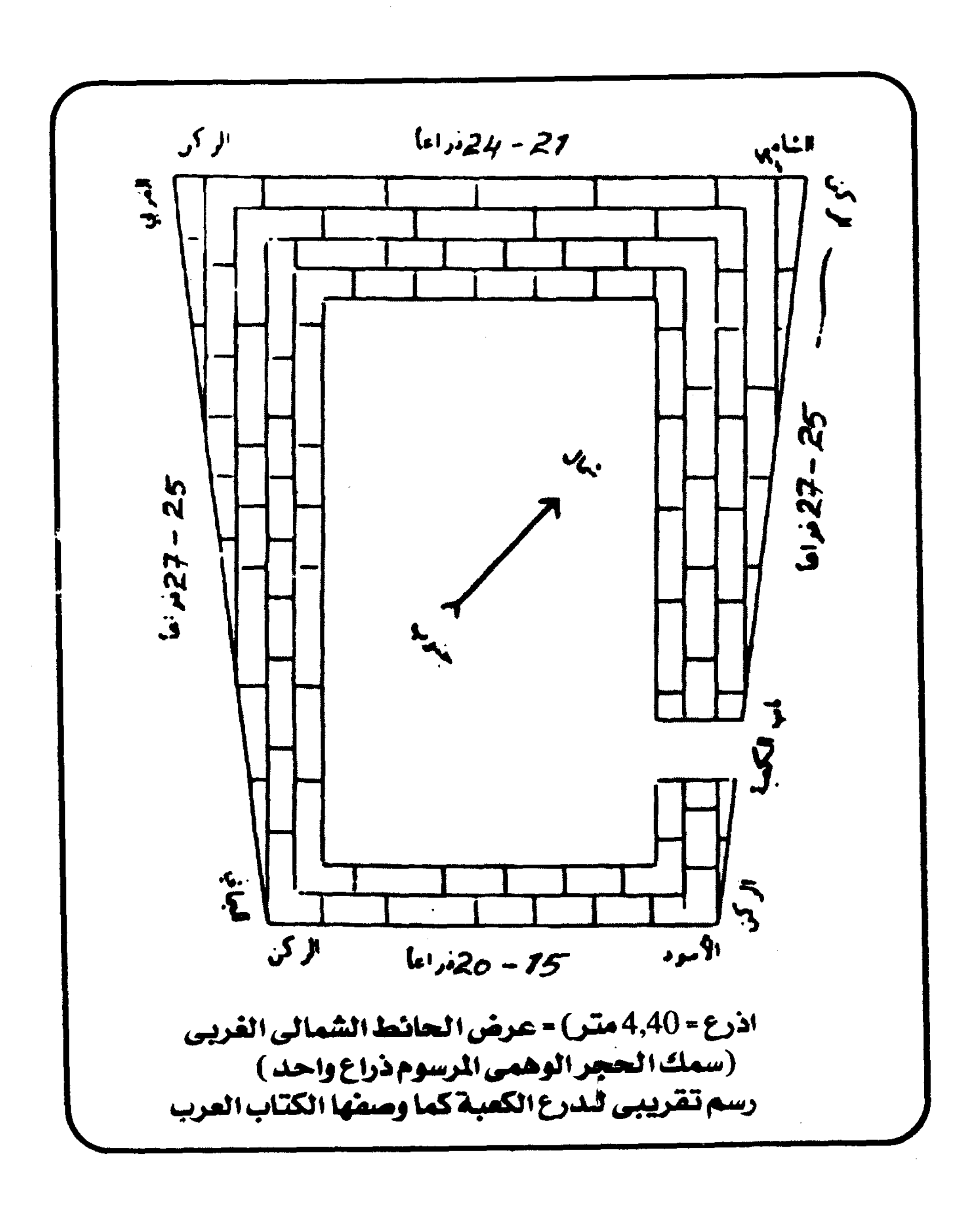
الثمودي اللحياني

تبوك الحجاز نجد متأخر مبكر ددان الجوف تيماء

	تيماء	الجوف	ددان	مبكر	متأخر	نجد	الحجاز	تبوك	
'									ا
b									ب
t									ت
ṯ									ث
j									ج
ḥ									ح
ḫ									خ
d									د
ḏ									ذ
r									ر
z									ز
s									س
ś									
š									ش
ṣ									ص
ḍ									ض
ṭ									ط
ẓ									ظ
ʿ									ع
ġ									غ
f									ف
q									ق
k									ك
l									ل
m									م
n									ن
h									هـ
w									و
y									ى

قائمة نقوش الحجاز ونجد ـ من كتاب الآثار القديمة فى شمال العرب (وينيت وريد ـ ص 205)

من اطلس خط المنشور بمناسبة مرور الفى سنة على انشاء الامبراطورية الايرانية ـ اصفهان (1391هـ)
بمعرفة حبيب اله فضائلى (ص 108)



اذرع = 4,40 متر) = عرض الحائط الشمالى الغربى
(سمك الحجر الوهمى المرسوم ذراع واحد)
رسم تقريبى لذرع الكعبة كما وصفها الكتاب العرب

ثبت المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع التى وردت بالهوامش

القـرآن الكـريم

ـ التـوراة

- أبو الحسن على بن الحسين المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة الأستاذ محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٨م.
- أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى، الأصنام، نشرة أحمد زكى باشا والدار القومية، القاهرة، ١٩٦٥م.
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى، فى أخبار الرسل والملوك، الجزء الأول
- الاصطخرى، المالك، طبع القاهرة، ١٩٦١م.
- البلاذرى، أنساب الأشراف، ذخائر العرب، طبع دار المعارف تحقيق محمد حميد الله.
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، الإسكندرية، ١٩٧٣م. اليعقوبى،
- توفيق سليمان، نقد النظرية السامية، الجزء الأول، دار دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
- تيودور نولدكه، أمراء غسان من آل جفنة، تعريب الدكتور بندلى خورى والدكتور قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٣م.
- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ١١ جزء.
- جورجى زيدان العرب قبل الإسلام، دار الهلال، القاهرة، ١٩٠٨م.
- حمزة بن الحسن الأصفهانى، تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء، برلين، ١٩٤٠م.
- سالم الجسر، سلسلة تاريخ العرب و الإسلام، العدد الأول، دار الشورى، بيروت.
- ستينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة وتعريب السيد يعقوب بكر، القاهرة.
- سعد زغلول عبد الحميد، فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م.

- صالح أحمد العلى، محاضرات فى تاريخ العرب، الجزء الأول، بغداد، ١٩٥٩
- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بيروت، ١٩٦٥م.
- عبد الله خليفة الخياط، تاريخ العرب قبل الإسلام، منشورات الجامعة المفتوحة.
- عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربى، القاهرة.
- عبيد بن شرية الجرهمى، أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، طبعة حيدر أباد الركن، ١٣٤٧هـ.
- عدنان البنى، الفن التدمرى، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.
- على بن أحمد أبى الكرم بن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الأول طبع القاهرة، ١٣٤٣هـ.
- تموستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطابع عيسى البابى الحلبى وشركاه، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤م.
- فيليب حتى، تاريخ العرب، ترجمة محمد مبروك نافع، القاهرة، ١٩٥٣م.
- لويس دودو كناكس، الحياه العامة للدول العربية الجنوبية، ترجمة فؤاد حسنين على، القاهرة، ١٩٥٨م.
- محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، بيروت، ١٩٨٥م.
- محمد محمود جمعة، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، القاهرة، ١٩٤٩م.
- وهب بن منبه، التيجان .
- ياقوت الحموى، معجم البلدان
- يتلف نيلسون، الديانة العربية القديمة، ترجمة فؤاد حسنين على، القاهرة، ١٩٥٨م.
- محمد سعودى، الوطن العربى دراسة لملامحه الجغرافية، دار النهضة العربية بيروت.
- محمود سلام زناتى، نظم العرب قبل الإسلام، القاهرة، ١٩٩٢م.

محتويات الكتاب